

رجائى عطيّة

الأديان والزمن والناس

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دار الهلال



الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

الإدارة

القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)، المكاتبات: ص. ب: ١١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدي ١١٥١١ - التلغرافيا: المصور - القاهرة ج. م. ع.

التلكس:

Telex 92703 hilal u n

فاكس:

FAX: 3625469

العدد ٦٦٩ - سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٦م

شعبان ١٤٢٧ هـ - نسىء ١٧٢٢ق

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١٢٥٠ فلسا - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١.٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١.٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٢.٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات .

البريد الإلكتروني:

darhilal @ idsc. gov. eg

الأديان والزمن والناس

رجائى عطيّة

الغلاف للفنان :

أحمد أبو السعود

الخطوط للفنان :

محمد العيسوى

تقديـم

يشترك أهل الديانات ، وأصحاب الدعوات ، في الانشغال بتساؤلات قد تصل حد الحسرات ، علي مـا كـان عليـه الدين - أي دين - في منبعـه الصـافي حين تلقـاه أسـلافنا الأوائل من النبي أو الرسول الذي حمل دعوة الله تعالي إلي الناس ، وبين ما صار إليه فهم إو التزام أو سلوك الأجيال في الزمن أو الأزمـان التـاليـة للبعث الذي اتصلت فيه الأرض اتصالاً حياً بالسماء ؟!

مـا أسبـاب هذا الفـارق - اتسع أو ضـاق - بين الدين كمـا نزل ، وبين فهم أو عدم فهم الحـاليين له ؟!.. مـا الذي حـدث عبـر الزمـان حـتي أخـذ الناس بعيـداً عن فـهم روح وقيم ومبـادئ وأحكام الدين كـمـا تلقـاه الأسـلاف الأوائـل في زمن البـعث ؟! .. مـا الذي حـدث طـوال الرحلة الطويلة التي قطعتها الأديان أو قطعها المتلامسون مع الأديان عبـر الزمـان؟! مـا الـذي أضـافـه الناس تعميقـاً صـحيحـاً لفـهم الدين ، ومـا الذي

ألصقوه مما ليس من الدين في شيء؟! . ما الذي تركه الزمن، وما الذى أخذه ، وكيف نستطيع أن نشق طريقنا وسط الركامات المتراكمة إلي جوهر الدين ونستخلصه رائقاً مصفي كما نزل من رب العالمين ؟! ..

هذه محض محاولة سرت فيها مع الأديان بعامة عبر الزمان ، حاولت مستطاعي أن نري معاً ما يعيننا علي فهم الأديان كما نزلت وعلي أن نتقدم واعين فاهمين مدركين إلي دوحة الإيمان ٠

رجائى عطيه

الأديان، والزمن، والناس !!

يشتـرك أهل الديانات ، وأصحاب الدعوات ، في الانشغال بتساؤلات قد تصل إلى حد إطلاق الحسرات ، على ما كان عليه الدين ـ أي دين ـ في نبعه الصافي حين تلقاه أسلافنا الأوائل مباشرة من النبي أو الرسول الذي حمل دعوة الله تعالى إلى الناس ، وعلى ما صار إليه الدين في إيمان أو فهم أو التزام أو سلوك الأجيال في الزمن أو الأزمان التالية للبعث الذي اتصلت فيه الأرض اتصالاً حيًا بالسماء !

تنشغل التساؤلات ـ أو الحسرات ! ـ بالهوة الملحوظة ، أو الفلق الواسع ، أو المساحة الفارقة ، بين ما آل إليه " اعتناق " الناس والتزامهم بدينهم وفهمهم لروحه وقيمه ومبادئه وأحكامه ، وبين ما كان عليه " اعتناق " الأسلاف الأوائل لدينهم ، وفهمهم له ، وامتزاجهم به وذوبانهم فيه ، حتى صار الواحد منهم

" رسالة مجسدة " للدين ، دالة عليه ، ومحببة فيه ، وداعية إليه !

في البدايات الأولى للأديان ، يكون الدين ديناً صرفاً ، يحفظ له ذلك أنه رسالة موجهة إلى جماعة تدعوها إلى تغيير قدر - كبر أو صغر - من عاداتها وما ألفته في جانب أو أكثر من جوانب حياتها .. الديانات تبدأ رسالتها بخطاب إلى الدائرة المحيطة بالنبى أو الرسول .. يصدق هذا على الأديان المفتوحة المتسمة - كالإسلام - بعالمية الدعوة إلى الناس جميعاً، فى كل زمان ، وفى كل مكان ، ويصدق أكثر على الأديان التى نزلت إلى أقوام بعينهم ، لأن خصوصية الخطاب فيها يلازمها من بدئها .. لذلك فالمعتنقون الأوائل لهذا الدين أو ذاك، أفراد قلائل بالضرورة ، ومع ذلك - وبرغم اقتناعهم بضرورة هذا التغيير الذى يدعوهم إليه هذا الدين ، والسعى المخلص اللازم لانتشاره - فإنهم يعيشون حيواتهم كما عاش آباؤهم ، ضمن الجماعة الكبيرة أو المحيط الواسع غير المقتنع - أو غير المقتنع بعد - بالدعوة التى آمن بها

من صدقوا واعتنقوا الدين الجديد .. فإذا زاد عدد المصدقين المؤمنين ـ تعارفوا وتكاتفوا وتجمعوا سراً ثم علانية ، للإقلال من إحساسهم بالغربة وسط المحيط الواسع المخالف لهم ، ومخافة استرابة هذه الجماعة الكبيرة فى أمرهم !! .. فإن تكاثروا ـ شعروا بأنهم أصبحوا جماعة مختلفة لها مصالحها ، وصارت هذه المصالح الناشئة ضمن ما يحرص عليه أتباع الدين الجديد ، فتمتزج به ـ قصداً أو تلقائيا ـ امتزاجاً كليا تشارك به فى تحديد مساره ، فيصير بها الدين بداية لحضارة جديدة إذا استطاع الدين أن يوجد حياة اجتماعية غير التى كانت قائمة وموجودة ، وذات خصائص وجوانب متميزة عما كان ، ولها طابع وتاريخ وتطور لا يشاركها فيه سواها .

يجلى هذا الواقع ، أن الدين يخاطب أحياء فى حياة ، ينتفع به الحى ، لا الميت .. ذلك أن عناية وهَمَّ الدين فى الإصلاح والتقويم .. فى تنظيم دنيا الأحياء بمحاولة ربطها بالآخرة ربطا يقيم سقفاً للناس يضبط مسارهم وسلوكهم ..

وحين يظهر لعيون الناس أن دينهم قد حقق لحياتهم العامة والخاصة ازدهارا ونماءً ، يصبح الدين من أمجادهم الاجتماعية ، يزدادون به تعلقاً بجماعتهم والتصاقاً بها.

وعكس ذلك صحيح ، لأن الإصرار من جانب المتخلفين المتقلصين ـ ليس إلاّ تحدياً وعناداً وتعصباً وتحولا عن الاهتمام بالمستقبل ـ إلى التعلق بالماضى الذى لم يبعد إلاّ ذكراه وآثاره ومايُرى أو يُحكى عنه وعن أهل زمانه المنقضى المتباعد !

صيرورة الدين من الأمجاد الاجتماعية ، أو صيرورته تحديا اجتماعيا صلبا فى مواجهة الجماعات الأخرى المتكبرة ـ معناه أن الدين قد صار ملكا للجماعة ، فطنت إلى ذلك أولم تفطن إليه .. وبات المتصرف فيه هو القوة المتصرفة فى الجماعة ، وصار بذلك خاضعاً لمطالب وآمال الجماعة فى ظروفها ، وقوتها وضعفها ، وتقدمها أو تأخرها ، ورشدها وضلالها .

مهما قال أو كتب رجال الأديان ، أو قرروا وأصلوا ـ من التراكيب أو المقولات أو المقررات أو الأصول فى رفع شأن الدين ووجوب أن يبقى على القمة فوق كل شىء آخر وقبل كل أولويات يغرق فى الالتفات إليها بنو الإنسان ، فإن هذا كله لا يغير ـ أو لا يغير بالقدر الكافى ـ من الوضع الذى بلغ إليه الدين فى المجتمع وواقع القوى الفعالة المهيمنة المتصرفة فى هذا المجتمع ، سياسية كانت أو عسكرية أو شعبية .. هذه القوى تتقدم مصالحها جدول أولوياتها ، ومهما كان أو يكن اهتمامها بالدين فلن يكون فى مرتبة اهتمامها بمصالحها الكبرى الأخرى ، وبمتطلبات واقع وحاجات وظروف عموم الناس الخاضعين لهيمنتها وتوجهاتها وتوجيهاتها فى منظورها هى ورؤيتها هى وليس فى رؤية رجال الدين الذين لا يحملون أو ينشغلون بمسئوليات الحكم وقد لا يلتفتون إليها!

زحف المصالح على الأديان ، والتخالط معها ، أو الامتزاج بها ، أو التخفى وراءها ـ ظاهرة مرئية فى

جميع الحضارات التى نشأت حول هذا الدين أو ذاك .. تستطيع أن تلحظ ذلك فى حياة اليهودية ، مثلما تلحظه فى حياة المسيحية والإسلام .. تداخل الأغراض والمصالح فى تاريخ اليهودية بدأ منذ عهد موسى عليه السلام الذى عانى من ذلك الأمرين ، واستمر طوال عصور النبوات المتعاقبة ولم تنقطع قط مخالطة النشاط السياسى وخططه ومصالحه للدين ، والحركة الصهيونية المخلوطة باليهودية الساعية للامتزاج فيها ، حركة مصالح تخلط مجدها المنشود بأمجاد اليهودية السابقة ، وتسعى للاندماج فى الدين لتصير جزءاً منه !! .. الحروب الصليبية حروب دفعتها وحركتها وشملتها مصالح صرف تعمدت أن تمتزج هى الأخرى بالدين وتنتظم فيه لتكون به قوة تدفع سفينة المصالح إلى مآربها !! صراعات الكنيسة فى العصر الوسيط سواء مع الدولة أو فيما بين باباواتها ـ صراعات مصالح مهما تسترت وراء الدين أو التصقت بركابه ومزجت نفسها به !! .. الحركة التى قادها مارتن لوثر زعيم البروتستانتية (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦ م) ،

إنما كانت احتجاجا على مفاسد تغلغلت فى الدائرة البابوية فى روما آنذاك ، وعلى الانحلال الروحى فى الأوساط الكنسية العليا ، وتحديا لحركة بيع صكوك الغفران .. وما صاحب ذلك من مصالح تغلفت بالدين وامتزجت به وحسبت نفسها فيه !!

.. النزاع الذى ركبه معاوية للخروج على الإمام على ، ولبس فيه لباس الدين ، وقميص عثمان ، نزاع اصطنعته المصالح ، سواء القبلية الأموية فى مواجهة البيت الهاشمى ، أو الثروات التى تضخمت وكبرت المصالح حولها حتى صار الصراع فى حقيقته صراعاً بين الدين فى نبعه الصافى الذى يمثله الإمام على ، وبين الملك الذى أخذ يمثله معاوية والتحف بها أصحاب الأهواء والمصالح ، ولم يفتهم أن يبحثوا لأنفسهم عن ركاب يلتحفون فيه بالدين ويتسترون وراءه ، فكثر وضع الأحاديث ونسبتها زوراً إلى رسول القرآن ، ولم تخل مشايعة وتبنى الفرق والأحزاب الإسلامية من هذه الأغراض المجدولة بالمصالح ، فتبنى الأمويون فكر الجبرية وما يدعو إليه من أن الإنسان مسير لا مخير،

لأن ذلك يروج لملكهم مادامت ولايتهم - بهذا الفكر - ولاية مقدورة محتومة بأمر الله لا فكاك منها!!

أخطر ما فى تدابير المصالح أنها فى سعيها لمخالطة الدين والتترس به تهدف للتوحد معه ، فتأخذ الدين بذلك بعيدا عن صفائه الأول وتلحق به ماليس منه !!

هذه الحال هى دائما حال الدين - أى دين - منذ صارت جماعة معتنقيه جماعة كبيرة لابد لها من مسئول عن قيادتها، وعن سلمها وحربها ، ومرافقها وأنظمتها .. أو منذ صار ديناً غالباً لجماعة كبيرة ذات سلطات وأنظمة ومرافق لحكمها وإدارتها وكفالة عيشها واستقرارها فى المحيط المائج من الجماعات الأخرى المنافسة أو المعادية أو الموالية..

الدين فى حضن الجماعة الكبيرة يتزود ويتأثر باستمرار بنفوذ وأفكار وغايات وأغراض القوى الفعالة فيها - سواء فطن أهله لذلك أو لم يفطنوا!!

من محال المحال أن يكون تدين الناس الآن على صفائه ونقاوته ببساطته الأولى التى كان عليها لدى أسلافنا الأوائل .. بل من شبه المحال أن يعرف أى متدين الآن معنى ما كان عليه الدين بالضبط فى تلك البدايات الأولى . ذلك أن الدين ينمو ويفرخ وتمتد فروعه وتنتشر شعابه خلال حياته فى أحضان الجماعات الكبيرة عبر قرون عديدة طويلة .. هذا النمو قريب من نمو القرية الصغيرة إلى قرية كبيرة، ثم إلى مدينة تكبر حتى تنقسم إلى أحياء أو مدن لا يكاد القاطن فيها اليوم يعرف كثيرا عن حقيقة القرية الأولى التى كانت نواة للمجتمع الكبير الذى يعيشه الآن فى عالم المدينة الواسع!

أعود فأقول إنه من محال المحال أن تكون الأديان اليوم - على واقعها بصفائه ونقائه الذى كانت عليه فى البدايات الأولى ، وصعب - إن لم يكن من المحال ، أن يستطيع الباحث الآن - متدينا كان أو غير متدين - أن يحس الدين ويعرفه ويشعر به كما كان يحسه ويعرفه

ويشعر به العقلاء الذين تلقوه فى البدايات . الدين وإن يحفظ لنفسه الاسم وبعض المظاهر والخط العريض ـ إلاّ أن الجوهر والحيوية والاتجاهات البشرية الهامة قد تغيرت وتغيرت مرات ومرات خلال حياة الآدميين وموتهم عبر القرون العديدة!

نمت القرية الصغيرة حتى صارت مدينة هى الأخرى كبرت ، وانقسمت المدينة الكبيرة حتى أصبحت مدنا تعرف أو لا تعرف بعضها بعضا معرفة قوية معقولة حسبما يتهيأ لها من الظروف المواتية أو غير المواتية !

ومع استبعاد ادعاء من يدعون الفهم غروراً وزهواً ، أو وهما وكسلاً ـ فإنه يستحيل على أى آدمى أن يفهم ـ اليوم ـ شيئا ما فهما جاداً إلاّ بالاعتماد والاستناد إلى عقله هو ـ عقله اليوم ـ الذى يستعمله فى الهام من أمور حياته حسب ما يقتضيه الموضوع من جهد عادى أو غير عادى ، وما يراه فيه من بساطة أو تعقيد ، وما لديه من سابق الخبرة أو من الخصوصية والمعرفة ، علما بأن الآدمى العادى ـ

ونستثنى الصفوة والحكماء والعقلاء - يتوارث المصدقات والاعتقادات والعادات الفكرية بلا فحص ، ويتبعها تلقائيا ، وينقلها إلى من بعده دون أن يتفهمها عقله ، بل هو لا يفكر فى عرضها على عقله إلاّ فى نادر النادر .. لأنه يتجنب الجهد الجاد ، ويتحاشى المحاذير وإثارة شكوك حوله ليس لها فى نظره موجب ولا جدوى ، فيؤثر التزام " التقليد " الإرادى أو غير الإرادى ، لأنه يريحه من عناء البحث والمجاهدة ، ويجنبه أن يساء به الظن ، ويوفر له من ثم صمام أمنٍ مجرباً ومضموناً!

إن أديان البشر جزء لا يتجزأ من الحياة البشرية ، ويستحيل أن تنفصل حياة الأديان ومضمونها عن حياة الناس الذين يعتنقونها ويتفاعلون معها ، ويستحيل أن تستقل الأديان بوجود خاص بها مفصوم عن الناس ونشاط وتفاعل وانطباعات الناس .. ذلك أن علاقة الأديان بالخالق جل شأنه كانت وستظل دائماً علاقة آدميين فانين متغيرين متطورين - بهدف باق - مع تفاوت نظرتهم له والتفاتهم

إليه بتفاوت الأزمنة والأمكنة ، والنمو والتقدم . إن الله عز وجل حقيقة مطلقة غير محدودة ، بيد أن الآدمى لا يستطيع إدراك الحق سبحانه وتعالى إلا بإدراك نعمه وآثاره ، وبحسب سعة هذا الإدراك أو ضيقه!

لقد رأت الأجيال والقرون الطويلة ، وجمعت واعتنقت وانحازت ـ إلى ألوان وأشكال من المصدقات والمعتقدات والولاءات والملل والنحل والمذاهب والفرق ، ورددت قوائم لا آخر لها من الأولياء والقديسين الحقيقيين وغير الحقيقيين ، وتناقلت ما لا عدد له من الأخبار والسير أفرزته الديانات عن المعجزات والكرامات والأعاجيب والأسرار والقوى الغيبية الخفية التى تنصر العقائد وتقوى يقين من صدقوها ، وتحول من قاوموها عن بطشهم ونكالهم ـ لأن مخيلة الآدميين عاملة ناصبة لا تكف عن تلطيف جهامة الواقع بطيب الرؤى والأمانى ، مادامت وجدت دعاة يخاطبون آمالها وأشواقها إلى الهداية والمعرفة بالوعود والعهود ، ويستنفرون دوام الإفناء والإيجاد ، مع اطراد الموت والحياة ـ في تحويل هم

أو غم الحـاضـر إلى مـاض ، وتحـويـل المسـتقـبل هنـا أو فى الآخرة إلى أمل باسم تتمناه مخيلة الآدمى وتنتظر راجيةً أن يتحـول إلـى واقـع فى حياتها الدنيا أو الباقية !

الأديان ، والحياة

تكاد تشترك الأديان فيعنايتها بالآخرة ، وفى اتخاذها سبيلاً لإقامة سقف ـ بالترغيب والترهيب ـ ينضبط به سلوك الناس ، يقبلون به على الأوامر والخيرات ، ويكفون عن النواهي والآثام .. بيد أن قدرة الأديان على الامتداد في الزمان ، وهذا معلم من معالم الديانات العالمية المفتوحة كالإسلام ، يتوقف على مقدار ما فيها من قدرة على التعامل مع الحياة والأحياء ..الأديان ثابتة ، وأحوال الناس فى الحياة المتعاقبة متغيرة متطورة .. لا تتساوى الأديان فى البذور التى تحملها بنيتها وتستطيع بها أن تداوم الحياة ـ قوية مؤثرة ـ مع الزمن وما يطرأ عليه من أحوال متغيرة متجددة لا تتوقف. قدرة الدين على الاستمرار المتوهج ، مرهونة بقدرته على حماية روحه وبنيته ، سواء من زحف المصالح التى لايفتأ الناس يقحمونها على الأديان فى كل العصور، ويسعون لإلحاقها به لتستمد منه الشرعية والحماية ، أم من

طروء الحوادث والمتجددات وما تستوجبه من إيجاد الحلول والإجابات ، واستنباط القواعد التى تواجه مستحدثات عالم لا يتوقف لحظة عن الاندفاع والجريان ، أم بتدارك ما تستدعيه احتمالات الخطأ أو القصور فى آراء للناس سبقت كانت محكومة بزمانها والمتاح فيه من علم ومعارف لم تكن مصنفة منشورة ميسورة كما هى الآن .. وقفة أهل الأديان ، القادرين على النظر والبحث والاجتهاد ، وقفة لازمة لتخليص الأديان من الزواحف الضارة عليها ، أو تنقيتها من ملصقات لا تنتمى إليها ، أو استيلاد الحلول من مبادئها وأحكامها الكلية لتجيب عن أسئلة ومعضلات ومشاكل وأقضيات طارئة أوجدتها ظروف ومستحدثات لم تكن موجودة بأمس !

هذه المهمة الضرورية اللازمة ، تصطدم دوماً بسوء ظن الناس أن الاقتراب من الأديان مشبوه ، وأن التجديد فى الأديان تغيير لها ، وأن تجديد الخطاب أحبولة لستر هذا كله سترا قليلاً أو كثيراً .. يدفع الناس إلى هذه الظنون كمية

متراكمة من المصدقات استقرت معظمها بلا نظر ولا بحث ولا تأمل !!

من سلبيات ما تتعرض له الأديان أن تتحول فى وجدان المؤمنين بها إلى مجرد صيغ وقوالب ومقولات تردد دون تفطن لمعناها ومغزاها ومقاصدها .. هذه الترديدات للصيغ بلا فهم تعنى انفصالا مريضاً عن روح الدين ومقاصده .. فارق بين من يقرأون الكتب المقدسة بوعى وفهم ونظر وتأمل ، وهؤلاء للأسف قلة ، وبين من تستغرقهم القراءة الآلية فينصرفون عن التفطن والتأمل وفهم مراميها وإيفائها حقها من الإعجاب والإجلال . وهذا يحذف من فهم الناس للأديان شريحة كبيرة، يساهم فى قصور فهمها أن الألفاظ والأساليب تختلف دلالتها أو تنتهى بتغير العصر ، وكذلك الشواهد .. فالمعلومات والمعارف فى عصر ما ، تختلف عنها فى سواه .. كما تختلف قوتها باختلاف الأزمنة ، فما كان يصلح شاهداً صغيراً فى زمن ما ، قد يصبح شاهداً كبيراً

فى زمن لاحق ، وقد يصعب الاستشهاد به أصلا فى زمن ثالث .

يبقى المتدينون ، مهما تعاقبت الأزمان ، على أشواق ورغبة لا تنقطع فى فهم أحكام الدين الذى آمنوا به .. ولا سبيل إلى هذا الفهم ما لم يستطع القارئ للكتب المقدسة أن ينتبه ويعنى بمدلولات الألفاظ والعبارات والأساليب والشواهد فى زمن النزول الذى اتجه فيه خطاب الكتاب المقدس إلى معاصرين تغيا توصيل الرسالة إليهم وهدايتهم بها واقتناعهم بما جاء فيها ، ومن ثم لا يجزئ ولا يجدى فى فهم الدين الجمود فى الصيغ أوإعطاء مدلولات عصرية للعبارات والأساليب والشواهد ، سواء للإقناع أو البرهان ، لأن ذلك يبتعد عن استقصاء المقصود الحقيقى الأساسى للملّة أو الدين .. على أن فهم المعانى بالصيغ السائدة وقت نزولها، لا يعنى الجمود ولا غلق باب النظر والاجتهاد .. فالأديان نزلت للحياة ، وهى على احتكاك دائم بها وبالأحياء .

إن الكــون الـذى خلقـــه الله تعـالـى، "صـائــر دائمـا "، لا يكف عن الصـيـرورة وعن التطور والتـغـيـر .. الكـون مـن حولنا فى حـركـة دائمة لا تتـوقف ، ومع هذه " الصيرورة " الدائمة المستمرة يتعامل الآدمى ، يتفاعل ويتلاحم ككائن حىّ مع الكون الصـائر الحىّ ، ويلتـئم مـع هذه الصـيـرورة الحـيـة المتـفـاعلة .. إن الله عـز وجل هـو الذى خـلق المتطور وقليل التطور على درجات ومستويات ، وحكمته ورحـمـتـه سبحـانه تتصـلان بهذا وذاك بحسب حـالة كل منهمـا ومـا أنعم الخـالق عليـه به . ونزول الكتب المقـدسـة هو نـوع من اتصـال حكمـة الخـالق ورحـمـتـه بالآدمـيـين على مـقـدار تطورهـم الذى هو من سنن الله - اتصـالاً قـابلاً للامـتـداد عـبر الأجيال والأمكـنـة .. هـذا التطور الذى يـجـرى على الآدمـــيين وعلـى فـطرتـهـم ، يصـاحـبه لزومـاً تـطور حـيـاة اللغـة التى بهـا يتـحـدثون ويتلقـون ويتفاهمـون ، وتطور قيمة " الشواهد " المستمدة من ملاحظات البـشر ومـعـارفـهم ومـعلومـاتهم وتـواريخـهم - وكلها نسبية يرد

عليها ما يرد على اللغة ، وعلى الآدمى ذاته ، من تغيرات نسبية محتومة لا فكاك منها !

والأديان نزلت للحياة والأحياء ، لا للموت والأموات .. الإسلام - مثلاً ، دين حياة .. يخطئ من يظن أنه يزهد فى الحياة ، أويزدريها . قيمة الآدمى فى نظر الإسلام مستمدة أصلاً من الحياة ذاتها .. حياته على الأرض هى المحك والتفاعل الحقيقى مع القوانين والسنن الكونية ، والاختبار الأساسى لمدى إدراكه نعمة الحياة ، ولمدى إغتنامه من عدمه للفرصة الموهوبة له فى الدنيا لتوزن فى نهايتها أعماله .. لا يوجد فى الجنة اختيار ولا امتحان بين خير وشر ، وإنما هى دار جزاء ومكافأة صرف على ما كان فى الدنيا .. حياة الآدمى هى معراجه إلى السماء ، وهذه الحياة هى صك الآدمى وكتابه والمعبر الحقيقى إلى الجنة الموعودة .. روح الإسلام ، هو هذا الجوهر الدائم فى روح هذا الزمان وآتى الأزمنة ، مثلما كان فى الأزمان الغابرة .. لا يفهم الإسلام من لم يدرك أنه دين حىّ لحاضر حىّ ومستقبل أكثر

حياةً .. قيمة التراث المجيد ، ليست فى تقييده لعقول جديدة ونفوس جديدة مزودة مع الإسلام بزادها الحاضر من علوم عصرها ومعارفه ، وإنما قيمة هذا التراث المجيد فى أنه خطوات خطاها المسلمون فى رحاب هذا الدين سبقوا بها زمانهم وعالمهم نحو مزيد حققوه من الاستنارة والعلم ، وإلى مزيد يتطلعون إلى تحقيقه !

إن الحياة - بسنة الخالق جل شأنه - حياة صائرة ، متطورة متغيرة.

والثبات والتغير ، والدوام والانتهاء ، والتطور والجمود - أحوال لمخلوقات الله عز وجل .. تجتمع وتفترق فيما خلق ، وتؤكد وحدانيته الخلاقة . بغير استيعاب هذه الحقائق ، يعيش الآدمى بعقليتين منفصلتين : عقلية دينية ، وعقلية زمنية . عقلية دينية تتعرض لافتراض الجمود وتوقف التطور إذا انحبست بلا فهم فى صور ترجع - رواية وتداولا - إلى ألفين أو ثلاثة أو أربعة آلاف سنة ، وهذا الافتراض لتوقف التطور والترقى يعارضه بالضرورة ما نشاهده ونلمسه

مما أتاحه الخالق عز وجل للتطور فى أجسامنا وعقولنا ، وفى محيطنا وفى الكون . أما العقلية الزمنية فتسلم بالتطور وإمكان الترقى ، ولا تتقيد إلاّ بما صح وما لا يتعارض مع مألوف الحياة ونواميس الوجود ،لأن العقلية الزمنية لا تعمل بتاتاً فى عالم الخوارق والمعجزات والكرامات التى لاتحفل بالقوانين الطبيعية والنواميس التى هى أيضاً من خلق الله تعالى جل شأنه.

اختراق القوانين الكونية والنواميس ، كان فقط منحة ربانية - وحجة صدق - للأصفياء من الأنبياء والرسل والأولياء والقديسين . وهذا الباب فيما يبدو ، هو الذى يدخل ويستند إليه الآدمى للتصالح والجمع بين العقلية الزمنية والعقلية الدينية .

والأديان كى تبقى حية ، يجب أن تمتزج بحياة الناس فى عصرهم امتزاجاً فعلياً كامتزاج الأخلاق والعلوم والفنون بحياتهم ، وهذا الامتزاج لايكون حياً حين تكون الأديان هامشية فى حياة الناس ، أو حين يقعد أهل الأديان عن

استخراج ما فى روحها وبنيتها من قواعد وأحكام تغطى وتلاحق حركة الحياة والأحياء .. يكون جناية على الدين ذاته ، أن يؤثر علماؤه وفقهاؤه الإحجام عن الاجتهاد مخافة أن يساء بهم الظن .. قعود أجنحة العقول عن التحليق ، وإحجام الصداحين عن الغناء ، يضرب ستاراً كثيفاً من الصمت والركود يفقد الأديان حيويتها وأثرها ، ويريح إراحة مرضية الأكل على موائد مدت من آلاف السنين طرأت فيها على الدنيا أحوال ومستحدثات لم تكن فى حسبان أحد فى ذلك الزمان!

الحياة ، بسنن الخالق المبدع ـ لا تكف عن الحركة والتغير والتطور ، بينما الأديان ثابتة .. فكيف يلتئم الثابت الخالد مع المتحرك المتطور المتغير ؟! .. هل مسايرة تطورات الحياة بما تستلزمه من حلول ، تتحدى او تمس ثبات الدين وتمثل خطراً على أحكامه الخالدة التى لا يجوز أن تكون عرضة لتبديل أو تغيير ؟.. هل يستطيع الدين أن يلبى تطورات ومتغيرات ومستحدثات الحياة دون أن يفقد ثباته وخلود أحكامه ؟.. يفرض هذا التساؤل الحتمى أن الأديان

نزلت للحياة والأحياء، والحياة بسنن الخالق المبدع متطورة متغيرة ، فماذا إذا تخلف الدين عن متابعتها وتلبية مستحدثاتها بحلول توفر للحياة مطالبها؟!.. وكيف تبقى الأديان حيّة متوهجة فاعلة مؤثرة ضابطة للناس إذا انفصل عنها واقع الحياة أو انفصلت هى عنه ؟!

حل هذه المعضلة لا يتأتى إلاّ للأديان الحيّة القادرة بروحها وبنيتها على الامتداد فى الزمان دون أن تفقد هويتها. الإسلام حل هذه المعضلة بتفرقة واعية ، حكيمة ورشيدة ، بين الأصول والثوابت التى لاتتغير بتغير المكان أو تعاقب الأزمنة ، وبين المتغيرات المحتوم أن يلحقها التطور والتغير تبعاً لنواميس الكون وسنن الحياة التى أرادها الخالق جل شأنه .. لقد تضمن القرآن المجيد الأصول والثوابت والمبادئ والأحكام الكلية ، ولم يعرض لتفاصيل وجزئيات المتغيرات مكتفياً ـ مثلما استن فى الشورى ـ بإيراد المبادئ الكلية التى تحكمها. بذلك يوسع الدين على الناس، ويحافظ لنفسه على خاصية الحياة واستمرار القدرة على إجابة أشواق الناس

وتنظيم حياتهم وما يطرأ عليهم فى عالم متغير لا يكف لحظة عن التطور والترقى .. لا يطمئن الناس ، وتفقد الأديان تأثيرها فيهم ، إذا وقع انفصال بين الدين وبين الحياة .. فليس للدين معنى بغير حياة يتفاعل معها ويؤثر فيها ، ولا لحياة الأحياء معنى إذا فقدوا سقوف الأديان ووجدوا أنفسهم عراة بلا سقوف تحفظ لهم توازنهم وصلتهم بالمعنى الكلى ـ واجد وواجب الوجود لذاته ـ سبحانه.

تكون الجناية على الدين أكبر ، حين يحمل فى روحه وبنيته قدرته على الحياة إلى آخر الزمان ، بينما يفرط أهله ويغفلون عن هذه الروح ويحبسون الدين فى صيغ جامدة ، ويكفون عن النظر والتأمل والاجتهاد ، ويقصرون فى التحليق فى المبادئ والكليات ، وفى استخدام الأدوات التى أتاحها الدين نفسه لاستنباط الأحكام ، ووضع الحلول من القواعد الكلية ، والتواصل مع الحياة تواصلاً حيّا ينحى عن الدين ماليس منه ، ويستخرج من كنوزه ما يوافى الحياة والأحياء

بالقواعد والحلول التى تصلهم بواقع عصرهم مع رباط بدينهم الحىّ لا يهن ولا ينقطع .

التفت الإسلام إلى هذا كله وإلى ارتباط حياة الدين بقدرته على ملاحقة الحياة ، فجاء فى حديث رسول القرآن : "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" .. إعمال العقل والتفكير والاجتهاد ، ليس مقصوراً على زمان دون زمان ، ولا هو كان مطلوباً أو لازماً فى عصر ثم انقضت الحاجة إليه بعده ، فلم يعد بالناس حاجة إلى التفكير والفهم !! .. إن الديانات فى حركتها مع البشرية ، تتعرض لزحف المصالح التى تريد الالتحاف بها، والانتظام فيها ، لاستمداد الشرعية منها .. وتتعرض أيضا لإضافات بشرية قد يكون بعضها شرحاً للدين وبياناً صائباً ومطلوباً لأحكامه ، وقد يكون بعضها محض شوائب من الموروثات والمصدقات التى لاتنتمى حقيقة للدين .. التوقف أمام هذه الزواحف وتلك الملصقات أمر لازم لحماية نقاء وصفاء الدين .. ولازم له أيضاً استخراج ما فى بنيته الحية

وروحه ما يعالج المستحدثات والمستجدات بما يسد حاجة الأحياء ويقدم الحلول اللازمة فى دنيا الناس . العقل هو أداة الدعوات لتحقيق هذا المقصود .. العقل لا يعرف الجمود ولا يتوقف عن التفكير والنظر والتأمل ، فهو القادر على الفهم والتحليل والتفرقة والفصل بين ماهو أصيل وما هو دخيل .. وعلى استنباط الحلول من المبادئ والأحكام الكلية .. قدرة الأديان على الاحتكام للعقل وإعماله ، هى مقياس قدرتها على الحياة .

الأديان، واللغة

اللغة منطوقة وغير منطوقة - هى لسان وعى الآدمى ، ومفتاح ذاكرته ومخيلته وتفكيره ، وهى تيار عواطفه وسلم ميوله وراية مصالحه وشاهد تطوره .. لايفارقها الآدمى فى حُلْم أوعلم ، ولا تخلو منها حياته قط - فى أداء وظائفها الواعية ، وحيداً كان أو مجتمعاً أو متصلاً أو منبتا أو مبتعداً - بشىء أو عن شىء من الأحياء أو الجمادات .. يكاد نطاق اللغة أن يسع حياة الإنسان كلها .. المعروف منها والمجهول ، ويسع واقعها وخيالها وحقها وباطلها وواضحها وغامضها وممكنها ومستحيلها ، كما يكاد يسع ما يطوف بوعيه مما يظن أنه فى داخله أو خارجه من الطبيعة والوجود - سواء أكان هذا الظن راجحا أو ممكنا أو بعيداً أو وهماً صرفاً وخيالاً يصدقه أو لا يصدقه !

نطاق اللغة يكسو ويغطى تغطية شاملة الوجود عند الآدمى ، سواء وجوده هو أو وجود الكون كله بما فيه

ومن فيه . وهذا أمر بالغ الأهمية عميق الآثار فى حياة الإنسان بكل جوانبها وأدوارها وأطوارها !

لا يفارق وعى الآدمى اللغة قط .. سليما كان أو مخبولاً ، مصيباً أو مخطئاً ، عارفاً أو جاهلاً .. لا يفارق وعيه نطاقها إلاّ إلى نطاقها .. منها يبدأ وإليها ينتهى .. يعود ويردد ويكرر ويؤخر ويقدم ويحذف ويضيف ويمزج ويقلب ويفصل ويوصل إلى أن ينقطع بالموت أو ما فى حكمه ، وهو مقيم على اللغة كل مبانيه من القيم والطاعات والمقامات ، ومن النقائص والمعاصى والخطايا ، كما يقيم عليها إطاره وحدوده المكانية والزمانية فى الأرض أو فى السماء ـ وخلال الأعمار والأجيال والعصور والدهور .. كذلك يقيم عليها ـ على اللغة ـ أحكامه قطعية وغير قطعية على كل شىء ، مادى أو معنوى ، جال بخاطره على أى وجه كان ويكون وسيكون ـ من الأزل إلى الأبد !

ومع ذلك ، فاللغة خطوة تسبق مباشرة وعينا ، تمهد له وتسوقه .. وهى خطوة تتلوه مباشرة .. تحاول كشف الطريق

أمامه .. فتأثيرها المباشر وغير المباشر في وعينا هائل جداً، وهي تشارك ضرورة في بناء كل وعي جديد ، كما تشارك في ريادة وقيادة كل وعي قديم ، ومن هنا جاء اعتماد الديانات غابرها وقديمها وحاليها - على اللغة أولا - في بناء ونشر تعاليم الديانة وتنشئة كهنتها وتلقين عباداتها ومعتقداتها لأتباعها . لكل ديانة كتابها أو كتبها إن كان أهلها يعرفون الكتابة على أية صورة أو نسبة ، وإلاّ فلها التراتيل والأدعية والرقى والتعاويذ والأساطير والقصص .. تنتقل مشافهة - باللغة - من جيل إلى جيل ، وتزداد مع طول الانتقال قداسة وسطوة . وفي الحالين : حال الكتابة ، وحال المشافهة - يعني الكهنة في أديان الكهانة ، أكثر من سواهم ، بصيانة تراث الديانة وتقاليدها - مكتوباً أو شفويا - وتفسيره وتأويله ، ويجتهدون في احتكار هذه الصيانة لأنفسهم بقدر ما تسمح به ظروفهم . ولذا يلازم هذه " المصونات " غيرة شديدة واحتكار من الكهان وحرص على احترافهم وعلى إغلاق الدائرة عليهم وعلى عدم تغيير

هذه " المصونات " أو التعرض لها بأى تصرف جديد لم يكن معهوداً من قبل ! ..

تعلو لدى الكهانة والكهان صيانة مقولات وصيغ وتراث الملة - على كل تطور ، ويتبنون أن " وقار الدين " يقتضى التزام قديمه الموروث خاصة فى مواجهة أى تقدم فكرى أو علمى أو فنى يحاول أن يمتد إلى الدين من قرب أو من بعد! .. يعطون ظهورهم ويتجاهلون أن حياة الآدميين تجدد شبابها فى معظم أوضاعها الفكرية والروحية والمادية ، ويتصلبون ومن يلتف حولهم ، ويكافحون بضراوة عن تلك المصونات ، ويردون بأغلظ التهم - كل من يفكر فى الاستجابة لسنن التطور ، أيا كانت حجته من صحة المعرفة أو سلامة الفكرة !

واللغة التى أقامت تلك " المصونات " الدينية - هى هى التى أقامت غيرها من نتاج الفكر والعلم والأدب والفن ، ولكن بفارق هام جداً - هو أن هذا النتاج الفكرى العلمى الأدبى الفنى لا يتترس ولا يحتاج ، منذ مولده ، إلى صيانة

خاصة ، ولا يعيش حياته فى حماية أوصياء وقوام ، ولا يفرز فى الجماعة " طائفة خاصة " كلفة دائماً وأبداً بحماية تلك " الصيانة " والدفاع عنها وصد كل من يفكر فى دخول دائرتها أو يأمل مشاركتها مع غيرها فى متجددات الحياة المتطورة . هذه " الطوائف الخاصة " التى تقبع متربصة لكل جديد ، وتحمل وقارها وشيخوختها ، وتتحصن بكهانتها ـ هى التى وراء ما شهدته الإنسانية من قرنين أو ثلاثة وللآن ـ من اتساع الهوة بين الدين بعامة وبين العلم والفكر ، ومن التناقض الحاد الحاصل داخل الإنسان بين قلبه أى عواطفه الأكثر قوة وقدماً وغموضاً ، وبين عقله أى فكره ومعرفته وفهمه وأذواقه !

فهل يمكن أن تتخلى " الكهانة " عن تفرغها واحترافها وانحصار الوصاية والقوامة فيها ؟! .. وهل يمكن أن ينشغل رجالها ـ شأنهم شأن عباد الله الآخرين ـ بشئون الحياة الجارية أو العادية أو العلمية أوالأدبية أو الفنية ؟! .. وهل يمكن أن تندمج الديانات اندماجاً مفيداً ومستفيداً فى

المساعى الحية الجارية للجماعة البشرية فتعطيها - دون أن تفقد هويتها وسقوفها - وتتفاعل معها بإخلاص فى تفاهم وسماحة ومعقولية بلا تعصب وبلا تهويل أو تهليل أو ترهيب أو اتهام ؟!..

وبعد .. فإن الديانة تستعمل اللغة باطّراد منذ بدايتها .. لأن اللغة أيسر وأجدى وسائل الاتصال وأعمها وأقدمها .. ولكن الديانة تختلف تماما عن اللغة ، إذ الديانة روح وبناء وأداة تغيير داخلى ، وليست أداة تعبير كاللغة . الديانة أداة تغيير لداخلية الآدمى كفرد وكمجموع ، تشد التفاته من خارجه إلى داخله بعزم وإصرار وإخلاص ، وتعلمه مراقبة نفسه ومحاسبتها ، وتوقظ إحساسه بالمسئولية والخطيئة والاحتياج إلى التوبة . تجد هذا فى الأديان الكتابية وغير الكتابية . والديانة تظل نامية حية - كائنة ما كانت عقائدها ومصدقاتها - مادامت فعالة فى إحداث هذا التغيير الداخلى وقيادة وعى وضمير الآدمى مع كل جيل وفى كل مكان - إلى الخير والحق.

على أن استخدام " الصيغ اللغوية "، وترديدها بلا فهم ، والانكفاء على الأشكال والمقولات والقوالب ، والاكتفاء والاستحسان لما يبدو من الصور الخارجية الاجتماعية الظاهرة المظهرية للعبادات والابتهالات والمزارات والشفاعات ـ يعرض الديانات لأن تسلم نفسها لنفوذ اللغة وسيطرتها، فتصبح الصيغ والقوالب والمقولات أقوالاً رنانة تقال أو تكتب، وعبارات فخمة تحفظ وتردد ترديداً ببغاوياً للإقناع بإخلاص لا وجود له . فيخفق الخطاب فى تحقيق مراده من توسعة وتعميق الإيمان ، وتغدو الكلمات محض فراغ لا ينفع ولا يشفع ولا يجنى به العاقل شيئاً مفيداً يصل الأديان بغايتها فى إقامة سقوفها وضبط حياة وسلوك الناس !

لقد مضت قرون ودهور ، انتفع فيها الحاكم الفرد فى حضارات الأديان المختلفة ـ انتفع فى تأمين وتكريس وبسط واستمرار سلطانه ـ بما للغة من سيطرة على الديانات وأهلها ، بينما اعتادت نفوس عباد الله وأرواحها ، وعقولها وضمائرها ـ أن تقف دائما موقف الأطفال وأشباه

الأطفال ، مبهورة مستسلمة أمام " مخلفات " أناس عاديين أضفى عليهم مضى الزمن ، والتزام التقليد فى ظل الحكم المطلق - أضفى عليهم هالة كاذبة صاروا بها فى أعين الناس أعلاماً وأئمة وشيوخاً وعلماء وعارفين وهادين مهتدين ، لا تجوز من ثم مخالفتهم ، ولا يجرؤ أحد ، ولا العلماء المتفقهون (؟!!) - على الاقتراب والنظر فيما قالوه أو اصطنعوه أو ارتأوه أو أبدوه !! .. بذلك تجمدت الديانات وتيبست وهرمت وافتقدت مقدرتها على استخراج واستنباط ما فى أحكامها الكلية من قواعد وحلول تجدد قدرتها على ملاحقة تطور حياة الناس، وتوالى هذه الجمود وتراكم زمنا بعد زمن ، وحالاً بعد حال، وصار هم كل ديانة - وكهانها ، مصروفاً أغلبه فى التنويه بأمجادها والدفاع عن تقوقعها وجمودها وعزلتها التى تزداد وضوحاً ووحشة بانفصال الجزء الفعال النشط من حياة الناس وابتعاده المطرد عنها ، كما قل مأمولها ومأمول العاطفين عليها فى جدوى ذلك الدفاع الذى بدأ بدايته من قرنين أو ثلاثة

ويوشك إذا لم يتداركه الرب بلطفه أن ينتهى بالتسليم والاستسلام !

وقد يأخذ المتأمل العجب أحيانا - من بقاء التعصب وما يصاحبه من بغضاء ، ومن هدير " اللغة " وضجيجها - لدي أولئك الذين كفوا عمرهم عن الالتفات إلى الديانة التى انتسبوا إليها بالميلاد ، سواء فيما بينهم وبين أنفسهم أو فيما بين بعضهم وبين البعض .. والحال أن كراهية المخالفين الملحوظة لدى أتباع الديانة تبقى متحوصلة فى داخلهم ، لا يرد عليها تقليص أو تلطيف بزيادة الفهم أو الضمير أو الروح مما يعرض له الإنسان حتماً فى السير المعتاد للحياة ، فتتحول الكراهية بهذا التحوصل الجامد إلى تعصب هائل خارج المألوف كتعصب الشعوب فيما نراه من حروب !!

كلنا يعرف بالخبرة المتوارثة من قديم - ثراء لغات الديانات فى مخاطبة عواطف الآدميين وقدراتها العجيبة على لمس مراكز الشعور فى نفوس البشر ، سواء فى مناسبات

الأحزان والآلام والمحن والأزمات والمخاطر والمخاوف ، أو في البشارات والميلاد والإنتاج والزرع والضرع والثمار والفلاح والفوز والنصر ، أو في إثارة الغضب والسخط والحمية والعداء واللعن والدعاء بالويل والثبور وعظائم الأمور ، أو في إساله الرقة والعطف والوداد ، أو في غرس العداوات وإذكاء الخصومات وقطع الصلات وإفساد القلوب ، أو في إنشاء الولاءات والأخوات وخلق أسباب التعارف والتجمع والخدمة والبر والنجدة .

يستجيب البسطاء بأكثر من غيرهم - إلى لغات الديانات، لأنهم يقنعون بالشعور ويكتفون به ويعتادون عليه ، وقلما يتجاوزونه إلى ما هو أعم وأهم وأعمق من مشاكل دراما الآدمي !

وربما مدت بعض الديانات يدها إلى خطاب أتباعها بالفنون من موسيقى وغناء ، إلى معمار ونحت وتصوير وزخرفة وتمثيل ، فكانت سببا - نراه الآن رأى العين - في نهضة تلك الفنون وانتشار التعلق بها إلى خارج الديانة

وأهلها ، وبلوغها ما بلغته الآن من المكانة العالية لدى الجمهور العريض فى العالم أجمع.

ذلك أن طائلة اللغة الدينية ـ بسيطرة القائمين على العقيدة ـ كانت قد بسطت على الدين والدنيا معاً ، مما أدى إلى اختصاص الدين بشئون الحكم ، حرباً وسلماً وإدارة وأمناً واقتصاداً وسياسة ، ثم عادت تلك الشئون إلى قبضة الحاكم المدنى يتصرف فيها على أنها أمور مدنية صرف لا مدخل فيها لرؤساء الديانة ـ ثم زاد طابعها المدنى تأكيداً بتوالى الدول والأجيال واعتياد الناس هذا الوضع الذى بات من أسس الحرية الفردية.

ويبدو من الطبيعى أن يسود الروح الدينى فى الحضارات التى منبعها الأساسى الدين ، كالحضارة العربية الإسلامية ، وقد لازم ذلك الطابع ـ الحضارة اليهودية إلى النفى البابلى وبعد النفى البابلى إلى أن هدم تيتوس بيت المقدس فى النصف الأخير من القرن الأول الميلادى . ولم تنجح المسيحية بمذاهبها فى إزالة آثار الطابع الوثنى

الغامر فى الحضارة اليونانية الرومانية ، إذ بقيت آثاره ظاهرة إلى الآن فى الحضارة الأوربية ، يرجع ذلك - فيما يبدو ، إلى أن المسيحية - رغم عدائها الشديد للوثنية - قد قامت حضارتها على حضارة الإغريق والرومان .

ويبدو أن طابع اللغة الدينى - لا يتأثر كثيراً بنوع السلطة الحاكمة ، ولا بجنس الحاكم ، بدليل عدم تأثر هذا الطابع فى الحضارة الإسلامية عبر ولايات أعاجم وأشباه أعاجم من ديلم وتركمان وأكراد وشركس وسلاجقة وأتراك وبربر وألبان وإفرنج ، وبدليل أن الطابع الدينى للغة لم يتأثر كثيرا بنوع السلطة العليا التى تعين وتعزل الولايات الدينية وتبتِ وتفصل فى المشاكل والخلافات المتعلقة بأهلِ الأديان بخاصة . هذه السلطة العلمانية فى الأغلب - تمثلت فى إمبراطور أو قيصر أو ملك أو أمير أو وزير أو برلمان أو حكومة تعتمد على قوة وسيطرة النظام الذى تستند إليه فعلاً وواقعاً ، ومع ذلك ظل الطابع الدينى للغة بغير تأثر كبير ، وظلت القضايا التى تدعو إلى فهم هذه العلاقة

بين اللغة والأديان ومقتضياتها وأثرها - قضايا حالة باللغة الحضور ، أثارت ولا تزال تثير عوالم فسيحة متنوعة من الفكر تدعو إلى التدبر والتعمق والفهم والحوار !

الأديان، واللغة .. والتفكير

يبدو أن الصيرورة الدائمة للكون ، والتطور الدائب المستمر للحياة والأحياء ، قانون عام يسرى على اللغة بعامة .. فاللغة هى مفتاح ذاكرة ومخيلة وفكر وتعامل وتخاطب وتفاهم وتواصل الآدمى ، ولذلك فإنها بالضرورة موازية لتطوره ، وشاهدة فى الوقت نفسه عليه ، وتغطى لديه الوجود فى داخله وفى الكون الصائر دائماً ، لا تتوقف هى الأخرى عن النمو والتطور مثلما لا يتوقف الآدمى والكون كله عن التطور والارتقاء . اللغة هى الأخرى كائن حىّ نام ، خاضع لناموس التطور والارتقاء ، لا تتوقف ألفاظها وتراكيبها عن التجدد أو الاندثار ، وتختلف بعض معانيها أو مصطلحاتها الجارية على ألسنة أو فى أفهام الناس بتتابع الزمان .. هذا التطور الحتمى للغة ، يصب حتماً ولزوماً فى حياة وفهم وتفكير ووعى الآدمى ، وفى حصاد ما يحصله فى تخاطبه وقراءته وبحثه ومراجعته ، ويتصل من واقع هذا

اتصالاً بالغ الخطر والأهمية والتأثير فى علاقة وفهم وإلمام الناس بالأديان.

اللغة - هذا الكائن الحى المتطور - هى وسيلة الأديان لنشر دعوتها واستمرار خطابها لأتباعها وتلقين أحكامها وتعاليمها ، وهى مفتاح إطلال أبناء الديانات على كتبهم المقدسة التى نزلت فى زمن غابر مضت عليه ألوف السنين . لم يكن الزمن المنصرم محض سنوات تتوالى تضاف إلى التقاويم ، وإنما هو حركة دائبة وحياة وتطور ونمو وارتقاء .. ورد هذا ويرد على الكون ، وعلى الآدمى ، وعلى اللغة أداة وعى وفكر وفهم وتعامل الآدمى .. التطور الذى جرى على الآدميين ، صاحبه لزوماً تطور حياة اللغة التى بها يتخاطبون ويتلقون ويعبرون ويتفاهمون ، وهذا التطور فى اللغة يستدعى بالضرورة وجوب الالتفات فى قراءة وفهم الكتب المقدسة ومدونات الأديان - إلى معانى الألفاظ والصيغ والعبارات والتراكيب التى كانت سائدة فى زمن نزول الكتاب المقدس أو كتابة سير الأنبياء وما صاحب

زمانهم من أحداث كتبت بلغة وأساليب وصيغ من كتبوها فى ذلك الزمان .

لم يقصد الأقدمون ـ مثلاً ، بلفظ "غزوة " الذى إستخدموه فى رواية سيرة نبى الإسلام ، سوى أن النبى عليه السلام كان موجوداً بشخصه بين المسلمين فى "المسيرة " أو "البعثة " أو "المرابطة" أو "المدافعة" أو "السرية" ـ فأطلقوا لفظ "غزوة" على كل ما كان النبى عليه السلام موجوداً فيه ، دون أن يقصدوا غزواً بالضرورة ، وإنما قصدوا تمييزها عن تلك التى لم يكن الرسول حاضراً فيها بنفسه .. ومن ثم فإن عدم الالتفات فى الكتابة أو القراءة ـ اليوم ـ إلى المعنى "الاصطلاحى" الذى قصده الأقدمون فى رواية السيرة المحمدية ، يسرب إلى وعى المتلقى المعنى المعجمى والمفهوم العصرى السائد الآن لكلمة "غزوة" ، فيحسب أن رسول القرآن غزا الأراضى والناس فى كل ما صاحبه وصف "غزوة" ، بينما لم يكن معظمها سوى "مسيرات" و "بعوث" لموادعة القبائل ،

وتأمين دار الهجرة ، واستطلاع ما عساه يدبر لمداهمة المدينة والإغارة عليها ، أو "مرابطة" أو "مدافعة" لرد هجوم الكفار على دار الهجرة ، فلم تكن غزوة "أُحد" غزواً وإنما "مدافعة" بظاهر المدينة لرد قريش التى جاءت بأحلافها من الكفار للهجوم على المسلمين بالمدينة ! .. ولم تكن غزوة "الخندق" غزواً ـ فلم يخرج الرسول والمسلمون لغزو أرض ولا ناس ، وإنما رابطوا وحفروا خندقاً حول المدينة لصد الأحزاب الذين حاصروها لغزوها! . ولم تكن غزوة " تبوك " غزواً ـ وإنما مسيرة لصد هجوم مرتقب أتت الأخبار بأن الروم يحشدون له على التخوم لمهاجمة المسلمين!

يوقع فى الالتباس ،عدم الإلمام بمعاني الأساليب والصيغ فى زمان السيرة أو التنزيل ، وإسباغ المصطلحات أو المعانى العصرية للغة على ما جرت به الكتب المقدسة أو مدونات السيرة فى زمانها . مهم جداً لفهم الكتب المقدسة ، ومثلها وقائع السيرة ـ معرفة " دلالة " الألفاظ

والصيغ والتعابير والأساليب والشواهد فى عصر التنزيل أو كتابة السيرة ـ لا فى عصرنا الآن!

على أن هذه الغاية تزداد صعوبة ومشقة ، حين تمر الكتب المقدسة أو السير عبر ترجمات إلى لغات غير لغة النزول أو لغة كتاب السير والتواريخ . وهذه حقيقة لا يستطيع العقلاء أن يتجاهلوها فى غايتهم لفهم الأديان وتعاليمها وأحكامها بلا التباس . الكتب المقدسة الموجودة الآن بالإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية أو الروسية وغيرها ـ لم تنزل بهذه اللغات ، وقد لا تكون قد ترجمت مباشرة إليها إلاّ عبر ترجمات متراكبة اعتمد فيها المترجم أو المترجمون على لغة أو لغات وسيطة ترجمت سالفاً عن لغة النزول .

لقد امتد وضع العهد القديم قرابة ألف عام ، واستغرق جمعه قروناً عديدة من سنة ١١٠٠ـ٢٠٠ ق . م ، ومضت بذلك نحو ألف سنة بين أقدم مخطوطة عبرية وبين تاريخ كتابة آخر سفر من أسفار العهد القديم ، وحوالى ألف

سنة أخرى فى الجمع والتدوين بالعبرية ، وبقيت بالعبرية إلى أن أمر بطليموس الثانى بترجمتها من العبرية إلى اليونانية ، وتعاقبت على ذلك ترجمات منها ما استطاع أن ينقل مباشرة عن العبرية ، ومنها ما اعتمد على الترجمة اليونانية ، ومنها ما اعتمد على ترجمة للغة وسيطة أخذت عن العبرية أو اليونانية.

وأناجيل العهد الجديد ، والكلمة يونانية الأصل ، لم يكتبها السيد المسيح عليه السلام ، ولا كتبها أتباعه لحفظها للاحقين ، لأنهم آمنوا بعودته فى الحال .. وإنما كتبت الأناجيل الأربعة :متى ، ومرقس ، ولوقا ، ويوحنا ـ تباعاً فى عهد لاحق .. لم تكتب الأناجيل باللغة الآرامية التى كان يتكلم بها السيد المسيح ، وإنما كتب إنجيل متى باللسان العبرى ، ويرى الباحث المدقق القس صموئيل مشرقى رئيس المجمع العام لكنائس الله الخمسينية ، فى كتابه "مصادر الكتاب المقدس" الذى أصدرته الكنيسة المركزية ، أن هذه اللغة العبرية لم تكن هى

العبرية السامية التى كتب بها العهد القديم ، حيث دخلها كثير من الكلمات الآرامية والإغريقية واللاتينية ، وتأثر أسلوبها كثيراً بالارامية التى تكلم بها السيد المسيح ، مثل عبارة "إيلى لمَ شبقتنى" وتعنى : "إلهى لمَ تركتنى ؟ "..

أما إنجيل مرقس ، وكتب فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى ، فقد كتب باليونانية ، وكذلك إنجيل لوقا الذى دون فى أواخر القرن الأول ، وانفرد بالكلام عن ولادة المسيح ، وكتب خاصة للأثينيين باليونانية . أما إنجيل يوحنا، رابع الأناجيل ، فقد كتب لاحقاً وترجم إلى العربية من قديم عن السوريانية والقبطية واليونانية . فالكتاب المقدس، بعهديه القديم والجديد ، الذى يعم المعمورة الآن بلغات شتى، لم يدون فى الأصل بها وإنما ترجم إليها عبر مئات السنين، بذل فيها العلماء جهوداً مضنية لمقابلة التراجم القديمة عند أمم شتى من العرب والسريان والقبط والأرمن والأحباش وغيرهم ، وما وجد بينها من اختلافات فى تراكيب أو ألفاظ اجتهدوا لتوحيدها .[1]

على أن اختلاف دلالات ومعانى الألفاظ ومشتقاتها بين لغة ولغة ، شكل ويشكل حاجزاً صعب المرتقى . فالترجمة بذاتها علم خلاقى وفن نسبى ، واللغات مهما خصبت ألفاظها ومترادفاتها، لا تتطابق مفرداتها تطابقاً تاماً فيما بين مترادفات قد تحيط بالمعنى العام لكلمة ولكن تختلف دلالاتها الفرعية ـ فضلاً عن إيحاءاتها الهامشية ـ ما بين لغة وأخرى ، ومشكلة الترادف بين اللغات مشكلة قديمة ، يلاقى فيها المترجم نَصَباً ، مثلما يلاقى نَصَباً وصعابا فى مشاكل التركيب . يزيد الأمر حساسية وخطورة ، أن اللغة تدخل فى عملية التفكير ، فاللغة ليست محض لسان ، وإنما هى مفتاح ذاكرة ومخيلة وتفكير الآدمى . فكر الآدمى لا ينفصل عن لغته ، ومن المحال أن ينفصل الفكر عن اللغة أو اللغة عن الفكر .. لذلك وغيره لا يلزم المترجم فقط العلم الواسع المحيط باللغة التى يترجم منها إلى اللغة التى يترجم إليها ، بل يحتاج إلى إلمام واسع عميق بروح اللغة التى يترجم منها وصيغها وتراكيبها وأعرافها وآدابها وحضارتها وثقافتها ،

ومع ذلك كله قد تعييه الحيل للوصول إلى غايته أن يخرج النص وكأنه كتب أصلاً باللغة المترجم إليها!

أى تراكيب او صيغ أو ألفاظ فى الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرها من لغات الأرض ، قادرة على أن تنقل بيتا من الشعر حاملاً ما حمله فى لغته الأصلية من جرس ووزن وموسيقى وإيقاع وروح ودلالات ؟! .. يسرى ذلك على الآداب بعامة لأنها ليست محض ألفاظ مرصوصة ، وإنما هى بتراكيبها تحمل موحياتها وجرسها الداخلى وموسيقاها الخاصة ، ونقل المعنى - إن أفلح - قد لا يستطيع أن يحمل خصائص الأدب فى عبارة اللغة المترجم إليها وبما يوازى اللغة المترجم منها . أى صياغة بالإنجليزية أو الفرنسية أو غيرها يمكن أن تحمل ذات الشحنة التى يحملها أحد أبيات شعر المتنبى أو شوقى أو حافظ ؟! . أو تترجم بردة البوصيرى أو نهج البردة لشوقى ؟! .. هل الترجمات المختلفة إلى العربية لرباعيات الخيام تحمل ذات ما حملته

فى الفارسية ، بل وهل تتساوى ترجماتها العربية ـ لصدقى ورامى مثلاً ـ فيما بينها ؟! ..

قد رأينا مخاطر عدم الالتفات إلى المفهوم الاصطلاحى الذى كان معنيا بكلمة "غزوة" فى كتابة السيرة المحمدية ، بيد أن هذه المخاطر تتضاعف وتوغل فى الابتعاد عن المقصود حين تترجم الكلمة إلى لغة أخرى ! .. للكلمة فى الإنجليزية مرادفات عديدة هى فى النهاية لمطلق كفاءة وذوق واختيار المترجم. من هذه المرادفات:"invade" ومعناها :اعتدى على، وغزا، وهجم ، أو أغار على .. وكلمة "Raid" وتعنى: غارة أو مداهمة أو سطو..، وكلمة: "attack"، وتعنى : هاجم ، أو هجم على ، أو داهم ، أو أغار على ، أو انقض على .. وكلمة " : assault "، ومعناها اعتدى واغتصب وهاجم ، وغارة وحملة وإعتداء وتهجم وهتك وهجوم عنيف . وكلمة : " maraud " ـ وتعنى الإغارة للسلب والنهب !!

أى لغة من لغات الأرض تستطيع أن تعبر عن آية القرآن المجيد : "الرحمن على العرش استوى" ؟! ـ أو آية: "وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ." ؟! ـ أو آية : "وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين" .؟!

إن معجزة البلاغة القرآنية ، أعيت محاكاتها أبلغ بلغاء العربية ، فكيف يستطيع أبناء اللغات الأخرى أن يحاكوها فى لغاتهم ناهيك بأن يحملوها بما تحمله من بلاغة وإعجاز إلهى فى العربية . القرآن المجيد قرآن عربى ، من المحال أن يوازيه صياغة مهما ارتقت فى أى لغة أخرى . إعجاز القرآن بالعربية ، جعل القرآن عربيا ، لأنه لفظ ومعنى : " إنا أنزلناه قرآناً عربياً " كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعقلون " ـ بيد أن الإسلام قد آمن به العربى وغير العربى، ولا غناء لمن آمن عن الإلمام بكتاب الإسلام

المقدس ، لذلك كانت " ترجمة معانيه " ـ هى البديل المتاح إزاء استحالة أن يكون " القرآن " بلسان غير عربى .

قصور الترجمة ، وأخطاؤها الواردة والمحتملة ، خطر يحيط بمعانى ومقاصد الكتب المقدسة ومدونات الأديان ، وباب يغرى أصحاب الأغراض باستغلال الترجمة فى تشويه الدين الذى يترصدون له ، متشحين بقناع برىء ظاهره ترجمته وتقديمه إلى الناس ، وباطنه التحريف ودس السموم .. لم يحم القرآن المجيد من هذا التجنى أنه " قرآن عربى " لا يمكن أن يكون قرآناً إلاّ بلسانه ولفظه العربى ، ومع ذلك صدرت ترجمات للتيسير على المؤمنين به أو الدارسين له من غير الناطقين بالضاد .. منها ترجمة جاك بيرك المستشرق الفرنسى التى ظلت تحظى بحفاوة كتاب ومجلات عربية وإسلامية حتى كشف سترها البحث الضافى للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى المنشور بكتاب الهلال بعنوان : " إعادة قراءة القرآن". ـ كشف فيه كثيراً من الأغلاط

والتجنيات التى فاتت المحتفين الذين رحبوا واحتفوا دون أن يقرأوا أو تصفحوا دون أن يتمعنوا !!

ما من أهل دين من الأديان ، إلاّ وتحركهم أشواقهم للإلمام بكتابهم المقدس ، وهذا الإلمام لا يتأتى إلاّ إذا أحاط القارئ للكتب المقدسة بمدلولات ومعانى الألفاظ والعبارات للغة التنزيل فى زمانه ، وتصير هذه الغاية مركبة عسيرة المرتقى ، حين تختلف لغة المتدين عن اللغة التى نزل بها الكتاب المقدس ، فذلك يضيف إلى ما يجب الإلمام به من معان ودلالات ألفاظ وصيغ وأساليب وتراكيب لغة النزول - إلماما موازيا بأسرار ومعانى لغة الترجمة التى عبرها الكتاب المقدس - أو معانيه - فى رحلة وصوله إلى لغة المتلقى فى مكان ما فى زمان ما!

الإيمان بالأديان إيمان قوامه الفهم والهداية ، ومن المحال أن يكون محض قراءة آلية ، أو ترديدات ببغاوية لصيغ وقوالب وأشكال لا تتجاوز الحناجر إلى العقول والألباب والضمائر .. الوقوف عند الترددات بلا عقل ولا فهم

يعنى الانفصال عن روح الدين ومقاصده .. فارق بين من يقرأون الكتب المقدسة بتعقل وعناية ونظر وتأمل ـ ليفهموا ويهتدوا ، وبين من تستغرقهم القراءة الآلية فينصرفون عن التفطن والتأمل وفهم مراميها وإيفائها حقها من الإعجاب والإجلال .

جمود أهل الأديان أمام معطيات وتطورات الحياة التى لا تنى عن الجريان والتجدد ، خسارة للأديان وللحياة .. إن الأديان لا تواجه فقط جريان الحياة وتطوراتها ومستجداتها ، ولا فقط زحف المصالح وملصقاتها أو مصدقات الموروثات التى تروم الالتحاق بالدين وهى ليست منه ، وإنما تواجه أيضا حياة وتطورات اللغة التى هى أداتها الأولى فى التعبير والخطاب ، مواجهة تتعاظم للأديان الكبرى التى عمت المعمورة وتعددت بالتبعية اللغات التى يجرى بها خطابها إلى الناس ، مما يثير ضرورة التيقظ وسط هذا المحيط الواسع المتنوع للغات والمترادفات والتراكيب ـ لضمان الاهتداء إلى ما كان معنيا مقصودا فى لغة التنزيل

الأصلية فى زمان هذا التنزيل ، أو فى لغة الخطاب والكتابة فى سير الأديان والأنبياء فى زمن تدوينها ، لأن تداخل المعانى والدلالات العصرية ، أو تلك التى لمفردات وتراكيب اللغات المترجم إليها، يمكن أن يأخذ المتلقين بغير وعى أو فهم بعيدا بعيدا عن مقصود الدين أو واقع السيرة .

الالتفات إلى هذا كله مادته العلم وأداته العقل وقوامه التفكير . التفكير فريضة فى الإسلام ، أداته العقل الذى نوه به القرآن المجيد بكل وظيفة من وظائفه وملكة من ملكاته . لا غناء للأديان عن العقل والتفكير فى مواجهتها لما يحيط بها من تحديات تأتيها من زحف المصالح ، وشوائب الموروثات ، ومستحدثات العلم ، وتطورات الحياة ، ونمو اللغة واختلاف الألسنة واللهجات ، ومحاذير الترجمات وسوء الفهم والالتباس .. فى عالم متزام لا يكف لحظة عن التطور والنماء .. نعود فنقول إن قدرة الأديان على الاحتكام للعقل والتفكير ، هى مقياس قدرتها على الحياة !

الأديان، ومنافذ التفكير والاجتهاد

واجهت الأديان الكتابية ، ولا تزال تواجه ، منذ نزلت ، بداية من اليهودية التي بعث بها موسى الكليم من نحو أربعة آلاف سنة ، وتثنية بالمسيحية التي حملها السيد المسيح بعد ميلاده منذ ألفي عام، وختاماً بالإسلام الذي حمل رسالته من أربعة عشر قرناً رسول القرآن وخاتم الأنبياء.. واجهت الأديان ولا تزال تواجه ، زحف المصالح عليها ، ورغبة أصحابها في دمجها فيها للتترس بها ، وشوائب الموروثات التي يلحقها البعض بها وهي ليست منها ، ونمو وتطور اللغة واختلاف الألسنة واللهجات ومعاني الإصطلاحات ، ومحاذير الترجمات وسوء الفهم والالتباس ، مع تطورات الحياة وما تقذف به كل يوم من مستجدات ومن مستحدثات العلم ، وتنوع القضايا والمشاكل والمعضلات التي لا تتوقف عن التنوع والتغاير والازدياد ، في إيقاع بالغ السرعة والاندفاع وسط عوالم لا تكف عن المستحدثات مثلما

لا تكف عن صناعة الشر تحت مسميات جديدة متجددة ، وعن معاداة سنن العدل والإنصاف بحيل وذرائع وأحابيل لا تكف بدورها عن التزين واصطناع الألبسة .. وتواجه الأديان مع هذا كله ، أنها بالطبيعة ثابتة ، بينما تتحداها هذه المتغيرات الهائلة التى تبتعد بها عن الحياة إن لم تحمل الأديان فى بنيتها بذرة الحياة والقدرة على الامتداد فى الزمان والمكان وملاحقة واحتواء كل هذه التحديات المتجددة ، ومستحدثات التطور ، ومستجدات الطوارئ والمشاكل والقضايا والمعضلات !!!

واجهت الأديان الكتابية منذ كانت ، معضلة ملاحقة الثابت الخالد ، للمتغير المتجدد .. مدركة ، أو يدرك العقلاء فيها، أن الجمود انعزال عن الحياة ، وأن هذا الانعزال خسارة للأديان وللناس وللحياة ! .. تزداد الخسارة إذا كانت دعوة الدين دعوة عالمية ، تتجه للعالمين ، وتتغيا امتداداً لا يتوقف فى المكان والزمان ..

ويبدو أن الإسلام ، خاتم الأديان ، قد التفت مع عالمية دعوته وما تعنيه من امتداد فى المكان والزمان ، إلى أن يحمل فى بنيته أسباب حياته إلى ما شاء الله ، وقدرته على احتواء كل ما تقذف به الأيام والحوادث وتطورات الحياة وتغير الناس ـ من مستجدات ومتغيرات لا تتوقف ! .. تجلى هذا الالتفات فى الفلسفة القرآنية التى ميزت بين الأصول والثوابت الخالدة، وبين الفروع والمتغيرات المحتوم أن يلحقها التنوع والتغير والتطور تبعاً لنواميس الكون وسنن الحياة التى أرادها الخالق جل شأنه .. فتضمن القرآن المجيد الأصول والثوابت والمبادئ والأحكام الكلية ، ولم يعرض لتفاصيل وجزئيات المتغيرات ـ مثلما استن فى الشورى والمبادئ العامة للاقتصاد ـ بإيراد المبادئ الكلية التى تحكمها دون التفاصيل ، ليوسع على الناس ويلبى ما لابد سيواجهونه فى بقاع الأرض ومع زحف الزمن والحياة ، وليحافظ فى الوقت ذاته لنفسه على خاصية الحياة والامتداد والقدرة على إجابة حاجات الناس وتنظيم حياتهم ـ

تحت سقف دينهم - فى عالم متغير لا يكف لحظة عن التطور والترقى .. والتحدى أيضاً !

التفت الإسلام إلى أن " النص " ، وهو قوام بنية الأديان، لا يبقى حبيساً فى الأوراق أو المدونات أو المجلدات ، وإنما هو يخاطب آدميين هم بحكم طبيعة الخلق الذى أراده الله - مختلفون فى جنسهم وأعمارهم وأموالهم وأهوائهم ، ولا يجمع بينهم إلاّ " العقل " الذى ميّز به الخالق جل شأنه - الإنسان عن باقى الخلائق والكائنات ، وإليه ملكة الفهم والإدراك والرشد والحكمة .. التفت الإسلام إلى أن " النص " يخاطب أفهاماً ، وأن فهم الدين نفسه ، والإلمام الصحيح العميق بأحكامه ، لاغناء فيه عن العقل ..

فالنص - أى نص - يلتقى منذ لحظة ميلاده بعقل أو بعقول بشرية هى التى تعطيه الدلالات والمعانى التى تفهمها .. هذه الحقيقة تسلس بدورها إلى حقيقة أخرى ،

هـى أن الفهم البشـرى للنص قد يكون غير النص نفسـه ، أو دون النص ، أو زيادة على النص ..

التفت الإسلام ـ ولفت ـ إلى قيمة العقل ، ورفع رايته ، ونوه به وعول عليه فى أمر العقيدة وفى أمر التبعة والتكليف .. تكررت فى القرآن المجيد ـ الإشارة إلى العقل بكل وظيفة من وظائفه وملكة من ملكاته ..

فى القرآن الحكيم لاتخطىء العين تكرار الاشارات فيه إلى العقل بكل وظيفة من وظائفه ، سواء فى مسائل العقيدة ، أم فى بدائع الخلق ، أم فى أمور التبعة والتكليف .. فآيات الخلق البديعة المروية .. "لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " .. والخطاب فى القرآن يتكرر فيه .. " أَفَلا تَعْقِلُونَ " .. "كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" .. "وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ " .. " لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " .. وفى خطاب القرآن لذوى الألباب .. " وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ " .. "فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ".. وفى وصف الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه "وأولئك أولو الألباب ".. "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي

الألْبَابِ" .. "وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ" .. وفى العقل الذى يفكر ويستخلص ، وفى الفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والذكر والعلم وسائر هذه الملكات الذهنية .. تتكرر الإشارات .. "لعلكم تتفكرون ".. " الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ " (آل عمران /١٩١).. "إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " (النحل /١١) .. " انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ " (الأنعام/٦٥) .. " أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ" (الأعراف/١٨٥).. " قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ" (يونس/١٠١) .. " أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء " (ق/٦) .. "أَفَلا تُبْصِرُونَ " .. "أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ " .. " فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ" .." لعلهم يَذَّكَّرُونَ ".. "قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ" (الأنعام/١٢٦).. "إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ" (النحل/١٣) .. "فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ" (النحل/٤٣) .. "أَفَلا يَتذَكَّرُونَ" .. وفى تعليم الإنسان .. "وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا

لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ" (البقرة١٥١) .. "قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (الأنعام/٩٧).

وفى أفضلية العلماء والعلم الذى قوامه العقل والفهم .. "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ" (الزمر/٩).. "يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ" (المجادلة/١١) .. "خَلَقَ الإنسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ" (الرحمن/٤٣) .. "الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" (العلق) .. "وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ".

(آل عمران/٧).

بهذه الآيات ، وغيرها ، تقررت فريضة التفكير ـ وقوامه العقل ـ فى الإسلام ، لم يستثن القرآن الحكيم من ذلك شيئا فى مسائل العقيدة أو التبعة والتكليف ..

فريضة التفكير فى القرآن الكريم ـ فيما يقول العقاد فى رائعته " التفكير فريضة إسلامية " ـ تشمل العقل الإنسانى

بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها. فهو يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد ، ولا يذكر العقل عرضا مقتضبا بل يذكره مقصودا مفصلا على نحو لا نظير له فى كتاب من كتب الأديان .

دعوة القرآن المجيد إلى إعمال العقل والتفكير ، امتدت إلى آيات الخلق والإبداع فى الكون ، وإلى التأمل والتدبر والتفكير فى آيات الله فى خلقه ، وإلى فهم الدين والإلمام بأحكامه، وإلى طلب العلم وتحصيله والعمل بما يفرزه ويعطيه.

العقل ليس بديلاً عن النص فى الإسلام ، ولكنه لتعميق وتجديد الفهم البشرى للقواعد والأصول التى نزل بها القرآن الحكيم وتناولتها السنة النبوية .. هذه الدعوة الربانية إلى إعمال العقل ، والتأمل والتدبر والتفكير فى آيات الله فى خلقه، دعوة تميز بها الإسلام ـ الدين العالمى ـ عن كافة الديانات والشرائع . وتميز بها القرآن عن كافة الكتب

السماوية ، بها أنزل العقل منزلته ، ودعا إلى إيمان العقل المتدبر المتأمل بجانب التصديق بالقلب والوجدان ، فأتم للعقيدة فى الإسلام جناحيها.. ثم لم يدع مجالاً من المجالات إلاّ وجعل العقل السبيل المأمون إليه !

قلنا فى كتاب "عالمية الإسلام" إن فهم الدين نفسه، والإلمام الصحيح العميق بأحكامه ، لا غناء فيه عن العقل.. فالنص ـ أى نص ـ يلتقى منذ لحظة ميلاده بعقل أو بعقول بشرية هى التى تعطيه الدلالات والمعانى التى تفهمها .. وهذه بدورها حقيقة تسلس إلى حقيقة أخرى ، هى أن الفهم البشرى للنص قد يكون غير النص نفسه ، أو دون النص ، أو زيادة على النص .. فالعملية العقلية فى استقبال النص وتحليله وفهمه وتدبر مقاصده ومعانيه ، عملية مركبة تختلف من شخص إلى آخر ، لذلك كان النص الدينى أبدياً، وكان الفهم أو التأويل البشرى وقتياً يرد عليه قدرة اللاحقين على مزيد من التعمق والتحليل والفحص والتدقيق مستعينين بما أضيف إلى العلم على مدار السنين من إضافات أو حقائق

أو تضاعيف لم تكن موجودة ، أو لم تكن مفهومة كلية أو بالقدر الكافى حينما تعرض السلف للنص . لذلك فإن إغلاق الفكر والفهم والاجتهاد ، هو حكم على الدين بالموت ، والدين نزل للحياة ، ولتنظيم حركة الأحياء .. وسنن الحياة لا تتوقف، وتطوراتها لا تنتهى ، وكل يوم تقذف مستحدثات العلم، والاقتصاد والسياسة والاجتماع ، بمستجدات لم يكن لها وجود ، أو تغيرت معالم وجودها عما كانت عليه سلفا.

إن تطور العلم ومبتكراته لا يتوقفان ، ومستحدثات القضايا والمشاكل والحلول بدورها لا تتوقف .. كوكبنا فى حركة دائمة، والعلم ومخترعاته في اندفاع لا يتوقف .. اخترق الإنسان الفضاء، ووصل إلى القمر والمريخ، وداس كواكب لم يدر بخلد الإنسان بأمس أن يصل إليها.. بات متاحاً الآن معرفة نوع الجنين فى رحم أمه، بل والتحكم المبكر فى تحديده.. طرأت قضايا نقل الأعضاء والقرنية والتلقيح والاستنساخ .. وزادت الحاجة إلى البنوك والمصارف ونظم

التأمين .. وأصبحت هذه وتلك أقضيات تستوجب الحل، ويريد الناس معرفة رأى الدين فيها .. والدين لا يستطيع أن يعطى لواقع الحياة وتطوراتها ظهره ، وإلاّ تخلف عنها وصار دينا وقتيا لا يصلح للحياة المتجددة .. الأديان ليست كالقوانين تستمر بالقهر والإلزام ، وإنما بالرضا والإيمان.

تحيا الأديان حين تملك بذور الامتداد ، وحين تقدم حلولها إلى الأحياء مهما امتد الزمن ، وتعاقبت الدهور .. من مقومات هذه القدرة مكانة ومنزلة ودور العقل فيها .. العقل لا يعرف الجمود ، ولا يتوقف عن التفكير والإبداع .. لا للخروج على الدين ، وإنما لتعميق وتجديد الفهم البشرى للقواعد والأصول واستخراج واستنباط الأحكام من واقع الأصول والقواعد الكلية ، وتقديم حلوله للبشرية التى لا تتوقف بدورها عن النمو والتطور والتقدم .

الإسلام بين الأديان ، هو صاحب البرنامج " العقلى " للتعامل مع الدين فهماً واستنباطاً وتأصيلاً وتقعيداً .. علم " أصول الفقه " وهو علم فهم ومعرفة واستنباط الأحكام

الشـرعـيـة من نصـوص وروح الدين ، والبنـاء عليـها باستخراج "العلل" التى تبنى عليها الأحكام ، لتلمس المقاصد والمصالح التى قصد إليها الشرع الحكيم ـ هذا العلم العقلى هو علم إسلامي المنشأ إسلامى التطـور والرعاية والنمـاء .. لا يزاحم الإسلام فيه دين من الأديان .. كان الإمام الشافعى أول من صنف فيه : "الرسالة " ، وأوردها بمقدمة موسوعته : "الأم".. هذا العلم العقلى ـ الإسـلامى ، لا يسـتـغنى عنـه مجتهد فى استقصائه وفهمه وتبيينه النصوص، وتقنينـه فيمـا لا نص فيه.. ولا يستغنى عنـه قـاض ـ ولا باحـث ولا فقيه ـ فى فهمـه نصـوص وقواعد وأحكـام الدين حق فهمها ، وتطبيقها التطبيق السديد الذى يتفـق مع ما قصده الشارع منها .

هذه "النافذة" ـ وأداتها العقل ـ التى فتحها الإسلام للتفكير والاجتهاد فى الدين ، نافذة اقترنت ـ ومن قبل تقنينها فى مدونات ـ بإعمال كافة أدواتها فى جهود عقلية دائبة ومستمرة بذلها الأئمة المجتهدون من قرون ـ لفهم الدين

واستمداد أحكامه الشرعية من نصوصه القرآنية ثم النبوية ، ومن روحها ومعقولها ومقاصدها .. كفلت هذه الجهود العقلية مصالح المسلمين على اختلاف أجناسهم وأقطارهم ومعاملاتهم.. اجتهد هؤلاء الأئمة فقننوا وعمقوا نوافذ التفكير والاجتهاد والتجديد. أضافوا "الإجماع" كمصدر ثالث من مصادر التشريع يلى القرآن والسنة ، وتمكنوا من رصد وتقنين "الأدلة" التى تستمد منها الأحكام، ومباحث الأحكام ، والقواعد الأصولية اللغوية التى تطبق فى استقصاء وفهم الأحكام من نصوصها ، والقواعد الأصولية التى تطبق لهذا الفهم الذى هو غاية التعامل مع العقل.. مميزين فى ذلك كله بين الدليل الكلى والدليل الجزئى، وبين الحكم الكلى والحكم الجزئى .. سنوا أن الأصولى لا يتوقف عند الأدلة الجزئية ولا فيما تدل عليه الأحكام الجزئية ، وإنما غايته التحليق هناك فى السموات، مع الحكم الكلى وأدلته .. أدركوا أن اتساع انتشار الإسلام إلى أقطار جديدة لها لغاتها وثقافتها ـ قد استتبع أن تدخل العربية كثير من مفردات وأساليب

لغات هذه الأقطار ولهجاتها وحضارتها وثقافتها ، وأن التغاير المنتظر الوارد على اللغة يوجب وضع ضوابط تدعو إليها الحاجة لفهم النصوص واستقصاء علل الأحكام بلا التباس .. كانت معرفة العلل والمقاصد "نافذة" للتفكير والاجتهاد والتجديد واستقصاء الأحكام بطرائق عقلية تتخذ من نصوص وروح الدين ، ومن المقاصد والعلل والغايات سبيلاً لهذا النمو العقلى الذى اتخذ من "الإجماع" و"القياس" و"الاستحسان" و"المصالح المرسلة" و"العرف" و"الاستصحاب" و"شرع من قبلنا" و"مذهب الصحابى" - وسائل وأدلة عقلية قوامها النظر والتفكير والاجتهاد والتجديد لملاحقة احتياجات الحياة التى لا تكف عن التطور والاطراد !

* * *

من حصاد العمليات العقلية التى أتاحها علم أصول الفقه فى الإسلام ، نفذ الأسلاف المجتهدون - بمعرفة العلة - إلى "القياس" بإلحاق واقعة لا نص على حكمها

بواقعة ورد نص بحكمها - لاتحاد أو تساوى العلة ،
وإلى "الاستحسان" الذى يبيح عدول المجتهد عن مقتضى
قياس جلى إلى مقتضى قياس خفى، أو عن حكم كلى
إلى حكم استثنائى انقدح دليله فى العقل فرجح هذا العدول ،
وإلى إعمال "المصالح المرسلة" - التى تلاحق مصالح
الناس ومستجدات الحياة طالما لم يدل دليل شرعى على
تحريمها أو إلغائها أو أبطالها .. حداهم إلى ذلك أن تشريع
الأديان لم يقصد به إلاّ تحقيق مصالح الناس ، بجلب النفع
أو دفع الضرر والحرج . وأن "مصالح الناس" لا تنحصر
جزئياتها ، ولا تتناهى صورها ومفرداتها - وتتجدد
بتجدد أحوال الناس ونماء وتطور الحياة، فضلاً عن اختلاف
البيئات ، وتعاقب الأزمان .. هذا الباب العقلى الاجتهادى هو
الذى جدد الدين واستوجد قواعد تلاحق المصالح التى
إقتضتها البيئات والطوارئ التى لا تكف عن الحصول
والتجدد فى صور وأشكال وأنواع متباينة جديدة وطارئة، لم
يسبق بها تشريع ، وغير مقبول - بل هو محال - أن يعطيها

الدين ظهـــره .. كـان دليلهـــم على هـذا الإعمـال للعقـل ـ أن مصالح الناس تتجدد ولا تتناهى ، فلو لم تشرع الأحكام لملاحقتها وتغطيتها ، لتعطلت مصالح الناس على تعاقب الزمان واختلاف المكان ، ولتوقف الدين عن مسايرة تطورات الحياة ، وهذه خسارة للدين وخسارة للحياة التى لا غناء للأحياء فيها عن سقوف تظلهم وتطمئن فى واحتها نفوسهم وضمائرهم . إلى هذه " المصالح المرسلة " كان التجديد وكانت الأعمال المجيدة التى جمعت القرآن المجيد بعد أن كان مفرغاً على العظام واللخاف والجلود ، ووقف سهم المؤلفة قلوبهم فى زمن لم تعد الحاجة تدعو إليه فى أوان الفاروق عمر، مثلما لم تعد حاجة الآن لسهم الأرقاء بعد أن انتهى الرق من العالم .. وإليها أيضا ـ إلى المصالح المرسلة ـ وقف تنفيذ حد السرقة فى عام المجاعة ، وقيام ذى النورين عثمان ابن عفان بجمع المسلمين على مصحف واحد، وتوريث الزوجة التى لم يقصد الزوج من تطليقها إلاّ حرمانها من إرثها .

هذه العمليات العقلية ، بالنوافذ العبقرية التى فتحها الإسلام ، لم تعط ظهرها للعرف الذى تعارف عليه الناس ، فأجازته مادام لا يتصادم مع أصول وأحكام الدين ، ولا يحل حراماً أو يحرم حلالاً ، مثلما أخذت "بالإستصحاب" ـ وهو الحكم على الشيء بالحال التى كان عليها من قبل ما دامت لم تتغير ، عملاً بقاعدة أن الأصل فى الأشياء الإباحة ، وأن هذه هى الحال التى عليها خلق الله الخلق وسير الكون ـ ما لم يسن قاعدة تبطل هذه الإباحة . بل بلغ من الانفتاح العقلى فى واحة الإسلام ، أن قبل "شرع من قبلنا" لمن سبق من الأمم والرسالات والنبوات ، ما لم يقم فى القرآن أو السنة دليل ناسخ له.

من قدرة الإسلام على الحياة ، أنه طوى على ما يكفل السبل والمنافذ والأدوات التى تتيح الاجتهاد والتجديد للأئمة والمجتهدين ، وأن يستخرجوا من كنوز مبادئه وروحه قواعده وأحكامه الكلية ما يلاحق حاجات الناس على امتداد الزمن .. علم أصول الفقه ، وهو علم المناهج التى انتهجها

وينتهجها الأئمة المجتهدون فى استنباطهم وتعرف الأحكام الشرعية من النصوص القرآنية أو النبوية والبناء عليها باستخراج العلل التى تبنى عليها الأحكام ، وتلمس المصالح التى قصد إليها الشرع الحكيم ، وأشار إليها القرآن المجيد وصرحت بها أو أومأت إليها السنة النبوية والهدى المحمدى .. هذا العلم الذى بدأ الإمام الشافعى من قرون فى وضع أحكامه ، ونما على الأيام - هو علم مستقى من أصول القرآن المجيد والسنة ، وكفل على الأيام حسن وسداد الاغتراف من الكنوز القرآنية ، سواء ما اتبعه الأوائل فى عصر التدوين والأئمة المجتهدين ، أم فيما يلى من عصور يجب أن يؤدى علماؤها العارفون القادرون دورهم فى سبيل الاجتهاد الذى دلهم عليه قواعد وأصول علم أصول الفقه .

من نوافذ الإسلام العبقرية ، فى إعلاء راية العقل - وفتح منافذ التفكير والتجديد ، بل والتقعيد - نافذة "الإجماع" الذى إتخذه الإسلام مصدرا تشريعيا لتقرير القواعد -

بعد وفاة النبى عليه السلام ـ وتال مباشرة فى الترتيب للقرآن المجيد والسنة النبوية ..

نافذة "الإجماع" ، كنز من كنوز قدرة الإسلام على التجديد وملاحقة التطورات فى إطار القواعد الكلية والمبادئ الأصولية .. فهو يفتح الباب للنظر والتأمل والإجتهاد المأمون الذى يجد أمانه وسداد حصاده فى اتفاق "الإجماع" على القاعدة أو الحكم الذى إنتهى إليه المجتهدون .. هذا "الإجماع" هو باتفاق علماء المسلمين حجة ، يستمد سنده من القرآن المجيد ، والسنة النبوية .. ففى حديث رسول القرآن أن " الأمة لا تجتمع على ضلالة " ـ وأن "ما رآه المسلمون حسنا هو عند الله حسن" ..

الإجماع مصدر غنى مانح من مصادر الشرع الإسلامى ، إليه تقرر فى زمن الصحابة ـ قاعدة أن الجدة تأخذ السدس تنفرد به الواحدة وتشترك فيه الأكثر من واحدة ، وعليه تقرر فى زمن الصحابة أيضا ـ عدم جواز الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ، وعلى أن الإخوة والأخوات لأب يقومون

مقام الأشقاء إن لم يكن أشقاء ، وبطلان زواج المسلمة بغير المسلم، وعلى أن الأراضى المفتوحة لا توزع كسائر الغنائم والأنفال .. وإلى الإجماع الاتفاق على إطلاق أسماء "الصانع" و "الموجود" و "الواجب" و "القديم" على الله سبحانه وتعالى ، والإجماع على أن الماء إذا تغير لونه أو طعمه أو ريحه بنجاسة فهو نجس لا يجوز التطهر به من الحدث ، وليس لهذا الحكم دليل آخر غير الإجماع ، وإلى الإجماع أيضا قاعدة أن سداد دين المتوفى من ماله مقدم ليس فقط على ميراث التركة ، وإنما أيضا على تنفيذ وصيته ، وإلى الإجماع حكم أنه لا زكاة فى أعيان الشجر ، وميراث بنت الابن مع البنت .. إلى غير ذلك من الأمثلة والأحكام التى كان مردها إلى "الإجماع" .

هذا "الإجماع" الذى هو لدى جمهور فقهاء المسلمين ـ المصدر الثالث من مصادر الشرع ، حكمه فى مسألة هو "حكم قطعى" حتى وإن كان السند الذى قام عليه الإجماع ظنيا ، مثل ما أجمع عليه الفقهاء من أن الجمع

بين المحارم حرام ، وذلك حكم قطعى لا مجال للاحتمال فيه ، بينما سند الإجماع ظنى فى مرتبة سند الحديث المركون إليه : "لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها" .. كذلك ثبوت ميراث الجدة ، حكمه قطعي .. وإن كان سند الإجماع خبرا أحاديا ، وهو ما قرره المغيرة ابن شعبة من أنه رأى النبى عليه السلام أعطاها السدس . كذلك إقامة الإخوة والأخوات لأب مقام الأشقاء ثبت بالإجماع ، وهو قطعى ، والسند كان ظنيا .

هذا الباب المفتوح لإثراء أحكام الدين ، وملاحقة تطورات الحياة ، بإجماع المجتهدين إجماعاً يستند إلى القواعد الكلية والأصول القرآنية والنبوية .. صار من أسف مصدرا مهجوراً، تتجمع غيوم كثيرة حول أسباب أو مآرب هجرانه !!

من الغريب اللافت أن ما بذله المجتهدون العظام من ألف سنة ، تراجع على أيدى المحدثين ، برغم ما أتاحه العلم ومستحدثاته من مراجع وشبكات مرئية صارت فى المتناول

فى لمح البصر، بينما كان الأسلاف يقطعون الفيافى بالأيام والأسابيع والشهور ليطالعوا مخطوطة كان عليهم أن ينسخوا ما يريــدون منها ، فلا كـان هنــاك تصــوير ولا طباعة ولا كمبيوتر !! ..

على أن الزحــف على "الإجمــاع" وهجــرانه ، كــان أسبق من هجران سواه من "منافذ" التفكير والاجتهاد التى أغلقها المحدثون !! .. تجمعت الغيوم على " الإجماع " كمصدر تشريعى ، رضوخاً لأغراض ومآرب الحكم المطلق للحكام والأمراء فى عصور الهبوط والاضمحلال ، وتوافقهم على غلق باب الاجتهاد ، وفى مقدمتهــا الإجماع ، لما يمثله من مخاطر على نظريات الحكم المطلق الذي يستند إلى الحق والسلطان الإلهى .. تصادمت رغاب هؤلاء الحكام مع نافــذة " الإجماع " ـ هذا المصدر الثرى المانح من مصادر الشرع الإسلامى القادر على الإبداع والتجديد ، وأعظم السنن التى تفتح أبواباً لثراء وتجدد الشريعة ، بينما لا يريد الإستبداد لها أن تنفتح !

غريب جدا، أن قبل الفقهـاء قديما تعلة أن الإجمـاع صار متعذراً ومستحيلا بعد زمن الراشدين لتفرق الفقهاء والمجتهدين فى الأقاليم والأمصار، واستحالة أن يتلاقوا مع بعد الشقة بينهـم والمسافات ناهيك بالتلاقى على حكم واحد !!!.. ردد القدماء بعد عصر الاجتهاد هذه المقولة، ودرجوا عليها وإستسلموا لها، ولكن غرابة الإستسلام إليها فى زماننا - بآفة الاعتياد - أكبر وأدهش، التقط فقهاء الزمن الغابر هذه المغالطة بعد عصر الاجتهاد والتدوين، لأن عصرهم كان عصر هبوط وانحطاط وجمود واضمحلال، وهيمنت فيه التيجان ونظريات الملك المطلق هيمنة غلقت الأبواب وعصفت بفقهاء ونكلت بهم وقتلت بعضهم صبرا، فخاف الكل انصياعا لحكمة رأس الذئب الطائر، بيد أن زماننا الآن غير ذلك الزمان، ولم يعد بمستطاع حاكم مهما كان استبداده أن يخيف جمهور الفقهاء المجتهدين على امتداد العالم الإسلامى الذى ملأ الدنيا، وشغل أقطاراً ودولا متعددة من المحال على حاكم واحد أن يبسط عليها كلها سطوته

وقبضته واستبداده ، أيا كان نفوذه فى بلده ، وأيا كانت أدواته ، فى الوقت الذى تماحت فيه تماما ذريعة أو تعلة تفرق الفقهاء المجتهدين فى الأقاليم والأمصار، فعالم اليوم الذى اقتحم الفضاء واقتحم عوالم النجوم واللاسلكيات والإلكترونيات ، وصار بالفضائيات وشبكات الإنترنت ونظائرها قرية صغيرة يستطيع كافة علماء الدنيا أن يلتقوا يوميا على شاشاتها، وأن يتبادلوا الآراء والفتاوى والأحكام، وأن يتناوبوا معالجة المشاكل وطوارئ الأحداث والقضايا وأن يتبادلوا الرأى والحلول فيها، وأن يحصوا قدر ما يتحقق أو لا يتحقق من إجماع أو أغلبية أو أقلية فى مسائل غاية فى الأهمية يحار فيها الناس ولا تتحمل الإبطاء أو التراخى أو الانتظار!!..

الذين تأولوا هذا التأويل ، وتقولوا هذه المغالطة ، والمستسلمون لها وحتى الآن من أسف ، إنما استسلموا لعلة مغلوطة مردودة ، ويصادرون فى الوقت نفسه على

المطلوب ، ويغلقون فى النهاية ، مهما كانت النوايا ، بابا فذا من أبواب نماء الرؤية والفقه والتجديد الإسلامى !

فى مصر - أحد أقطار الإسلام - على سبيل المثال ، كان المؤتمر الإسلامى ، والآن يوجد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ومجمع البحوث الإسلامية ، ودار الإفتاء ، والأزهر الشريف بهيئاته ، وجامعة الأزهر بمعاهدها وكلياتها وأساتذتها ، وفى السعودية رابطة العالم الإسلامى ، ونظائر لكل هذه التجمعات والهيئات والجامعات الإسلامية فى شتى بقاع وأقطار العالم الإسلامى .. وهؤلاء جميعا وفيهم العلماء المجتهدون ، قادرون على طرح القضايا والمشاكل ، وتجميع البحوث ، وتبادل الرأى على مستوى علماء العالم الإسلامى المجتهدين لوضع الحلول والأحكام من واقع القواعد الكلية والأصول والمبادئ التى أوردها القرآن المجيد ، وبينتها وعاضدتها السنة النبوية المطهرة ..

ومن الغريب اللافت أن هؤلاء جميعا يجتمعون بالفعل فى أكثر من مؤتمر إسلامى كل عام ، يختارون له أحد أقطار

وبلاد العالم الإسلامى ، ويعقدون فيها حلقات نقاش واسعة وضيقة ، ويتباحثون ويتناولون ويتبادلون البحوث والآراء فى أهم وأعوص القضايا ، ولكن دون أن ينتقلوا بذلك إلى رصد وتجميع يصح أن يقال إنه قد تحقق به - أو لم يتحقق - إجماع يضيف إلى الفقه الإسلامى ويجدد فى الشريعة ما تلاقى به قضايا اليوم ومستحدثاته .. ماذا يقول علماء الإسلام المجتهدون فى أقطاره جميعا - بالنسبة للفارق بين الانتحار والاستشهاد ، وما تكييف ما يبذله أبناء الأوطان فى الدفاع عن أرواحهم وممتلكاتهم وثرى أوطانهم ، وهل يبيح الدين أو لا يبيح أن تمتد عمليات المقاومة والكفاح المشروعة إلى الأبرياء من الأغيار أو النساء والشيوخ والأطفال ، وما الرأى بالنسبة للموقف الذى على المسلمين أن يتخذوه حيال الغزاة الذين ينتهكون قطرا من أقطار الإسلام، هل التعاون مع هؤلاء الغزاة مباح أو غير مباح يرفضه الدين ويأباه ، وما الحل حين تشجر المعضلات ، والحروب أحيانا ، بين قطرين أو أكثر من أقطار العالم

الإسلامى .. ماذا على مجموع المسلمين أن يتخذوه ، وما هو موقف الدين فى الفوائد المصرفية وصناديق التوفير وشركات أو عقود التأمين .. وكلها قضايا عصرية طال فيها الجدال وتحتاج إلى حكم إجماع يرتضيه ويطمئن إليه جمهور المسلمين ، ماهو حكم الدين فى الشورى الآن فى زماننا ، وما الذى تبيحه أو لا تبيحه المبادئ العامة التى وردت بالقرآن المجيد والسنة النبوية عن الشورى تاركة للمسلمين تحديد أطرها وتفاصيلها ومعالمها ومعطياتها تبعا لتغير ظروف الزمان والمكان !!

هجران "الإجماع" ، وهجران "المنافذ" التى فتحت للعقل والتفكير من ثلاثة عشر قرناً ، هو تعطيل للعقل ، وجمود وتجميد لدور الفكر والتجديد الذى لا مجال بغيرهما لحياة الأديان !

دليل العقل، إلى قيم التراث

يشترك المتدينون ، عامتهم وخاصتهم - فى أشواق تشدهم إلى الإلمام بمشاهد التراث التى حفظتها مدونات السير وتواريخ الأديان - يقبلون عليها فى نهم وشغف وينهلون منها ما يشبع أشواقهم إلى الصفحات التى سطرها الأقدمون حين تلاقت دعوة السماء بأهل الأرض ، وينشدون فيها ما يعطيهم عبق معايشة أنفاس الأحداث والصور التى خطها الأسلاف .

يتمثل المطالع للتراث الإسلامى ، فى شوق وإعجاب ، مشهد الصحابى الجليل سلمان الفارسى، وهو وال من قبل الفاروق عمر بن الخطاب على المدائن .. لا يفارق - رغم الولاية ! - ملابسه الخشنة ، ولا يركن لعطائه الذى يغنيه ، وإنما يأبى إلاّ أن يكسب قوته من عمل يده .. يجدل الخوص ليصنع منه أوعية ومكاتل يبيعها ويتعيش منها .. يقول للناس : " إنى أشترى خوصاً بدرهم ، فأعمله - ثم أبيعه

بثلاثة دراهم ، فأعيد درهما فيه ، وأنفق درهما على عيالى ، وأتصدق بالثالث .. ولو أن عمر بن الخطاب نهانى عن ذلك ما انتهيت" !

ثم هذه الصورة الرائعة للصحابى الجليل سعيد ابن عامر الوالى على حمص ، حين تفقده الفاروق عمر فى ولايته ، فما وجده إلاّ فى إهاب بسيط خشن ، لا تصرفه الإمارة عن تواضعه وبساطته وزهده ، ولكن مابال أهل حمص يشكون منه أنه لا يخرج إليهم حتى يتعالى النهار ، ولا يجيب أحداً بليل ، وله فى الشهر يومان لا يخرج فيهما إليهم ولا يرونه إلاّ آخر النهار !! .. يسأله الفاروق مشفقا أن تكون قد خابت فراسته فيه ، إلاّ أن الجواب يسفر عن عظمة لم يتوقعها أحد من المتسائلين !.. إنه لا يخرج حتى يتعالى النهار ، لأنه ليس لأهله خادم ، فيعجن لأهله العجين ويدعه حتى يختمر ، ثم يخبز خبزه ، ثم يتوضأ للضحى ويخرج إليهم .. ولا يجيب أحداً بليل لأنه جعل النهار لهم ، والليل لربه يعبده ويتهجد إليه .. ولا يخرج يومين فى الشهر ، لأنه لا ثياب له

إلاّ ثوبه الذى يستره ، فهو يغسله وينتظر حتى يجف ، ثم يخرج إليهم فى آخر النهار !

يجد المطالع فى صفحات التراث الإسلامى ، المشهد الرائع للفاروق عمر ، وهو أمير المؤمنين ـ يجرى مرهقاً وراء بعير شارد من إبل الصدقة !! .. ومشهد واليه على المدائن ، حذيفة ابن اليمان .. يخرج أهل المدائن أفواجاً تسبقهم أشواقهم إلى مشارفها انتظاراً لمقدم الوالى الجديد ، فلا يرون إلاّ راكبا آتيا على حمار على ظهره إكاف قديم ، وقد أسدل ساقيه ، بيده كسرة خبز هى كل طعامه .. يستطلعون منه خبر الوالى الذى ينتظرونه ، فيفجأهم أنه هو .. هذا البسيط العظيم فى بساطته .. يبادرهم فيقول لهم : "إياكم ومواقف الفتن ! .. فلما سألوه ما هى ؟ ـ قال : أبواب الأمراء .. يدخل أحدكم على الأمير أو الوالى ، فيصدقه بالكذب ويمتدحه بما ليس فيه" !!

طبيعى ، وحاصل ، أن ينبهر القارئ لهذه المواقف ، بما فيها من صور أخاذة ، ومشاهد جاذبة خلابة ، على أن

الخطر أن يصرفنا الإعجاب الشديد والانبهار بها - عن استخلاص مغزاها والقيم الصادرة عنها .. القيم هى الخالدة الباقية ، أما الصور فمتغيرة .. هذا التغير تابع للزمان والمكان ، ولذلك فإن الانحصار فى "الصورة" قد يفلت القيمة والمغزى والمعنى، بل وقد يرتد بصاحبه إلى الوراء ويحبسه فى أشكال مهجورة يتخلف بها عن ركب الحياة !

صناعة الوالى للمكاتل ليتكسب منها ، وركوبه الأتان بدلا من الخيول المطهمة ، وغسله ثوبه الوحيد وانتظاره حتى يجف، ومشاركة أهل الدار فى الخبيز ، والجرى وراء بعير شارد من إبل الصدقة ، هى صور رائعة ، ستبقى جليلة مبهرة ، لأنها قد وافقت زمانها من ناحية ، ثم هى مردودة إلى "قيم" رفيعة سامية .. هذه القيم هى الخالدة الباقية . القيمة الخالدة هى التعفف عن المال العام والحرص عليه ، والإحجام عن الإفراط فيه ، والتزام حفظه ورعايته وصيانته والترفق فى التعامل معه.. هذه القيم تلزم زماننا وما يأتى بعد زماننا ، مثلما لزمت زمن أسلافنا .. تلزم الكبير

والصغير، وتلزم الوزير إلى الغفير ، والمكلف بخدمة عامة تكليفا مستمرا ، أوالمنتدب لها انتدابا مؤقتا ، والنائب فى البرلمان ، وعضو المجالس الشعبية والمحلية ، وأعضاء النقابات والجمعيات والنوادى التى جعل القانون ـ والواقع ـ أموالها فى حكم الأموال العامة .

الالتفات للقيم المستمدة من التأمل فى هذه الأمثلة من التراث ، يوجب الاكتفاء بما يلزم للعمل العام دون إسراف ولا إفراط. إذا كانت العربة الصغيرة مؤدية للمطلوب ، فلا محل للعربات الفارهة ، وإذا كانت الحجرة المتوسطة وأثاثها المعقول كافية لمكتب المسئول ومستلزمات الحركة والأداء فيه ، فإسراف وتفريط فى المال العام ـ شغل المكاتب لمساحات هائلة ، وفرشها بالأثاثات الفاخرة .. الالتفات إلى التعفف عن المال العام ، يلزم المسئول ومن يراقبه ، بألا يحصل إلا على المعقول الذى يكفيه ويقابل ما يؤديه دون توليد "مسميات" و"لجان" و"انتدابات" و"عضويات" و"إضافات" و"بدلات" وغيرها ـ تؤدى

فـى النهايـة إلـى الارتفاع بالأجـر إلى أرقام فلكيـة لا تتـفـق مع وجوب الترفق بالمال العام والقصد والاعتدال فى التعامل معه ، والقناعة والترفـع عن التغول عليه والاغتراف منه !

الانحصار فى "الصورة" دون "القيمة" رغم امتداد الزمن، وتغاير الظروف ـ تخلف يؤدى إلى نتائج معكوسة ! . ويقلب "القيمة" إلى "إخلال" و "خيبة" و "تفريط" . الحاكم أو الوالى أو المسئول فى الزمن الغابر ، كان يستطيع مع سلاسة الحياة ، وقلة المشاكل والمعضلات ، واتساع الوقت وسهولة تسيير حاجات الناس ـ أن يبلغ بتعففه حد أن يجدل المكاتل ليتعيش منها مستغنيا عن الراتب أو الأجر ، وأن يزهد فيكتفى بثوب واحد لا يرى بأسا من أن يغسله بنفسه ويجلس فى انتظار أن يجف ما دامت ظروف العمل وضغوط واجباته لا تتأثر بهذا الانقطاع ، إلاّ أن تعقيدات الحياة فى زماننا ، وتزايد الأعباء العامة ، وتنامى المهام والمشاكل والمعضلات ، يحتاج من الرجل العام إلى صرف وقته واهتمامه إليها بحيث

يغدو تفريطاً معيباً وضاراً بالعمل الذى يتولاه ، وبمصالح الناس ، أن ينقطع عنه ليكسب قوته من عمل يده ، أو يقوم بالخبيز فى بيته ، أو ينحبس فيه إلى أن يجف ثوبه الذى زهد فلم يعد له سواه .. أيسر وأجدى وأنفع للعمل فى عصرنا أن يكفل للعامل راتبه والمعقول من احتياجاته ، ليصرف كل وقته وجهده لأداء ما عليه رعاية لمصالح الناس ، وإلاّ توقف دولاب الحياة !!

فى مشاهد التراث ، واقعات ووصايا لغسل النجاسة بالتراب ، وهى فى أوانها كانت لازمة ومطلوبة لتحقيق الغاية، فهل "القيمة" فى النظافة والطهارة ، أم فى "صورة" الغسيل بالتراب بالذات ؟! .. وهل إذا أتاحت المدنية الصابون والمطهرات ، تظل "صورة" الغسيل بالتراب هى الجديرة بالإحياء ؟! .

إن إحياء التراث يكون بإحياء "قيمه" ، وليس بالضرورة إحياء "صوره"، فالصور والهيئات والأشكال متغيرة ، و"القيم" هى الخالدة الباقية .. لا جدوى للتراث

إذا لم تنسكب قيمه فى صفحة وعى الناس وسلوكهم ، وإحياء هذه " القيم " ليس بهيئات ولا صور ولا أشكال .. ليس بارتداء جلباب ، أو عباءة، أو ركوب أتان .. غاية النفوس العاقلة أن تتسامى فى دنيا الحوادث المتغيرة ، قديمها وحديثها ، لتمسك بالقيم العليا التى تحكم سلوكها وتدفعها إلى مزيد المزيد فيما ترجوه فى تطلعها إلى الأفضل .. الاقتداء بالأقدمين ليس اقتداء بصور وأشكال ، وملابس وهيئات !. الاقتداء هو " الإمساك " بالقيم النبيلة السامقة التى مثلوها وصدروا عنها !

الغش فى التراث !

على أن المطالع للتراث فى مدونات وتواريخ الأديان بعامة، لا تصادفه الجواهر فقط التى عليه بعقله أن ينفذ إلى قيمها وما وراءها ، وإنما يصادفه أيضا ما تسرب إليها ـ فى عصور الهبوط والاضمحلال ـ من الخرافات والبدع والأساطير التى ألحقت به وهى ليست منه .. ولم يكن

تسرب الخرافات والبدع ، مقصوراً على كتب بعينها من كتب التراث ، وإنما تسرب أحيانا إلى أمهات الكتب والمصادر لأئمة عظام .. لم تنج من ذلك كتب ومدونات كثيرة للأديان بعامة .. فى تفسير الإمام القرطبى إسرائيليات يشير إليها المتخصصون .. ولم يعدم تاريخ الطبرى على عظمته وعظمة واضعه ، أن يحمل بعض الخرافات أو البدع أو الإسرائيليات، أوردها كما هى دون نقد أو تعليق ، وبقيت فى الطبعات الحديثة رغم ما ورد عليها من تحقيق لعلماء محققين مدققين . فى تاريخ الطبرى ـ نقلاً عن الرواة ، أن زوجة النبى إسحق .. حملت بغلامين فى بطن ، فلما أرادت أن تضع ـ اقتتل الغلامان فى بطنها ، فأراد يعقوب أن يخرج قبل عيص ، فقال عيص : والله لئن خرجت قبلى لأعترضن فى بطن أمى ولأقتلنها . فتأخر يعقوب ، فخرج عيص قبله ، وأخذ يعقوب بعقب عيص ، فخرج ، فسمى (عيص) ، لأنه عصى فخرج قبل يعقوب ، وسمى يعقوب ، لأنه خرج آخذا بعقب عيص ..“ . (ط دار المعارف جـ ١ ص ٣١٩) ـ

وهذا قـريب مما ورد فـى الإصـحـاح ٢٥ من سـفـر التكوين بالتـوراة ، ويورد ذات التاريخ (جـ/١ ـ ص ١٤٥) أن قـابيل لما قتل أخاه هابيل ، أنشد شعرا "بالعربية" يسوقه الكتاب ، مع أن اللغـة العـربيـة لم تكن قـد ولدت بعـد زمن آدم وولديه القاتل والمقتـول .. وأورد الطبرى أيضـاً فى قصة آدم أخبارا مستقاة مـن التوراة ومن شروح اليهود للتوراة ، كقـوله " : لما أسـكن الله تعـالـى آدم وزوجـتـه الجنـة ، وأراد إبليـس أن يستنزلهما ، دخل فى جوف الحيّة ، وكان لها أربع قوائم ، كأنها بختية من أحسن دابة خلقها الله تعالى ، فلما دخلت الجنة خرج من جوفها فجاء بها إلى حـواء فقال: انظـرى إلى هذه الشـجـرة، ما أطيب ريحـها، وأطيب طعمـها، وأحسـن لونـها فـأخـذت حـواء فـأكلت منـها، ثـم ذهبت بـهـا إلى آدم فقالت ٢٠٢: انظر إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها، وأطيب طعـمـها، وأحـسـن لونـها . فـأكل منـها آدم . فـبـدت لهـمـا سوآتهما ، فدخل آدم فى جوف الشجرة ، فناداه ربه: يا آدم أين أنت ؟ قـال : أنـا هـذا يا ربى . قـال ألا تخـرج ؟

قال : أستحى منك يارب . قال : ملعونة الأرض التى خلقت منها . ثم قال : يا حواء :أنت التى غررت عبدى فإنك لا تحملين حملاً إلاّ حملته كرهاً ، فإذا أردت أن تضعى ما فى بطنك أشرفت على الموت مراراً .. "، وهذا شديد الشبه بما ورد فى التوراة فى الإصحاح الثالث من سفر التكوين .. ربما عذر الطبرى أنه أراد الالتزام بدقة النقل ولكن ذلك لا يعفى القارئ من وجوب الاسترشاد بدليل العقل فى قراءته لهذا التراث ! .

هذا وغيره مما يجده المطالع للمدونات القديمة للأديان، يجب أن يستدعى عقله لينظر ويتأمل ويفرز الغث من السمين، ويستعيد ما كان دخيلا على الدين من الخرافات أو البدع أو الموروثات أو الخزعبلات التى يأباها العقل والدين !

القارئ طرف أساسى فى المعادلة

قارئ التراث ، كأى قارئ لأى نص - طرف أساسى فى حصيلة القراءة .. النص قيمة مجردة - نعم ، ولكنه قيمة نسبية فى مفهوم من يتلقاه ، يكون جلاؤه على قدر فهم واستيعاب مستقبله .. توجد علاقة جدلية أشار إليها أفلاطون بين النص والقارئ ، بل إن القارئ هو جسر النص إلى الحياة .. هذا القارئ قد يفلح فى الإحاطة بالنص ، وقد يخفق - بقصوره - فى النفاذ إلى أعماق وأبعاد النص ، وقد يشرد فى استيعاب دلالته ، مثلما قد يصيب فى فهم وتحصيل مدلوله .. مستويات علم وفهم وإدراك القارئ كانت ولا تزال عنصراً أساسيا فى مفهوم النص .. فى تقدمة "كليلة ودمنه" الذى نقله ابن المقفع للعربية ، أن "كلام الكتاب" - "ظاهره لهو للخواص والعوام، وباطنه رياضة لعقول الخاصة".. وكأن العقاد قد خشى أن يضيع نفيس ما يكتب لدى الجهلاء أو ناشدى التسلية وإزجاء الفراغ ، فينبه إلى أن الأدب فى لبابه قيمة إنسانية وليس قيمة لفظية ،

وأن الكاتب صاحب رسالة فى عالم العقل والروح ، وأن العلاقة بين الكاتب (النص (وقارئه "علاقة تعاون واشتراك لا يغنى فيها الجهد المفرد عن الجهدين المتساندين" ! بل يشتد فيقول : "إن القارئ الذى يفرد الكاتب (النص) بواجب التفهيم لا يستحق الإلتفات إليه" !!!

ليس يهم النظريات التى تدور حول التراث والتعامل معه .. لا بأس على الآدمى أن يعتنق من النظريات ما يشاء ، الضيقة أو الموسعة أو الجامدة أو المرنة أو المدققة أو المتحفظة ، طالما أن العقل رايته ودليله .. .

للآدمى "بوصلة" ذاتية ، هادية ومرشدة .. لا تخطئ مادامت أجهزتها استقامت وسلمت ، وكان عمادها الاخلاص وسلامة القصد وصدق النية .. فى الحديث النبوى منارة هادية لهذه البوصلة ، أشار إليها رسول القرآن حين قال لسائله إن : " الخير ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس وإن أفتاك الناس وأفتوك " .. يتوقف كثير من المتلقين

لهذا الحديث عند معنى الحلال والحرام ، ولا يغوصون إلى دلالته الهادية إلى بوصلة الآدمى الذاتية ، فيقيدون دلالة هذا الحديث الرائع بلا مقيد ، ويحجبون المعنى العميق الذى يتضمنه ، وإشارته الواضحة المستفادة إلى " بوصلة " الآدمى التى هى كفيلة بإرشاده وهدايته إلى الصواب مهما قال الناس أو تزيدوا أو انتقصوا أو تحفظوا أو غالوا أو بالغوا أواقتصدوا أو تنطعوا أو أنصفوا أو فارقهم الإنصاف ! .. هذه " البوصلة الذاتية تتشكل من " حزمة " العقل والقلب والضمير والوجدان ، قيادها إلى " العقل " الذى إليه مرد كل شىء ، إعماله فريضة من فرائض دين القرآن ، والاحتكام إليه صمام أمان ودليل يفتح للمتأمل المفكر مغاليق ما يشاهد أو يرى أو ينظر أو يقرأ .. هو الذى يحلق به فى السموات ليرد ما يصادفه إلى الله تعالى وإلى الرسول عليه السلام .. يأبى العقل أن يصادق على ما خالف الأحكام والمبادئ المستمدة من القرآن والسنة ، ويأبى تصديق الخرافات والبدع والإضافات المتراكمة فى عصور الانحطاط والانطفاء .. فإن

أعياه النظر ، أو أعجزته أدواته وقاعدة علمه ومعارفه ، لجأ إلى أهل الذكر الذين حض القرآن على الرجوع إليهم بلا كهانة ، فقال : "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون" .. إعمال العقل هو انتصار للدين ، واهتداء إليه - وليس للخروج عنه .. العقل لا يصطدم بالدين ، ولا يفارقه .. إنما هو يعمق فهمه ، ويلتئم مع هداية القلب والضمير لإرشاد الآدمي إلى السواء والصواب .. إعمال العقل هو الذى يحمى صفحة وعى الآدمى من غث التراث المطوى على الخرافات والأساطير والخزعبلات والبدع ، ويعينه على تعمق التراث الصحيح واستخلاص مغزاه والقيم الخالدة المستمدة منه والجديرة بالإعلاء والإعمال مهما تغايرت الصور والأشكال والهيئات .. القيم هى الخالدة والصور بطبيعتها متعددة ومتغيرة.

الأديان .. الهداية ، أم الأمجاد ؟!

يبدو للمتابع المتأمل ، أن كثيرا من المتدينين ، من هذا الدين أو ذاك ، تمتزج بمشاعرهم أحاسيس الرضا أو الفخر والإعجاب بالأمجاد التى دانت لهم فى الزمن الغابر أو القريب .. ولعل هذا الإعجاب بالأمجاد يزاحم فى صفحة وعيهم وإحساسهم بالدين ذاته وما جاء به من هداية .. يساعد على ذلك امتداد الأمل فى وصل الحاضر بالماضى التليد ، أو اصطناع الأسباب لإسباغ مسوح الدين على مآرب الحاضر فى دنيا الأغراض والمصالح .. يبتعد أهل الأديان ، وحاملو دعواتها ، ابتعاداً سلبيا مؤسفا ، عن جوهر الدين وهدايته ، حين يلفتون أنظار المتدينين عن " هداية " الدين ليشدوهم إلى " أمجاد " غابرة أو حاضرة أو منشودة .. ابتعاد الناس عن " هدايات " الأديان ، والتعلق بالأمجاد ، ليس عيباً فى الأديان ، ولا نحراً ولا انتقاصا منها .. الدين هو هو وسيبقى هو هو .. اهتدى إليه الناس أو حادوا عنه .

الله سبحانه وتعالى واحد ، لا يتغير ولا يتبدل .. رب اليهود هو رب المسيحيين هو رب المسلمين هو رب الكون والخلق كله والناس أجمعين على اختلاف أديانهم ومللهم ونحلهم ، أو هداهم وضلالهم .. إن الاتجاه إلى الله تعالى لا يتغير لأنه سبحانه واحد أحد ، وإنما الذى يتعدد ويتغير هو اتجاه الآدميين إليه سبحانه ، وجوداً وعدما ، قربا وبعدا ، جداً وهزلاً ، فهما وغباءً، علما وجهلاً.. وذلك على قدر هداية وعقل وبيئة الآدمي ووسطه وعصره وزمانه ومحيطه.. انشغال بعض أهل وأبناء الديانات عن "هدى" أديانهم ، عيبه فيهم لا فى الأديان .. لم تمض ولم تنتشر "هدايات" الأديان بالحروب والأمجاد، وإنما تحققت الأمجاد حين اهتدى المتدينون والتزموا بجوهر الدين ، والتفتوا إلى أعمدة الحقيقة للأديان ، وروحها الباقية التى نزلت بها رسالتها من السماء .

الصهيونية ، أم اليهودية ؟!

قد يغلب على ظن الكثيرين أن الصهيونية حركة دينية قديمة ، مرتبطة بما ورد من وعود ، والواقع أنها ليست حركة دينية ، ولا هى قديمة فى بنى إسرائيل ، ولكنها حراك سياسى تابع لقيام الدولة وسقوطها فى بيت داود .. التغنى بالأمجاد الغابرة فى عهد الملوك ، وبما تحقق ودان فى مملكة داود وسليمان ، والالتفات إلى هذه الأمجاد واللفت إليها ، جزء أساسى - مع الوعود المدعاة - لنسيج وزخم وسياسة الحركة الصهيونية .. ربما ترتد جذور الإمعان فى التغنى بأمجاد مملكة وملوك إسرائيل - إلى رد الفعل الناشئ عن سنوات المعاناة الطويلة القاسية فى الأسر البابلى وزوال مملكة إسرائيل ، وما صاحب هذا كله منذ القرن الثامن قبل الميلاد ، من انهزام تاريخى ونفسى أفرخ - برد الفعل - إنعاشاً للديانة اليهودية إزاء محيط الوثنيين فى المنفى ، وأفرخ أيضا نزوعا إلى الماضى باستحضار أمجاد المملكة المقوضة ، والتطلع إلى لملمة ما ضاع فى مواجهة الغزو

والسبى .. اتصل هذا النزوع إلى الماضى ، والتعلق بأمجاده البائدة ، بما صادف الشتات اليهودى فى بلدان أوروبا من صفحات مرة استدعت بالضرورة النزعة العنصرية القديمة ، والإعتقاد الإسرائيلى بالتميز والتفوق على كافة أجناس الأرض ، وهو اعتقاد قديم مقرون بعناد وصلف واستكبار صاحَبَ تواريخ بنى إسرائيل مع أنبيائهم ، وكان وراء "انعزال" اليهود عن المجتمعات التى يعيشون فيها فى وسط وغرب وشرق أوربا مما ساهم فى إقامة جدار عال من العزلة وسوء الظن المتبادل ! .. ومع أن الحركة الصهيونية رد فعل هى الأخرى لهذا كله ، وحراك سياسى يتغنى بدوره بالأمجاد الغابرة ، ويتخذها ـ مع الوعود المدعاة ! ـ سبيلاً لتحريك الأشواق وإثارة النعرات العنصرية ممزوجة بمجد إسرائيل الماضى والمنشود .. وبرغم أن الصهيونية تسعى للالتصاق باليهودية لتستمد منها المشروعية الدينية والمدد العاطفى ، إلاّ أنها فى الواقع ابتعاد عن " هداية " الديانة اليهودية كما نزلت إلى موسى كليم الله ، والذى قال لسائليه عن ربه

فيما يــروى القـرآن المجيد : " قَالَ رَبُّ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ " (الشـعراء ٢٨) .. العقيدة الصافية التى دعا إليها موسى حقيقة ، كانت عقيدة التوحيد والإيمان بالله الواحد الأحد ، الفرد الصمد، إله الناس جميعاً .. فى القرآن المجيد ، يقول جل شأنه مخاطبا نبيه موسى: "إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّـلاةَ لِذِكْـرِي" (طه ١٤) .. وها هو موسى عليه السلام يقول فيما رواه القرآن : " قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَـدَى " (طه ٥٠) .. هذا البيان للخالق المانح الهادى ، يقرنه موسى بقـوله الـذى رواه القـرآن : "إِنَّمَـا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّـذِي لا إِلَـهَ إِلاّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا" (طه ٩٨).. وقوله : "يَا قَـوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِـرَةَ هِـيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلاّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُـونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَـا بِغَيْرِ حِسَابٍ" (غافر ٣٩/٤٠).. هذه الهداية فى العقيدة الصافية التى بعث بها موسى ، تحجبها العنصرية والاعتقاد بالتميز

والتفوق والتغنى بالأمجاد الغابرة ، والتطلع إلى تحقيق "مجد" كاذب موهوم تتبناه الحركة الصهيونية العنصرية السياسية التى تسعى لاستغلال الدين اليهودى - بمفهوم مغلوط ، لتحريك أشواق اليهود إلى ما تريد!! .. ومع الصخب والضجيج والمغالطة - تتوه فى وعى الناس " هداية" الدين ، وتنصرف ملتوية الأعناق إلى مآرب السياسة و "الأمجاد" الزائفة القائمة على القتل والنسف والتدمير ؟!!

المسيحية ، والمجد الحقيقي

لم تكن أمجاد المسيحية الحقيقية فى الإمبراطوريات التى أقامتها دول مسيحية لم تكن تغيب عنها الشمس ، ولا فى الحروب الصليبية التى اتشحت بشعار الصليب لتغزو الشرق الإسلامى ، ولا فى موجات الاحتلال الاستعمارى التى أتت من أوربا المسيحية إلى آسيا وأفريقيا فعصفت واستنزفت ، ولا فى تقويض الأندلس الإسلامية ومطاردة المسلمين ، ولا فى محاكم التفتيش ، ولا فى غزو أفغانستان

فالعراق ، ولا فى افتعال أسباب مغلوطة مصطنعة لمعاداة ومهاجمة الإسلام والمسلمين !! .. مجد المسيحية الحقيقى فيما نزلت به من هداية ومحبة .. المسيحية نزلت وقد أُهملت شريعة موسى ، وطغت الماديات حتى تحول الهيكل المقدس إلى مشروع ومزار تجارى ، وتفرقت الطوائف إلى صدوقيين وفريسيين وأسينيين وغلاة وسامريين .. جاءت المسيحية لتعيد السواء إلى الخروج عن الناموس وشريعة التوحيد التى جاء بها موسى عليه السلام ، حتى كان المسيح عليه السلام يقول: "لم أرسل إلاَّ إلى خراف بيت اسرائيل الضالة" (متى ١٥/٢٤) : جاء المسيح ببساطة الضمير.. يدعو إلى ملكوت السماء فى الضمير والوجدان، لا فى القصور والعروش .. يقول للناس: "لن تربح شيئا إذا كسبت كل شىء وخسرت نفسك !".. هداية المسيح لا تبالى بظاهر الدنيا كله إذا سلم للإنسان باطن الضمير. لم يَدْعُ المسيح عليه السلام إلى استعمار ولا إمبراطوريات ولا إلى تجبر .. مضى فى الناس يدعو

ويقول : "طوبى للحزانى. طوبى للمساكين. طوبى للجياع والظماء. طوبى للمطرودين فى سبيل البر ، طوبى للودعاء والرحماء : "تعالوا إلىّ يا جميع المتعبين والمثقلين" .. لم يقل عليه السلام طوبى للمستعمرين أو الأغنياء أو المتجبرين .. يحمل إلى البشرية دعوة الهداية والإسماح ويقول لمن تكالبوا على المجدلية: "من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرجمها بحجر"!.. حمل المسيح إلى البشرية شريعة الحب فى مواجهة الجحود والتجبر والرياء .. شريعة الحب لا تبقى شيئا من شريعة الأشكال والظواهر ، ولكنها لا تنقص حرفا واحدا من شريعة الناموس بل تزيد عليه .. تقول شريعة الحب التى أتى بها المسيح للمزهو المتعالى بنفسه : "لماذا تنظر إلى القذى فى عين أخيك ، ولا تنظر إلى الخشبة التى فى عينيك ؟" لا عنصرية فى المسيحية ، ولا استعلاء لأحد على أحد : "بل الذى يعمل مشيئة الله هو أخى وأختى وأمى".. "إن الدين بما تعمل لا بما معكم! .. دعوة المسيحية إلى "ملكوت

السماء" لا إلى "مستعمرات" فى الأرض !.

ماذا تكسب الدنيا ، بل ماذا تكسب المسيحية والمسيحيون بالانصراف إلى الأمجاد الزائفة عن " الهداية " التى جاء بها السيد المسيح ؟!!!.

* * *

هذه الأمثلة لابتعاد الممارسات قديما وحاضرا ، عن "هداية" الدين - ليس مرادها سوى أنْ تطرح سؤالاً : هل الأديان تمضى إلى غاياتها "بالهداية" أم "بالأمجاد" ؟ ثم هى - أى هذه الأمثلة - ليست عيبا فى الدين ، وإنما هى حيود من الناس !! .. هذه الحيود عن " هدايات " الأديان لم تكن شأن ولا حال جميع أهل أو أتباع هذا الدين أو ذاك .. لم يكن كل المسيحيين معنيين بإقامة الإمبراطوريات والتعلق بأمجادها ، ولا احتلال بقاع الأرض والاستيلاء على ثروات الشعوب ، ولا نصب محاكم التفتيش ، ولا غزو بلاد الله !.

بل لقد هب ملايين من المسيحيين البسطاء ، مع مجلس الكنائس العالمى ، ومؤتمر الكنائس الأوربى ، والمجلس الوطنى لكنائس المسيح فى الولايات المتحدة ، ومجلس كنائس الشرق الأوسط - للتنديد بغزو العراق، وخرج يوم ٢٠٠٣/٢/١٦ عشرات الملايين من أهل الأديان وبحر العاديين من البسطاء فى أوربا والأمريكتين - فى مظاهرات حاشدة عمت عواصم العالم ومدنها الكبرى ، ووصفت بأنها " مظاهرات القرن " ، فى أكثر من ٦٠٠ مدينة ، للإعتراض بقوة على هذا الغزو ، وعلى " المصالح " الكامنة التى وراءه ، معترضين على نهم المصالح التى تبتعد عن " هدايات " الأديان . مجد المسيح وهدى المسيحية ، عائشان فى قلوب مئات الملايين الذين لم تصرفهم لغة المصالح ومنطق التوسع والأمجاد الزائفة ، عن جوهر دعوة السيد المسيح وما حملته من هداية .. بل إن الصهيونية ذاتها ، بما فيها من عنصرية وتعلق بأمجاد غابرة وأخرى منشودة بلغة المصالح والمآرب التى لا يوقفها

شـىء ولا يحـدها شـرع ولا قـيم ـ هذه " الصـهـيـونيـة " بمفـاهيـمـهـا ـ ليست حـال كل اليـهـود ، ولا حـتى حـال كل الموجـودين أو النـازحين منـهـم إلى أرض فلسطين .. هـنـاك أصـوليـة يهـودية لا تتـفق مع كل منطق الصـهـيـونيـة، وبينمـا يكتب الفـقـيـه اليـهـودى سـعـديا جـاؤون الذى عـاش فى ظل الخلافة العربية عن "العلاقة الأبدية" (؟!) لشـعـب إسرائيل بأرض إسـرائيل (فلسطين) " !!، ونرى آخـر (مـوشـيـه إيشون) فى دراسة بعنوان : "إسـحق رابين والعهد القديـم" ـ يأخـذ على رابين قـوله إن "العـهـد القـديم ليـس بسـفـر تسـجـيل ملكيـة الأراضى ، وأن القـداسـة لا ترتبط بالأرض ترتباطـها بالقيم " ـ نجـد فى المقابل ، على سـبـيل المثال ، أن اليـهـود " الحـريديم" المتشـددين دينيـا ، يرفضـون أى شكل من أشكال الخـلاص قبل مـجيىء المسيح المخلص ! .. وهناك من اليـهـود المتـدينين من ينظرون إلى الصـهـيـونيـة ودولـة إسرائيل بوصفهمـا من تعاليم الكفار التى نشرها المرتدون ، واغـتـصـابا وقـحـاً لوعـد الـرب بخـلاص الأرض عـلـى يـد

المسيح المخلص . (إشكالية الهوية فى إسرائيل . للدكتور رشاد عبد الله الشامى ـ عالم المعرفة) . على أنه على كثرة الاتجاهات والتفاصيل التى لا يتسع لها المقام ولا غاية هذا المقال ، فإن الحركة الصهيونية بإجمال تقوم على تعلق "بأمجاد " غابرة وأخرى مأمولة ، وتنبثق عن نظر عنصرى ضارب الجذور من القدم ، يتصل بالآمال التى أفرخها الأسر البابلى بعودة المملكة على يد بطل من أبطال الغيب !.. ليس مراد هذه الكلمات استقصاء نسب ولا أعداد ولا فصائل من صرفتهم " الأمجاد " عن "هداية " هذا الدين أو ذاك ، وإنما هى فقط لطرح قضية الأديان بعامة ـ هل هى " بالهداية " التى بها ولها نزلت ، أم " للأمجاد " التى تنصرف إليها دنيا ورغاب ومصالح الناس ؟! .. ماذا تكسب الدنيا ـ أو تخسر ! ـ إذا استسلمت لمنطق المصالح والأهواء والأمجاد ، وماذا تكسب وتربح ـ أو تخسر! ـ إذا أقبل أهل الديانات بعامة على ما فى أديانهم من " هداية " نزلت من السماء ، ترشد الإنسان إلى السواء ، وتنزع ما بين الناس من سوء الظن

والشر والتصارع والاقتتال ؟! ثم ماذا كان موقف الإسلام ؟!

* * *

لم ينشغل المسلمون في بدايات الدعوة وزمن الراشدين ـ "بالأمجاد" ، ولا دارت هذه الأمجاد وما يتعلق بها أو يدور حولها بأخلادهم .. كان من المحال أن تزاحم الأمجاد أو غيرها ـ صفحات قلوبهم الملآنة بالهداية ، أو تشد أو تصرف أرواحهم المعلقة بالخالق البارئ ، الواحد الأحد ـ رب العالمين .. كان تعلقهم بحبل الله هو عاصمهم في سنوات المعاناة وما لاقته الدعوة ولاقوه معها من كيد وتنكيل وإيذاء قريش ومن والاها من الكفار والمشركين ، فلما أن مضت الدعوة إلى غايتها ، وجاوزت ماكان يدبر ويحاك لها ، انشغل المسلمون بواجب الدعوة ومسئوليات انتشار الإسلام وهداية ومبادئ وأحكام الإسلام .. ، فلم يصرفهم عن

ذلك صارف ، أو تخايلهم "أمجاد" أو سواها !

كان من الطبيعى ، أن تولد الفتوحات الإسلامية العجيبة التى دانت بعد ذلك للمسلمين فى فترة وجيزة ، شعورا بالثقة وبالقوة البدنية والنفسية ، وأن تسهم مع حضارة الإسلام الأشد عجبا التى نبتت ونمت وازدهرت فى بلاد الإمبراطورية الواسعة التى اعتنقت الإسلام ـ فى المزيد من الشعور بهذه الثقة ، وبالإطمئنان إلى صدق الدين الذى اعتنقوه وآمنوا به، وأن يستدعى ذلك كله ـ إحساس المسلم وشعوره بمجد الإسلام كدين باق لما شاء الله ، بيد أن هذا المجد لم يكن ابتعاداً بالمسلمين عن هداية الدين الذى آمنوا بأنه دين للعالمين ، وأن انفتاحه على العالم ـ انفتاح دعوة ، وانتشار رسالة أراد بها الله سبحانه وتعالى هداية الدنيا ، وجعل للمسلمين واجب نشرها ورعايتها وضمان اتساعها ليطمئن فى واحتها المسلم وغير المسلم ، وينال الأمان فيها كل من يفئ إلى ظلها .. لم يكن مرجع المجد إذن لهذه الفتوحات العجيبة ، ولا لهذه الحضارة الأشد عجبا ،

بل إن القرآن المجيد نهى المسلمين عن طلب المجد أو طلب النفوذ أو السلطان أو الاستعلاء ، فقال عز من قائل : " تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ")القصص ٨٣).

دوحة الإسلام

الإسلام في نصوصه وفى مهجته وفى روحه ، دين هداية، يأتى فيه أى شىء تابعا لهذه "الهداية" التى هى رسالة الإسلام إلى الدنيا .. القرآن المجيد نور وهداية .. "ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ" (أول البقرة) .. والنبوة المحمدية نبوة هداية ، وليست نبوة استعلاء ولا استطلاع ولا كهانة ولا تنجيم ولا خوارق ولا أهوال !! .. إن "الهادى" اسم من أسماء الله الحسنى ، بعث نبيه المصطفى بالهداية : "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ." (التوبة ٣٣) .. يوصيه ليقول للناس كافة : "قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا

لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ" (الأنعام/٧١ - البقرة/١٢٠).. نبى الهدى لا يتغيا ملكاً ولا مجداً ، ولا يبحث عن موجبات أو أدوات أو لوازم مجد .. "قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (الأعراف ١٨٨) .. "قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ " (الأنعام/٥٠) .

فهم المسلمون الأوائل من القرآن المجيد ، وسنة رسوله ـ أن المجد الحقيقى الذى تغياه الإسلام ـ هو هداية الإنسانية كلها على أساس تصح وتستقيم وتطمئن وتنطلق وتتطور وتتقدم به حياة وقيم وأعمال وسلوكيات الأحياء .. الكرامة فى القرآن ، هى كرامة الإنسان .. "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً" (الإسراء٧٠)..

لم ينزل الإسلام إلى أمة بخاصة، ولا لقوم بخاصة، ولا لمكان بخاصة.. وإنما اتجه بدعوته إلى العالمين .. إلى الإنسان حيث كان ، وبعث رسوله بالهدى إلى الناس كافة "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً" (سبأ ١٨) .. "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا" (الأعراف ١٥٨).. لا أحد مختص بالدعوة والهداية دون أحد، ولا مجد لأحد على أحد.. الإنسانية أسرة واحدة، مردها إلى أصل واحد.. "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء ." (النساء/١).. "وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ." (الأنعام ٩٨ ـ الأعراف ١٨٩) .. يخاطب الإسلام الناس كافة على سنن الهداية والإقناع .. الإتساع الكونى لرسالة الإسلام جعل باب دوحتها مفتوحا للعالمين بلا سطوة ولا تسلط ولا استعلاء ، وبلا بحث عن علوٍ أو أمجاد ! . قدم الإسلام للإنسانية دوحة وارفةً دستورها القرآن : معجزته الكبرى الممدودة إلى الدنيا إلى يوم الدين ، يجعل من الإيمان

بكافة الرسالات والنبوات ، جزءا لا يتجزأ من الإسلام وهداية الإسلام .. القرآن يخاطب المسلمين فيقول لهم : "قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ." (البقرة/١٣٦ ـ أيضا آل عمران/٨٤)

.. فى هداية الإسلام للدنيا ، جعل العقل ـ مع الضمير والوجدان ـ مناراً لهداية الإنسان حيث كان ، وجعل العلم روح الإسلام ليقدم للإنسانية كلها حياة يلتئم فيه نبضها بلا استعلاء.. فى هذه الحضارة التأم اليهودى والمسيحى مع المسلم لعمارة الحياة ، فلم تتنباه هداية الإسلام على غير المسلم ، وفتحت للجميع فرصاً غير محدودة للعطاء للأسرة الإنسانية .. فبزغ فى دوحة الإسلام نجوم لا ينتمون إليه ، أعطوا فى مناخ عماده الإخاء والتسامح والمحبة والسلام .. يظل الجميع ـ بلا تمييز ولا استعلاء ـ منظومة أخلاقية عنيت كل حبة من حباتها برعاية الآخر .. هذا الجانب

(رعاية الغير) وملحوظ فى كل سجايا الإسلام ، كالعدل ، والصدق ، والأمانة ، والوفاء ، والحلم ، والكرم ، والتواضع ، والعفو ، والإسماح ، والصفح ، والإحسان ، وكفالة اليتيم والأسير والمسكين ، والتكافل ، والإخلاص .. وغيرها ، مثلما هو ملحوظ فى النواهى التى حرمت وحظرت الظلم ، وبخس الكيل والميزان ، وكتمان الشهادة ، وقول الزور وغير ذلك من المنكرات .. هذه الباقة من الأوامر والنواهى وجهت عنايتها للأغيار ، لأنها فى غايتها السامية تحفل بالآخر وترعاه وتصونه من أن يلحق به أذى أو مكروه ، ولذلك نزعت هذه الباقة الأخلاقية من وجدان المتلقى أى ميل للاستعلاء أو التكبر أو التجبر أو البحث عن "الأمجاد" الزائفة .. الإسلام زرع فى وجدان المسلمين هذا العطاء الواجب ـ بلا منّ ولا أذى !! .. فمهجته الحق والهداية إليه ، وللإنسان فى مظلته قيمة بذاته.. روحه مقدسة، وكرامته محفوظة، والعدل واجب إزاءه ، والتجنى والافتئات عليه محظور .. واحة الإسلام عمادها الإخاء

والمساواة والتسامح والأمان .. الأخوة الإنسانية أخوة شاملة تطوى الجميع فى حناياها .. يقول القرآن المجيد: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (الحجرات/١٣) ساوى الإسلام فى واحته بين الجميع ، لم يستبعد من المساواة كتابيا ولا ذمّيا ولا أحدا من أهل الذمّة الذين يقيمون فى دار الإسلام .. لا مجد ولا تعظيم لأحد ، يقول رسول القرآن للناس: "لا تقوموا لى كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً" .. "إنما أنا عبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس".. يقول لمن أخذته رعدة من هيبته: "هون عليك يا أخى ، فإنى لست بملك ولا جبار ، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد فى مكة ." .. هذه المساواة هى رسالة الإسلام إلى الدنيا وإلى الناس كافة ، أنهم فى ظل دوحته الوارفة ، يلتئمون جميعا فى شجرة واحدة عمودها المساواة ، وأنهم فى رحابه ينتمون إلى شجرة الإنسانية التى يتساوى فيها الجميع فى دوحة

المساواة والإخاء والحرية والإسماح !

هذا العالم الجديد ، هو مجد الإسلام الحقيقى .. هو "الهداية" التى أفاء بها على الإنسانية ، وأتاح لها ما يتحقق به " مجد الإنسان " فى بناء رام وحرص الإسلام أن يتسع للإنسانية كلها،، لأسرتها الكبرى، بلا تمحور أو انصراف إلى تجبر أو استعلاء أو " أوهام " " أمجاد "زائفة تصرف الإنسان عن المعنى الجامع والمثل الأعلى والغاية السامية العليا للحياة التى يتجه فيها الإنسان اتجاها صادقا إلى خالقه .. مجد الإسلام هو هذا العالم الجديد الذى وضع أساسه وقيمه ومبادئه وأحكامه، واتسعت رقعته لتضم فى حناياه الأسرة الإنسانية بلا حواجز لا سدود ، ولا عصبيات ولا نعرات، ودون ما تجبر ولا استعلاء.. هذا العالم الجديد مهجته الرحمة والتراحم ، لا الاستعلاء والتجبر أو المجد الزائف .. رسالة الإسلام نور وهداية ، ورسول القرآن ، رحمة إلى الناس مهداة من السماء ،، "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" (الأنبياء ١٠٧) ،،

فالرحمن ، والرحيم - من أسماء الله الحسنى ، عن صفة رحمته ينبئ الذكر الحكيم فيقول : "رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا" (غافر/٧) .. ويأمر حامل الرسالة - عليه السلام - بإبلاغها إلى الناس .. كل الناس : "نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " (الحجر ٤٩) .. يقول رسول القرآن لاتباع الإسلام : "الراحمون يرحمهم الرحمن .. ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء" .. وفى الحديث القدسى " اطلبوا الخير عند الرحماء من أمتى تعيشوا فى أكنافهم ، فإن فيهم رحمتى " .. معيار التفاضل بين الناس هو " التقوى والعمل الصالح ".. "كلكم لآدم .. وآدم من تراب " .. لا فضل لعربى على سواه إلاّ بالتقوى .. يقول لهم نبى الهدى : " يابنى هاشم ، لا يجيئنى الناس بالأعمال وتجيئونى بالأنساب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم " .. أمة الإسلام مدعوة إلى الخير وبذل المعروف ، لا إلى التميز والتجبر والعلو فى الأرض .. " وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ " (آل عمران ١٠٤).. العزة الحقيقية فى التقوى لا فى المجد الزائف ـ "من لم تعزه التقوى فلا عز له" .. الإسلام يطلب الرفعة . نعم ، ويطلب القوة . نعم ، ولكن ذلك كله فى الحق ولأجل الحق .. التمايز لا يطلب فى الإسلام للعلو أو طلب المجد ، وإنما لتكون القدرة المتحصلة مسخرة لرعاية الكافة .. ـ قوة القوى فى جبر ضعف الضعيف ، وغنى الموسر لكفالة المحتاج والفقير ، وعقل العاقل لرتق وهن عقل العليل .. لذلك لا يسمح الإسلام بأن تمس الاختلافات بين البشر ، ما ينبغى أن يسود العالم من أخوة وانتماء إنسانى تذوب فى أخوته الإنسانية الشاملة ـ كل فوارق الجنس واللغة والأعراق والألوان والصفات والمكنات والقدرات .. هذا المعنى الجامع لا يدع محلا لأوهام المجد الزائف ، ولا يترك ثغرة للانصراف عن القيمة والحق والهداية ، إلى أوهام العلو والركوب على رقاب الناس أو استلاب حقوقهم وحرياتهم وكراماتهم ومصالحهم وأموالهم !!

هـذا العـالـم الجـديد كل الجـدة ، لم يبنـه الإسـلام ويضع أساسه وكفى ، وإنما أعطى مفتاحه إلى الدنيا ليلج إليـه من يريد هداية الله وصدق التوجه إليه ، وسـلامة الوجدان والضمير ! .. كيف كان هذا المفتاح الذى أعطاه الإسلام للدنيا .

* * *

العالم الجديد الذى أقامه الإسلام ، كان عماده الهداية وكرامة الإنسان حيث كان.. لم يطلب الإسلام مجداً للعلو فى الأرض ، وإنما تغيا وبث هداية إلى الناس كافة .. مرجعية " المجد " الذى صاحب الإسلام - هى إلى دوحة النـور والهداية التى أقامها وقدمها للإنسانية ، ووضع مفتاحها أمام أيدى الناس للولوج إلى عالم جديد كل الجدة مختلف كل الاختلاف عن العالم المعتم الذى كان سائدا وقت نزول الإسلام .

العالم الجديد الذى وضع الإسلام مفتاحه أمام الناس ، هو عالم عماده الهداية والتوحيد والإسماح ومفتاحه الإصرار على الوفاء والإصرار على الأمان من جانب المسلم .. الوفاء بالوعد الذى يعده المسلم لغير المسلم والإصرار على الأمان الذى يجير به المسلم غير المسلم ويبقى وفيا به ملتزما بمقتضياته إلى أن يبلغ غير المسلم مأمنه .. ظل المسلمون على ذلك وصاحبهم الوفاء والأمان فى مراحل تكوين إمبراطوريتهم وازدهار حضارتهم ـ هذه الحضارة التى أقامت بمنظومتها الرفيعة مجدا حقيقيا للإنسانية ، وبقى المسلمون على ذلك إلى أن دخلوا مع الناس فيما اصطلح عليه الناس ـ وما زالوا فيه بآلامهم وآمالهم إلى اليوم !

قد كان يمكن للحراك الذى نشهده الآن وقبل الآن ، أن يمسك بالحبل الصحيح وهو تسلم ذلك " المفتاح " البسيط الملئ بالثقة والود والإسماح والأمان . بيد أن هذا الخيط يطمسه أو تحاصره الحملات الضارية على الإسلام والمسلمين ، ولواعج الشعور بالهوان الدنيوى والتطلع إلى

استعادة العزة والمنزلة والمكانة والسؤدد والثروة ، وهذه اللواعج ومضاعفاتها وما يقترن بها ويصاحبها من تغول أقوياء اليوم وجموح شطحاتهم وتهجمهم الوحشى المغلوط - يصرف بعض المسلمين عن الجوهر الحقيقى لهذا " المفتاح " الذى كان بشارة العالم الجديد الذى هز به الإسلام أركان العالم الذى كان سائدا وقت نزوله !

الهجوم المتوحش الذى يتعرض له الإسلام والمسلمون!

فالمسلمون يتعرضون هذه الأيام لهجوم متوحش جهول ، ويلاقون معه عداوةً وكراهيةً وعدوانا وافتئاتاً .. يستقبلون كل صباح ، وعلى شاشات الإنترنت ، سيولاً لا تنقطع من السباب واللعنات والبذاءات والافتراءات والتطاول حتى على رسول الإسلام .. تتعانق حملات الكراهية مع هجمات الجيوش وقصف المدافع والصواريخ والطائرات وحملات الغزو التى بدأت بأفغانستان ، وثنت بالعراق ، ويترقب العالم والمسلمون إلى أين تتجه الغزوة الثالثة !! .. طبيعى أن

تستدعى هذه اللواعج ما كان للإسلام والمسلمين من " أمجاد " ، وأن تستنفر - برد الفعل - تحفزاً لدرء ما يراد للمسلمين وبهم فى هذا الزمن الأسود !! .. وأن يولد هذا كله - مع الإحساس العميق بالظلم - التفاتاً أكثر وأكثر إلى الأخطار المحدقة بهم وما تستدعيه من صفحات " المجد " الذى كان !

روح وعمود الإسلام

هداية الإسلام هى التى حققت ما كان من أمجاد .. عمود الإسلام ، الذى غير واقع الدنيا ، هو اتجاه العبد إلى خالقه بكلياته وجزئياته بإخلاص تام وأمانة كاملة مع الشعور بفيض الرحمة والود الذى يثيره حتما ذلك الاتجاه .. فكل اتجاه جاد يشعر الآدمى بجده نحو خالقه - هو اتجاه مقبول عند المسلم يصاحبه - لكى يصبح مسلما - الإيمان بالعقائد والإعتراف بالشعائر المقررة على كل مسلم ، ومن هنا توطدت أسس العلاقات السلمية فى القرآن بين

المسلمين وبين غير المسلمين وأهل الكتاب .. لم تغمض عيون الإسلام قط عن أن الناس خلقوا مختلفين ، وأن هذا الاختلاف يجرى بين الأفراد فى عقولهم وقدراتهم وملكاتهم وفهمهم وعقائدهم ومذاهبهم .. فى القرآن المجيد بيان لهذه السنة الكونية : " وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ " (هود ١١٨) .. روح وعمود الإسلام التفاته المحمود إلى هذا " الاختلاف " وموافاته بما يقتضيه من محافظة على العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين .. أباح الإسلام للمسلم طعام أهل الكتاب وأن يتزوج منهم وأن تبقى الزوجة على دينها وهو على دينه ، مثلها فى كل شىء مثل الزوجة المسلمة سواء بسواء .. فى القرآن الحكيم : " الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ" . (المائدة/٥)

أمان الإسلام

الأمان المعطى في الإسلام ، مقرون بالوفاء . الوفاء بالوعد والعهد وبالمواثيق ، مبدأ عام أوصى به القرآن المجيد فقال : " وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً " (الإسراء ٣٤) .. وجعله من صفات المؤمنين ، فقال عنهم : " وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا " (البقرة/١٧٧) ..

حق العهد والوفاء به مقدم في الإسلام على كل ما سواه .. حتى على حق الدين .. في القرآن المجيد : " وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ " (الأنفال / ٧٢) .. بذلك قدم القرآن بصريح وامر لفظه ، احترام ورعاية العهد والوعد والميثاق - على نصرة من يستنصر المسلمين في الدين .. وفي حديث رسول القرآن : " إن حسن العهد من الإيمان" .

دل الإسلام على أن الوفاء بالوعد هو خلق الأنبياء والرسل الصالحين : " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا " (مريم ٥٤).. ووعد الموفين بالعهد بأنهم " الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (المؤمنون ١١) ..

لا يقبل الإسلام تحت أى ذريعة - نقض العهود والمواثيق .. وفى حديث رسول القرآن : " من كان بينه وبين قوم عهد ، فلا يحلنّ عهداً ، ولا يشدنه ، حتى يمضى أمده أو ينبذ إليهم على سواء . "..

تقدم الإسلام وعاش ، بوفائه ووفاء رسوله ووفاء المسلمين بالعهد .. وكان هذا الوفاء والإصرار عليه وعلى أمان الجوار للمسلم - هو الأداة الرئيسية لنشر وانتشار دعوة الإسلام ..

أمان الجوار للمسلم ، لا يخرج منه أحد .. يعطى ويبذل للمسلم والكتابى ولغير الكتابى ، وللعربى ولغير

العربى ، الطريق الفسيح لأولئك أو غيرهم لاعتناق الإسلام والحرص عليه ـ هو الثقة التامة في كلمة المسلم ووعده وعهده ، وفى جيرة وجوار مصحوبين بأمان يمنحه المسلم لإنسان يخاف حتى يبلغ مأمنه .. لا يستثنى المسلم أحداً ولا المشركين من هذا الأمان .. ففى القرآن المجيد : " وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ " (التوبة /٦) .

أى آدمى يدخل إلى هذا العالم ، مصحوبا بهذا الوفاء والأمان ، يدخل إلى عالم جديد مختلف عما يتركه وراءه فى العالم الآخر المشوب من قديم بالخديعة والغدر والخسة والخيانة والمراوغات التى يتداولها الخلق فى دنيا الناس !

لماذا تقدم الإسلام ؟

لم يتقدم الإسلام لأنه قوض إمبراطوريات ، أو هدم

أنظمة، أو بعثر جيوشا .. انفتاح الإسلام على الدنيا إنما كان يرمى إلى إزالة الصد عن سبيل الله ، وبث هداية الله إلى الإنسان حيث كان .. لم يكن هدفه إلى تقويض أو هدم لذاته، ولا إلى علو أو تجبر فى الأرض ، وإنما كان منصرفاً إلى إقامة " عالم جديد " كل الجدة ، قوامه النور والتوحيد والهداية ، وأساسه الصلاح والأمان والإخاء .

يدلنا التاريخ القديم والحديث ، على فشل واخفاق الثورات التى هدمت ودمرت القديم ، دون أن تنشئ كيانا جديدا وشيئا باقيا .. الناس فى شعوب الأرض على عاداتها وأحوالها ومصدقاتها وأعرافها مالم تتقدم قوة باعثة تتبنى وتنهض على رؤية جديدة تصلح ما اعوج أو انحرف أو ضل من أحوال الناس ، وهذا هو مافعله الإسلام فيما امتد إليه من أقطار .

تقدم الإسلام والمسلمون ، وأقاموا الإمبراطورية العظمى، والحضارة الرفيعة ، لأن عيون الدعوة كانت

ملتفتة من واقع الدين نفسه ومبادئه ومثله وأحكامه - إلى البناء وإقامة ما ينفع الناس من هداية ونظام وصلاح هو رسالة الإسلام ذاته إلى الدنيا . لم تكن الرسالة تقويض امبراطورية الفرس أو الرومان ، أو اجتياح بلدان ، وإنما هى رسالة نور وهداية .. تتغيا تغيير الواقع الكئيب إلى " خفقات " جديدة تشد الحياة والأحياء إلى الأمام بقيم باقية تختلف عما كان فيه الناس !

الهداية والإصلاح والتغيير ، هى عمود وروح الإسلام ، وهى مع وفائه وأمانه ، التى أتاحت هذا النماء الذى إليه الحضارة الغابرة .. الانحصار فى التغنى بالفتح أو التقويض ! هو التفات ضرير عن القيمة الحقيقية لعوامل الهداية والإصلاح والتواصل والبناء الذى عمرت به الحياة الجديدة فى أقطار الإسلام !

روح وعمود الإسلام هو فى هذا الجوهر الذى عَمَّر به الإسلام حياة الدنيا ووصل به حيوات الناس .. قيمة

الإسلام فى " هدايته " وما قدمه إلى الدنيا لتستقبل به عالما جديدا كل الجدة ، قوامه الهدى والنور والإيمان والإحساس بالأمان .. لا يحصر الإسلام نفسه فى محض ما أنجزه المسلمون وحققوه من " أمجاد " .. مجد الإسلام الحقيقى هو تلك الروح التى استطاع بها أن ينقل الدنيا من عهد مظلم إلى نور جديد .. قيمة التراث هى فى قدرته على بعث عقول ونفوس جديدة مزودة بهذه الروح التى بها خطا المسلمون خطوات سبقوا بها زمانهم وعالمهم إلى مزيد حققوه من الوفاء والأمان، ومن السلام والعطاء ، ومن الاستنارة والمعرفة والعلم .. لم يكن المسلمون الماضون قادرين على تحقيق ما حققوه ، وانجاز ما أنجزوه لولا هذه الروح أو هذا العمود أو ذلك المفتاح الذى أعطى به الإسلام الأمان والسلام وغير وجه الحياة .

تاريخ المسلمين أو دول المسلمين ليس هو الإسلام فى كل الأحوال .. لم يكن الإسلام هو بعض الحكام الذين

حادوا أو تجبروا أو طغوا أو استعلوا أو طلبوا الصيت والهيلمان أو ركبوا على رقاب الناس ، مثلما لم يكن فيمن شردوا وابتعدوا فى شرودهم عن الدين نفسه ، وتكلموا بلسانهم لا بلسان الدين ، وتصرفوا برؤيتهم لا برؤية ومبادئ وقيم وأحكام الدين .. ابتعاد الغلاة أو المتطرفين كثيرا أو قليلا عن الدين - لا ينال من الدين ، فهو باق على حاله .. ذلك الدين الذى قال عنه رسول القرآن : "إن هذا الدين متين ، ولن يشاد الدين أحد إلاّ غلبه ، فأوغلوا فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهراً أبقى " .. هذا الدين المتين بقى على الدوام فى قلوب عامة المسلمين .. فى حنايا البسطاء الرحماء الذين لم تصرفهم غوايات الدنيا عن جوهر رسالة السماء التى آمنوا بها واعتنقوها والتزموا حدودها فى صمت وتواضع وسكون ووقار دون أن يطلبوا السمعة أو يسعوا إلى مجد زائف .. الإسلام عائش ولا يزال فى قلوب هؤلاء الملايين الذى ملئوا المعمورة شمالاً وجنوباً ، وشرقا وغربا .. يلتزمون حدود العالم الجديد

المجيد ، بقيمه ومبادئه وأخلاقه ، الذي رسمه الإسلام وبثه وقدمه إلى الدنيا !

مقومات المجد الحقيقي ، كانت في روح الإسلام ومفتاحه الجديد العامر بالقيم والأخلاق والتسامح والوفاء الذي قدمه الدين للناس وهداهم إليه .. في ذلك الأمان الوارف الجاذب الذي قدمه الإسلام والمسلمون لأبناء الأديان والملل والنحل الأخرى وأحاطهم به ، في ذلك التعايش الذى تعايش به الإسلام بمنظومته الرفيعة الخلابة مع كل الأديان والحضارات !

إن الأديان تقاس بما تبعثه من هداية ، وبما تصحح وتوقظ به الضمير ، وبما تسكبه في نفوس الإنسان من قيم ،، إن المسلم الحامل للشمائل الإسلامية ، هو رسالة الإسلام إلى الدنيا في كل مكان وعلى امتداد الزمان .. هو ذلك الذى يفهم ويدرك أن الإسلام تقدم ، لأنه دين جاذب جامع .. يحبب ولا ينفر ، وأنه يخرج الإسلام الحنيف عن رسالته الكبرى - من يعبث أو يشوه هذا الوجه البهي الجميل البديع المعطر

لهذا الدين .. يعرف المسلم السوى الفاهم العاقل المخلص أنه مؤتمن بأخلاقه ومناقبه وخصاله وشمائله وسجاياه - التي زرعها وبثها الإسلام فيه ، على هذه الصورة الندية الفواحة التى شدت الأرواح والأفئدة وعاش بها هذا الدين فى ضمير العالمين .

الأديان، والغير..
من الذى يعادى السامية؟!

مهما كان نصيب الدين ، أى دين ، من الانفتاح أو الانغلاق ، من الانتشار أو الانكماش ، من العالمية أو المحدودية - فإنه لا يستطيع أن يفترض أن الإيمان به واعتناقه قد عَمَّ أطراف المعمورة وآمن به الناس طُرّاً فلم يشذ عن اعتناقه والتصديق به أحد .. فذلك محال ، يأباه المنطق وأحوال الإنسان ، ويدحضه الواقع الذى يشهد عليه حال العالم وتفرق الناس فيه على أديان مختلفة ، سواء الأديان السماوية والكتابية ، أو غير ذلك من الديانات التى تعود مرجعيتها - بغض النظر عن تصديق أهلها - إلى حكماء أو فلاسفة أو مصدقات أو أساطير حلت بقدر أو بآخر فى نفوس من الناس اقتنعت بها وصدقتها ومنهم من يتعصب تعصباً شديداً فى الإيمان بها !!

هذه الحقيقة الواضحة ، فرضت وتفرض على الدين - كل دين - أن يفرد في منظومته أسسا وقواعد وأسلوبا للتعامل مع "الأغيار" الذين لا يدينون به .. فهو لا يستطيع أن يغفل أو يتغافل عن وجود "الغير" الذى لا يعتنقه ولا يؤمن به ، وهو لا يستطيع - مهما قوى الدين وذاع وانتشر أمره - أن يعطى لهؤلاء "الأغيار" "ظهره - فذلك محاصرة وخنق للدين نفسه ، وتعقيم لقدرته بل صلاحيته للانتشار ، وتعطيل لقوة وحركة وتفاعل معتنقيه المؤمنين به مع الحياة بمن فيها من الأحياء والذين يسهمون بقدر أو بآخر فى صناعة الحياة وحركة الحضارات وصفحات الإنسانية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها .. على أن موقف الدين - أى دين - من "الغير" ، له بالضرورة خصوصية قد تقترب أو تختلف عما تراه أو تتخذه باقى الأديان ، وهذه الخصوصية واقع محتوم يستمد حتميته من فلسفة الدين نفسه ، وقيمه ومبادئه وأحكامه .. وهذا كله قد تختلف - بل تختلف فيه وبالنسبة له رؤى ومواقف

الأديان ، اختلافا يدعو العقلاء إلى التأمل والمراجعة حتى لا تتحول حوارات الأديان إلى صراعات، وحتى لا تتغول اعتبارات المصالح التى تحكم أبناء الأديان فتؤدى إلى فتح أبواب قد لاتنغلق للتصادم الضار والمدمر بين الأديان !!!

المصادر !

تدلنا الدراسات ، واستقراء التواريخ ، وتأمل الأحداث غابرها وحاضرها ، واستنطاق أسبابها المحركة لها ، أن مواقف الأديان من الأغيار ، لم تستمد مادتها فى كل الأحوال من " الدين " نفسه كما أنزله الله ، وإنما اتسعت مصادر ما استمدته لتغترف قدراً كبيراً أو قليلاً من المصالح التى تتشكل حول الأديان حين تتحول إلى جماعات ثم حضارات ، وما تفرزه هذه وتلك ـ مع الموروثات ـ من ملصقات تتراكم مع الأيام حتى لتكاد تختلط بالدين نفسه . على أنه إن أمكن للباحثين والمتأملين فرز وتجنيب الملصقات عن أصول الأديان ، إلاّ أن ذلك قد لا ينجح ـ أو لا ينجح تماماً ـ

فى تغيير أو تعديل أو ترشيد الصورة التى تنطبع فى ذهن العامة عن موقف دينهم من الغير ، لأن هؤلاء تجرفهم العادة والنظرة المتعجلة غير المتأملة ، فيحسبون كل ما يصادفهم فى مدونات الأديان - من الدين ، فيخلطون باللاوعى بين الأصيل والدخيل ، وتنطبع الرؤية المدخولة الملبوسة فى صفحة وجدانهم حتى لتتحول إلى عقيدة لا تزحزح عنها !!

أصعب ما تواجهه الأديان !

أصعب ما تواجهه الديانات بعامة ، يحدث حين تتسع " المساحة " أو " الخرق " أو " الفلق " بين الدين بذاته وموضوعه وروحه ، وبين فهم أتباعه - أو بعض أتباعه - له .. هذا " الإبتعاد " عن الدين يجرى وفى فهم " الباعدين " أو " المُبْعدين " أو " الشاردين " أنهم الأكبر فهماً والأكثر صدقاً وإخلاصاً واتباعاً . وبغض النظر عن " الخصوصية " اليهودية فى موقفها من الغير أو الآخر ، فإن الأديان فى

نبعها الصافى البرىء من الملصقات والإضافات والموروثات والمصالح ـ تتخذ بقدر أو بآخر ، موقفاً إنسانياً إيجابياً سمحاً من الأغيار ، يتفق مع مرجعيتها الأخلاقية من ناحية ، ويليق بها من ناحية أخرى كديانة تسعى لصلاح الحياة وشد الناس إلى الرب جل وعلا وربطهم بالمثل الأعلى .

الديانات السماوية جميعاً كلمة الله !

لا تحمل الأديان السماوية فى بنيتها الأصلية أسباباً للصراع ، فلا توجد فى الواقع أسباب للصراع بين عقائد الديانات السماوية لأنها جميعا كلمة الله ، فلا تناقض بينها ، ولأن العقائد بذاتها مسألة قلبية وجدانية مختصة بالمعتقد دون سواه ، تتعلق به فلا يقلقلها أو يزعزعها اعتقاد سواه ، ولا هى بذاتها تصارع أو تقاتل معتقدات الآخرين .. ولذلك فإن ما طرأ على " العقائد " دخيلاً ـ فى بعض الأديان ـ على كلمة السماء ـ لم يكن بذاته سببا لتصادم أو صراع أو تقاتل ، فلا تصادمت المسيحية والإسلام فى شأن عقيدة

التوحيد على ما بينهما من اختلاف يجتهد كل طرف فى إبانة صدق رؤيته فيه دون صراع أو تصادم أو قتال ، ولا حدث صراع أو اقتتال بين المسيحية والإسلام من ناحية ، وبين اليهودية من ناحية أخرى ، رغم اتفاق المسيحية والإسلام على أن اليهود عادوا السيد المسيح عليه السلام وتعقبوه بالكيد والنكال والتآمر، ورغم اتفاق الأناجيل المسيحية مع القرآن على مسئولية اليهود عن " الصلب " وإن اختلفتا في " شخص " المصلوب .. هل هو السيد المسيح بذاته وشخصه كما يؤمن المسيحيون ، أم أنه عليه السلام قد رفع إلى ربه وشبه الأمر على الصالبين فظنوا أنهم يصلبونه بينما صلبوا سواه !! .. فلا تصارعت المسيحية وتقاتلت مع الإسلام فى جزئية شخص المصلوب ، ولا تصارعت وتقاتلت المسيحية والإسلام مع اليهود الذين أجمعت الديانتان على أنهم المسئولون عن هذه المأساة !

من الذي يعادي السامية ؟!!!

أكثر الاتهامات اليهودية ذيوعاً وانتشارا وظلما أيضا ، اتهام الآخرين بمعاداة السامية ، وهو اتهام يصادر على البحث والنظر والتحليل لسبر الأغوار واستخلاص الأسباب ، في الماضى والحاضر ، لعل ذلك يسهم فى تخليص الإنسانية من ويلات جرت وأخرى أبأس وأشر تنتظر وعلى وشك أن تنفجر !! .. من الاتهامات اليهودية التى أشهرت أخيرا تحت هذا العنوان ، مشروع صهيونى مشبوه مقدم للكونجرس الأمريكى فى ميقات مشبوه من يهودى أمريكى صهيونى الهوى - دفع به إلى الكونجرس قبل الزيارة المرتقبة للرئيس المصرى إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، يتهم فيه مصر بمعاداة السامية ، ويطلب صاحب المشروع : أنتونى وينر - تخفيض المساعدات لمصر عقاباً لها على هذا العداء (المزعوم) للسامية ، لأنها - فيما تدعى بنود المشروع الصهيونى - تساعد الانتفاضة الفلسطينية ، وظلت عضوا - تصوروا ؟!! - فى الجامعة العربية التى تقاطع إسرائيل ،

كما أنها سحبت سفيرها من إسرائيل فى نوفمبر ٢٠٠٠ ، ويداهة تجاهل المشروع : لماذا تم هذا السحب ، فضلاً عن أن الصحف والإذاعة المصرية تبثان مقالات أو برامج تعتمد على بروتوكولات حكماء صهيون التى تعادى السامية - فيما يقول السيناتور الصهيونى الذى نفذ إلى الكونجرس والعمل السياسى عبر الممر السحرى للوبى الصهيونى فى أمريكا !!!

هذا الاتهام المغلوط اتهام متكرر ، أشهرته الصهيونية سلفاً ضد المفكر الفرنسى المسلم روجيه جارودى ، وعادت فأشهرته ضد الأستاذ ابراهيم نافع رئيس تحرير ومجلس إدارة الأهرام - ويتعمد الاتهام المغلوط ، والمشهر للإرهاب ولفت الأنظار عن مخططات وجرائم الصهيونية ، أن ينسب الأمر إلى الإسلام ، متهماً إياه والمسلمين بأنهم يعادون السامية

وليس أكثر بطلاناً وظلماً وابتعاداً عن الواقع والحقيقة ، - من اتهام الإسلام والمسلمين ، ومصر والعرب

بعامة ، بمعاداة السامية ، ولا يرجع بطلان هذا الاتهام فقط إلى كون العرب ـ بمنطق السلالات ـ من سلالة سام بن نوح الذى ينسب اليهود أنفسهم إليه ، مدعين الطهارة العرقية والعرق اليهودى الممتد لآلاف السنين رغم الاختلافات الجنسية واللونية الظاهرة بين يهود بيض ويهود سود وبضعة يهود صُفْر ، إلى جانب الكثير من الظلال اللونية على ما أورده الدكتور المسيرى فى موسوعته الرائعة ، فيحصى من بحوث الأنثروبولوجيا التى كان قد بدأها جمال حمدان من أربعين عاماً فى كتابه اليهود أنثروبولوجيا ، الجماعات اليهودية الأساسية الثلاث باختلافاتها : الاشكناز ، والسفارد ، ويهود العالم الإسلامى ، ويتتبع الجماعات اليهودية المنقرضة أو الهامشية : اليهود المتخفون ، والأنوسيم أو المُكرهون ، والبرتغاليون من " المارانو "الذين خرجوا من شبة جزيرة أيبريا ، والمتخفون فى إيران ، والتشويتاس ـ من كلمة تشويا بلهجة مايوركا الأسبانية ، ويهود الهند ، والمجموعة التى كانت تقطن منهم أساساً فى

منطقة كونكان ، ويهود الكوشين - إحدى المدن الهندية ، والمانيبور بالهند ، والقوقاز ، وجورجيا ، والبغدادية ، ويهود بخارى وجبال التات وداغستان السوفيتية ، والخرز المنحدرون من أصول تركية فى منخفض الفولجا بجنوب روسيا ، والكرمشاكى بشبة جزيرة القرم ، والأكراد ، ويهود الكايفنج بالصين ، واليهود الزنوج الذين يضمون الفلاشاه الأحباش والعبرانيين السود .. وهو ما يستحيل معه أن ينسب هؤلاء جميعاً إلى سلالة واحدة ترتفع إلى سام بن نوح !!

حكاية العرق الواحد ، وطهارة الجنس ، مع باقى التداعيات المستخلصة منه - قد تصلح بل تصلح لبحث آخر يفسر موقف اليهود أو الصهيونية من الأغيار ، وموقف الأغيار منهم ، وهو مبحث يجب العودة إليه - على أن المعنى هنا ، فى خصوصية إشهار الاتهام المغلوط بمعاداة السامية - أن مصر والعرب والمسلمين آخر من يوجه إليهم هذا الاتهام ، ليس فقط لأنهم ساميون بمنطق السلالات والأعراق ، وإنما لأن الإسلام - الدين الغالب بالمنطقة

العربية ومصر - يرفض منطق الأعراق والأجناس رفضاً كاملاً ، فلا ينتصر لجنس من الأجناس ولا يعادى عِرقاً من الأعراق .

فى الإسلام ، الإنسانية أسرة واحدة
مصير الآدمي معلق بعمله لا بعرقه !

خلافاً للأديان السابقة التى نزلت لقوم نوح أو هود أو صالح أو شعيب أو موسى أو هارون ، نزل الإسلام إلى العالمين ، وإلى الناس كافة ، ولفت نظر الإنسانية إلى أنها أسرة واحدة ترجع إلى أصل واحد ، وإلى خلقة واحدة .. فى القرآن المجيد : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء" (النساء /١) .. "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا" (الأعراف ١٨٩) "وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ" (الأنعام/٩٨).. لا فرق فى الإسلام بين جنس وجنس، ولا بين عِرق وعِرق، ولا بين شعب وشعب، وإنما

رفض الإسلام ونهى عن كل أنواع العصبية العرقية ، ودعا إلى أخوة إنسانية فقال تعالى فى قرآنه المجيد : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " (الحجرات/١٣) .

من أروع ما فى الإسلام انطلاقاً من هذا المبدأ الأساسى ، أن المسئولية شخصية .. مصير الإنسان معلق بعمله وفعله وسلوكه ، لا بفعل سواه .. فى القرآن الحكيم : " وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُوراً" (الإسراء 13/) .. "كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ " (الطور21/) .. وفيه أيضاً : " ولا تزر وازرة وزر أخرى " (الأنعام ١٦٤ ، فاطر ١٨) .. "أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى × وَأَن لَّيْسَ لِلإنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى " (النجم ٣٨ ، ٣٩) .. "فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ *وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ " (الزلزلة ٧ ، ٨) .. الإنسان لا يُسأل فى شريعة الإسلام إلاّ عن فعله .. فلا تحل التبعة على أحد ،

إلاّ على ما ارتكب وقارف وفعل .. لا يعادى الإسلام جنساً ولا عِرقاً ولا يُجافى لوناً ولا سلالة ، ثم هو لا يأخذ أحداً بوزر آخر ، ولا يُدين ابناً أو حفيداً بجرائر آبائه وأجداده ، ولا يجد أحداً بحاجة إلى " خلاص " مما قارفه الأسلاف ، وإنما يعتنق الإسلام أن مسئولية الآدمى مُعلقة بفعله ، فلا تزر وازرة وزر أخرى ، ولا يرث الأحفاد جرائم الأجداد .. فكل إنسان طائره فى عنقه ، مسئول عما يفعل لا عما فعل أو يفعله سواه !

ليس صحيحاً إذن أن القرآن أساء أو يُسئ لليهودية كدين ، ولم يتحدث عن موسى الكليم إلاّ بكل توقير وإجلال .. "وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ " (البقرة / ١٥٣) .. "وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا" (النساء / ١٥٣) .. " وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا " (النساء / ١٦٤) .. " قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ" (الأنعام /٩١) .. " ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ

يُؤْمِنُونَ" (الأنعام ١٥٤)، .. "قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي " (الأعراف /١٤٤) .. " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولا نَّبِيًّا" (مريم/٥١) "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ " (الأنبياء/٤٨).

ما ورد فى القرآن الحكيم من نقد ، كان نقداً للمتلقين المعينين المعنيين الذين عصوا فى زمانهم موسى والأنبياء من بعده .. الإسلام يعادى أفعالاً أيا كان زمانها ، فى الزمن الحاضر أم فى الزمن الغابر .. وهو حين يُعادى الأفعال والجرائر وسيئات الأعمال ، لا ينظر إلى جنس أو لون من قارفها ، وإنما ينظر إلى الجريرة " ذاتها " فيدينها ويدين من قارفها " بذاته " و " شخصه " أياً كان عرقه أو جنسه أو لونه ، ولا يسحب خطأ الشخص على جنسه أو سلالته .. حتى الذين صلبوا المسيح : جريرتهم معلقة بأعناق من قارفها فى زمانه .. الإسلام احترم اليهودية ووقر موسى كليم الله ، ولكنه انتقد أفاعيل بنى إسرائيل فى زمانهم معه

ومـع أنبـيـائـهم ، انتقـاداً لا يمتـد ـ بمبـادئ الإســلام ذاته ـ إلى سلالاتهم أو أحفادهم .. وإنما تتجدد الانتقادات لليهود والصهيونية ـ اليوم ـ تبعاً لجرائرهم وجرائمهم فى الزمن الحاضر، لا تبعاً للجاجاتهم سلفاً مع أنبيائهم فى الزمن الغابر.. تتجدد الانتقادات لما يجرى منهم اليوم، بأشخاص اليوم ، وكيانات اليوم ، من مذابح وإبادة وتدمير وظلم وتجبر وإفساد فى الأرض وشن للحروب وتقتيل للأبرياء وبث للمظالم وتفريغ وطن من شعبه وافتئات شنيع على الإنسان والإنسانية !! ..

لا أحد فى مصر ، ولا من العرب ، ولا من المسلمين ـ بل ولا من غيرهم ـ يعادى "السامية " أو يعادى سلالة ـ أو يعادى ديانة ، فذلك اتهام باطل أعور .. الرفض والمقاومة هما لأعمال وأفعال وجرائر وجرائم ، لا لديانات ولا لأجناس ولا لسلالات ولا لألوان !! .. إدانة ومقاومة ما يجرى اليوم ، وهى مشروعة بكل الأعراف والمبادئ الوضعية والسماوية ، تنطلق من رفض جرائر اليوم الجارية

على قدم وساق .. هى لا تنبع من إدانة أفعال الغابرين ، وإنما ضيقاً ورفضاً لأفاعيل الحاضرين ٠

الذين يعادون السامية !

واقع الحال أن الصهيونية اليوم ، ويهود اليوم - هم الذين يعادون السامية ، يرسمون لأنفسهم بسياساتهم وممارساتهم أبشع صورة ، ويجلبون عليهم سخط الدنيا والعداء لما يفعلون .. حين يتمسكون بالمنطق العرقى ، والطهارة العرقية ، والتفوق العرقى ، وينطلقون من ذلك كله فى سياسات القمع والتدمير والإبادة !!

ماذا يمكن أن تجنى هذه السياسات الجانحة المرتكبة كل يوم ضد الإنسانية .. وهل تتوقع الصهيونية أن تكون هذه الصفحات الدامية " قصائد " فى حب "السامية " - أم أن للمسألة مردوداً يرجع إلى الموقف من الأغيار ؟!! .. هذا هو موضوع حديثنا فى الأسبوع القادم إن شاء الله ٠

* * *

ليس صحيحاً إذن أن العرب أوالمسلمين ، يعادون السامية ، أويعادون الديانة اليهودية التى أنزلها الله على موسى الكليم الذى يوقره القرآن المجيد ويجعل الإيمان برسالته وباقى الأنبياء والرسل السابقين على النبوّة المحمدية ـ جزءاً أساسيا لا يتجزأ من الإيمان بالإسلام خاتم الرسالات ـ (البقرة ١٣٦ ، آل عمران ٨٤ (.. الإسلام يعادى الأفعال الضالة الظالمة ، ولا يعادى أعراقاً ولا سلالات ولا يأخذ الأبناء أو الأحفاد بجرائر الآباء والأجداد !! .. بل إن ادعاء " السامية " ذاته ، الذى منه تنطلق " أكذوبة " معاداة السامية ـ ادعاء باطل يثبت بطلانه دراسات التاريخ والهجرات المتعاقبة والشتات البابلى ثم الهللينى ثم الرومانى ، وتفرق اليهود فى أشتات الأرض بأوروبا الشرقية والغربية ، وبالقارة الأمريكية ، وفى الهند والصين وأفغانستان وإيران ، وفى شبه جزيرة الأناضول ، وفى بخارى وسمرقند والخزر والقوقاز وجورجيا وجبال التات وداغستان السوفيتية ،

وفى العالم الإسلامى شرقه وغربه ، وفى بلاد الزنج والأحباش ، فضلاً عن الاختلافات الجنسية الواضحة بين الحمر والبيض والسود والصفر ، وبين الإشكناز والسفارد ويهود العالم الإسلامى - مما يهدم من الأساس حكاية الامتداد العرقى إلى سام بن نوح !

من الذي يعادي الآخر ؟!

موقف الأديان من " الغير " أو " الآخر "، مسألة مفتوحة على اتساعها هذه الأيام ، ولكنها مصابة فى تناولها ومعالجتها بحول ظاهر ، فتختص الإسلام - دون باقى الديانات ، بالبحث والفحص والتنقيب ، ثم هى لا تلتزم أمانة البحث ، ولا الموضوعية ، ولا الرؤية المنصفة ، فليس ذلك همها ولا غايتها ، وإنما التهجم الجهول على الإسلام ورسوله ، وبث حملات الكراهية والعداء ضد المسلمين !!

ويغض النظر - مؤقتاً - عن هذه الحملة الجهولة ، فليست هذه الكلمات للمرافعة عن الإسلام - فإن أسوأ ما هو

حاصل ، تلك الإشاحة المتعمدة الضريرة عن رصد وسبر الأسباب الحقيقية للعداوات وما تجره على البشرية من مآس وويلات !!!

الصراعات التى تشهدها الإنسانية ، ليست فى الواقع صراعات بين عقائد الديانات ، حتى وإن اختلفت أو حتى تناقضت أو تنافرت رؤاها ، وإنما وجد ويوجد الصراع بين المصالح والمآرب .. الأديان كما أنزلها الله - بريئة من الأسباب الحقيقية للعداوات والصراعات .. من المُحال أن تنسب النظرات العدائية أو الاستعلائية للغير إلى الأديان السماوية فى نبعها الصافى ، فهى بغض النظر عن الشرائع وتدرجها ، فإنها جميعاً منزلة من السماء ، والله عز شأنه هو الخالق البارئ المصور لكل المخلوقات وهو سبحانه وتعالى رب الجميع ، وخالق المسلم والمسيحى واليهودى - مثلما هو خالق المُلْحِد والمُشرك والشارد ، وهدايته سبحانه قد تدرك غداً من لم تدركه الهداية بأمس ، وأبواب سماواته مفتوحة لكل طارق أياً كان عِرْقه أو جنسه أو لونه ..

ومن المُحال أن ينسب إلى المثل الأعلى عز شأنه أن عين عدله تقبل أن يميزعِرقاً على عِرق أو جنساً على جنس ، أو أن يفرض الدونية على طائفة من الناس لا تفارقها ولا تخرج منها إلى يوم الدين . وإنما جاءت اختلافات مواقف الأديان من الأغيار تبعاً لما ينمو حول الدين من إضافات وملصقات ومصالح ورغائب ليست من الدين فتصنف مخلوقات الله إلى مراتب وطبقات ، تنسب لأبنائها وأتباعها كل مزية وفضل ، وتعرى الآخرين من كل قيمة وقد تنزل بهم إلى مستوى الحيوان بل إلى ما هو دونه !! هذا التصنيف من عمل المصالح والأهواء والملصقات والموروثات التى تتجمع حين ينمو حول الدين جماعة وحضارة تتخذ من دنيا الناس وقوانينها سبيلاً لبخس الغير والركوب على رقاب الآخرين !!!

بعض الخصوصيات اليهودية !

تطرح اليهودية من قديم ، ولا تزال تطرح ـ حزمة من الإشكاليات أو الخصوصيات التى لا نظير لها فى الديانات

أو أهل الديانات الأخرى .. من المهم أن تلقى إجابة شافية عنها تغوص إلى أغوارها وتستخلص أثرها فى الحوادث الماضية والجارية !

إشكالية الهوية اليهودية ، إشكالية يهودية صرف ، لا وجود ولا نظير لها فى أى ديانة أخرى !! .. اليهودية هى الديانة الوحيدة المنشغلة من قديم ـ ولاتزال ـ بتعريف من هو اليهودى ؟! وهو سؤال يثار بإلحاح داخل الكيان الصهيونى الرامى إلى الحلول ـ بالتفريغ ـ محل الشعب الفلسطينى بأرضه، ومن اللافت أن كافة الإجابات التى تساق تعتمد على نظر " عرقى " لا على صفات ومكتسبات دينية أو إيمانية .. يفترض مصطلح " الهوية اليهودية " أن هناك جوهراً يهوديا ثابتا يتصف به اليهودى ويتميز به عن باقى البشر أينما كان ! .. يتبنى العلماء التلموديون فى تعريف اليهودى أنه من يولد لأم يهودية أو تهود ، وتتبنى التعاريف الصهيونية بعامة ـ العنصر العرقى المتميز كأساس لتحديد الهوية اليهودية ، فيتحدثون عن " الجنس اليهودى "

باعتباره " جنسا متميزاً " ، وعن اليهودية " كمسألة تتعلق بالدم "، وينظرون لليهود على أنهم " أمة مقدسة " وكيان " منعزل " غريب ومقدس ، هذا الكيان بهذه الهوية اليهودية هو وحده صاحب الحق ـ دون سواه ـ فى التمتع بحزمة الحقوق القومية التى لا محل فيها للأغيار ولا تتحمل أية مسئولية تجاه الأغيار !

ما يسمى إشكالية الهوية اليهودية ، لا وجود له فى أى ديانة أخرى .. لا تعرف المسيحية ، ولا يعرف الإسلام ، وغير مثار فى أى منهما ـ إشكالية هوية مسيحية أو هوية إسلامية .. كل مسيحى هو مسيحى فحسب ، وكل مسلم هو مسلم وكفى .. لا شرط من جنس أو عرق أو نوع أو أصل لاكتساب هوية إسلامية أو هوية مسيحية .. سبب اعتبار الهوية اليهودية إشكالية ، نابع من طبيعة الديانة المغلقة من ناحية ، ويما يسمى النقاء العرقى لليهود من ناحية أخرى ـ .. ومحال مع هذه وتلك ألا يكون لليهودية موقف من " الأغيار " لا يسمح بقبول أو امتزاج !!

يتصل بخصوصية الهوية اليهودية ، الاعتقاد العميق بالتميز وبالعبقرية اليهودية ، وفضل العباقرة اليهود على الإنسانية، وأكثر التصاقا بهذه وتلك ما يسمى إشكالية العزلة اليهودية التى تنضح بها صفحات التاريخ فى شتى بقاع الأرض ، وسواء كان الانعزال رغبة يهودية نابعة من عقيدة التفوق والشعب المختار ، أم هو رد فعل إزاء ذلك من الأغيار ، فإن هذه الخصوصية : خصوصية العزلة ، لا نظير لها على الإطلاق لدى أهالى الديانات الأخرى ، وغير مثار فيها أى مصطلحات عن السلالة أو النقاء العرقى .. لا أحد فى الإسلام أو المسيحية يهتم أو يثير نقاء المسلم أو المسيحى العرقى أو الخالص .. ومن الملحوظ أن هذه " الخصوصية اليهودية " كامنة فى جميع الأدبيات الصهيونية ، وأيضا - برد الفعل - فى الأدبيات المعادية لليهود !

وكما تنفرد اليهودية بهذه الخصوصيات أو الإشكاليات ، تنفرد أيضا - دون باقى الديانات الكتابية

وغير الكتابية ـ بحكاية الوطن القومى لليهود .. لم يطالب أى من المسيحيين أو المسلمين وهم منتشرون بآلاف الملايين فى أرجاء المعمورة ، بوطن قومى للمسيحيين أو للمسلمين .. فلم يحدث فى أى مرحلة من التاريخ أن طالبت المسيحية بوطن قومى للمسيحيين فى بيت لحم أو الناصرة أو القدس ، ولو فعلوا ذلك لزاحموا الصهيونية فيما تريد بفلسطين ! ولم يحدث فى أى مرحلة من التاريخ أن طالب الإسلام بوطن قومى للمسلمين فى مكة أو المدينة أو شبه الجزيرة العربية التى انبعثت منها دعوة الإسلام ! .. اليهودية هى فقط التى تتبنى ما يسمى بوطن قومى لليهود ، فتمزج بين الدين والوطن ، مع أن الأوطان تتسع لجميع الديانات ، وذلك الذى تستهدفه اليهودية الصهيونية فضلا عن كونه محالا ، إنما يصدر عن هذه النظرة العرقية الاستعلائية .. التى تنعكس بالضرورة على الموقف من " الأغيار " .. هذا الموقف الذى تُعزى إليه الصفحات التى سجلها ويرويها

التاريخ لعجز اليهود عن الامتزاج بالغير وإيثارهم العزلة التى جرت سوء الفهم المتبادل وما نجم عن ذلك من ويلات !

الخصوصيات اليهودية ـ ماذا تعني ؟!

انفراد اليهودية بالاشكاليات أو الخصوصيات التى ألمحنا إلى بعضها ، يطرح بشدة مسألة موقف الأديان من الأغيار .. لا يثير موقف المسيحية أو الإسلام من الغير ، ما يثيره موقف اليهودية من خصوصية وإلتباس وتعقيدات .. يستطيع المراجع للأناجيل ورسالات الرسل والمواعظ فى العهد الجديد ، مثلما يستطيع المطالع للقرآن المجيد والسنة النبوية ـ أن يتعرف بغير مشقة ولا عناء على الموقف الإنسانى السمح للديانتين من الأغيار ، ويجد مئات الشواهد النصية والتطبيقية الدالة على هذا الموقف ، الذى فى إجماله يجافى العنصرية والتعصب ويرد الإنسانية إلى أسرة واحدة عمادها الإخاء والإفساح للآخر .. وهذا الجلاء الواضح فى موقف الديانتين السمح من الأغيار ، لا ينفيه ولا يدحضه

ما حدث أو جرى هنا أو هناك من مواقف رافضة للغير أو مفتئتة أو متعدية عليه ، لأن ذلك لم يكن من هذه الديانة أو تلك ، وإنما كان خروجاً عليها وصدى لتغولات أو نزعات قوامها الأهواء والمصالح وما يغرى النفوس الإنسانية من جنوح تخرج به عن واحة الأديان حتى وإن اعتقد الجانحون أنهم لا يزالون فى باحتها بل ويعبرون عنها !!!

استقصاء موقف الأديان من الأغيار ، لا يؤخذ من الممارسات ، وإنما من أصول الدين ، فالممارسات لا تعبر فى جميع الأحوال عن الدين ، فهى قد تطابق وقد تقترب أو تبتعد أو تجنح أو تحيد أو تشرد ـ قليلا أو كثيرا ـ عن الدين ، وتبقى البوصلة الحقيقية فى الدين ذاته .. ماذا يقول ؟! .. لذلك فليس يجوز فى استقصاء موقف اليهودية ـ أو أى دين ـ من الأغيار ، التوقف عند ممارسات أهله الغابرين أو الحاليين ـ إلاّ بقدر تعبيرها عن أصول الدين ، كما ليس يجوز أن يستقصى موقف الدين من آراء غيره من الأديان فيه . فالذى يشكل وجدان أهالى الديانات هو ما ورد بكتبهم

المقدسة التي صدقوها وآمنوا بها .. ليس يهم أن تكون فى نظر الآخرين قد حرفت عما تنزل أو لم تحرف ، أو تكون آيات من التنزيل أو جمعاً من الأساطير .. فما يحمله الكتاب المقدس لأهل دين ، هو الذى يشكل إيمانهم وصفحة وجدانهم ومعتقدهم الذى عنه يصدرون فى مواقفهم وسلوكهم !

النظرة العرقية ، والأغيار!!

ما يثيره موقف اليهودية من حيرة والتباس ، ولا نقصد السلالات أو الأعراق ، لا يستمد من الممارسات ماضيها وحاضرها .. ولا من آراء الأديان الأخرى فيها ، ولا مما ورد بمدونات تلك الأديان الأخرى عنها .. وإنما يأتى الالتباس ، من المدونات اليهودية ذاتها ، وعلى رأسها العهد القديم ، ومن الخصوصية اليهودية فى مسائل كثيرة ليس لها نظير فى المسيحية أو الإسلام أو غيرهما من الأديان !!

هذه الإشكاليات أو الخصوصيات اليهودية ، إنما تصدر في مجملها عن المنظور العرقى ومنطق السلالات والتميز والتفوق اليهودى لشعب الله المتميز المقدس المختار .. هذا المنظور العرقى هو أس البلاء ، لأنه يضيق دائرة الدين اليهودى والمتدينين ، ومن ثم ينحى العالم الواسع كله ويضعه فى دائرة الأغيار ، ثم يتعامل مع هذا العالم بهذا المفهوم والتفوق والتميز العرقى الذى له مرجعية فى أسفار العهد القديم وفى التلمود ، ففى سفر اللاويين ـ الإصحاح ٢٠ / ٢٤ ـ ٢٧ : "أنا الرب إلهكم الذى ميزكم من الشعوب . وتكونون لى قديسين لأنى قدوس أنا الرب . وميزتكم من الشعوب لتكونوا لى . " .. وفى سفر التثنية ـ الإصحاح ٧ / ٥ـ٦ : " لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك . إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض " !! ، ومنطق العرق والسلالة والتميز لا يعطى للغير ما يعطيه للهوية اليهودية من حقوق ، فلا يتمتع غير اليهودى ـ فى مجتمع اليهود ـ

بما يتمتع به اليهودى من حقوق ، ويباح بمقتضاه على غير اليهودى ما لا يباح مع اليهود .. تفرق دوائر التعامل بين اليهودى وغير اليهودى - فى شتى شئون الحياة .. من بيع وشراء ، وإنصاف أو ظلم ، استقامة أو غش ، إطعام أو إجاعة ، إقراض أو لا إقراض إلاّ بالربا ، قداسة أودونية .. هذه الدوائر وغيرها ، وحتى بالنسبة لحرمة أو قداسة الروح ، مردودة إلى منظور عرقى جعل اليهودية ديانة غير تبشيرية تنهض على العرق ولا تنهض بصفة أساسية على الاقتناع .. هذا المنظور العرقى مرفوض فى المسيحية وفى الإسلام .. فبرغم أن السيد المسيح وكما قال لم يجئ بدعوته إلاّ إلى " خراف بيت إسرائيل الضالة " ، إلاّ أنه بعد رفض ونكال اليهود اتسع بدعوته لتتجه إلى سواهم ، فصارت المسيحية ديانة تبشيرية مفتوحة . والإسلام أصلاً دين للعالمين ، ولا مجال فيه للعصبيات والأعراق ، لم يعز على المساواة أسرة رسول الإسلام ، ففى عمه أبى لهب نزلت سورة المسد : " تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ

* مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ × سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحْطَبِ × فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ . " ..

وفى قريش وسوء فعال كفارها نزلت سورة قريش ، ونزلت فى هؤلاء الكفار القرشيين سور قرآنية توعدتهم بالويل والعذاب لسوء أعمالهم . ونُهِي الرسول عن الاستغفار لمن مات منهم على كفره حتى إن كان عمه أبو طالب الذي كفله ورباه ! .. لا يجد الإسلام ولا المسلمون حرجا فى أن يتناولوا كافة صفحات الجاهلية لكبار الصحابة قبل إسلامهم - لأن النظر هو إلى الأعمال لا الأعراق ، شمل ذلك ذات أهل البيت .. لا يدخل فى آل البيت إلاّ من أسلم وتطهر بعمله " إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ . " (الأحزاب ٣٣) .. يقول رسول القرآن لأهله : " يا بنى هاشم لا يجيئنى الناس بالأعمال وتجيئونى بالأنساب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم " .. يدخل إلى واحة الإسلام كل من أسلم، أيا كان عرقه أو جنسه أو لونه ، ولم تشهد حضارة ديانة من الديانات ما شهدته حضارة الإسلام من بزوغ لنجم السود والعبيد !

النظر العرقي وما يجره هو أساس موقف اليهود واليهودية من " الغير " .. وهو الذى استوجد ويستوجد أسباب الصراع ويفرز عداوات هى التى سطرت على مدار التاريخ ما شجر من اختلافات وصراعات ومواجهات .. ومن الغريب اللافت أن اليهودية التى أفرزت هذا غير اليهودية التي يراها ويعتقدها المسلمون أخذا من قرآنهم المجيد الذى وإن انتقد كثيرا مواقف بنى إسرائيل واليهود من أنبيائهم وعنادهم معهم وإعناتهم إياهم ، إلا أن ذات القرآن يدرج اليهودية فى ديانات التوحيد ، ويحتفل بأنبيائها المرسلين ، ولا يستثني من إطراء أنبيائها أحدا ، فلا يذكرهم إلا فى موضع التكريم والتمجيد ، بل وعلى نقيض ما ورد فى بعض أسفار العهد القديم من تعييب لبعضهم بلغ أحيانا حد التجريح !! . تسرف أسفار العهد القديم على " داود " وعلى " سليمان " وعلى غيرهما !! بينما يطريهم القرآن ويدعو المسلمين إلى توقيرهم والإيمان بهم مثلما يدعو إلى الإيمان بكل الرسالات السابقة على الرسالة المحمدية ..

بل إن " العداوة " التى بثها اليهود وأثاروها ضد دعوة الإسلام ، وهجمات دعاة صهيون والصهيونية الواقعة فى العصر الحديث ، لم تمسح احترام المسلم للديانة اليهودية التى يعتقد ويؤمن أنها نزلت على موسى الكليم .. لا يخلط المسلم بين اليهودية كدين ، وبين الصهيونية كحراك عنصرى سياسى يقوم على الاستعلاء ووعد مغلوط ، ويتغيا التطهير العرقى والتدمير والإحلال !!

من إذن الذي يعادي الآخر ؟!!!

من حق اليهودية حين نناقشها ، أن نبنى على ما جاء بمدوناتها هى لا على ما جاء بمدونات سواها ، فماذا قال العهد القديم وقال التلمود اللذان يشكلان وجدان اليهود ؟!

* * *

التساؤل الذى انتهى إليه الحديث السابق : " ماذا قال العهد القديم وقال التلمود اللذان يشكلان وجدان اليهود ؟! " - تساؤل توجبه غربة اليهود مع - أو عن العالم ، ويفرضه حصاد الطواف ببعض الإشكاليات أو الخصوصيات اليهودية: إشكالية الهوية اليهودية ، وتبنيها منطق الأعراق والسلالات ، والنظر لليهود على أنهم شعب الله المميز المقدس المختار ، بما استولده مما يسمى نقاء العرق والسلالة ، وإشكالية العزلة أو الانعزال ، وحكاية الوطن القومى ، وما أدى ويؤدى إليه المنظور العرقى من وضع العالم كله فى دائرة " الأغيار " أمام العقيدة اليهودية ، ثم ما جرّت وتجرّ إليه عقيدة التميز والقداسة وأفكار العبقرية والتفوق - من انعكاسات فرقت بين اليهودى وغير اليهودى فى حزمة مايقرره المجتمع اليهودى من حقوق أو مايبيحه أو يحظره من معاملات .. هذه الإشكاليات - وغيرها التى وسمت علاقة اليهود بالعالم عبر التاريخ بخصوصية لافتة أدت إلى صفحات مأساوية - بات واجبا إستقصاء مرجعيتها

وأسبابها الحقيقية ، وهو استقصاء ـ هذا الضرورى الواجب ـ لن تطمسه أو تحجبه أو تواريه أو تدفنه الاتهامات المغلوطة المشهرة بمعاداة السامية . هذه الاتهامات لن تغلق أبواب النظر والبحث والتقصى والاستكشاف ، والتفتيش وسبر الجذور والأعماق .. لم تفلح هذه الاتهامات المشهرة فى وقف كتابة مادة وسيناريو وإنتاج وإخراج وتصوير فيلم " آلام المسيح " الذى أقام الدنيا ولم يقعدها عن حادثة الصلب ، وفى عقر الولايات المتحدة الأمريكية ، معقل النفوذ اليهودى ، ومركز الرعاية الخاصة لكل أحلام وأهداف ومرامى اليهودية الصهيونية والكيان الإسرائيلى الإحلالى الاستيطانى فى فلسطين ! هذا الفيلم نسف فى ساعتين ـ مدة عرضه ـ جهوداً دءوبة طويلة مضنية بذلت على مدار سنوات للطمس على مأساة الصلب ، ووصلت إلى حد توريط الفاتيكان فى إعطاء صك براءة لم يقتنع به أحد ، ولم يفلح بداهة فى اجتثاث ما حفلت به الأناجيل المسيحية عن المأساة والفاعلين ، مثلما أخفق فى انتزاع الحدث من صفحة

وجدان المسيحيين وغير المسيحيين ، مع أن مواجهة ما كان من ألفى عام - يَسِيرَة وفى المتناول إذا جرى التنبه إلى ما سنه الإسلام من مبادئ قوامها أن مسئولية الآدمى " شخصية " وطائره فى عنقه ، ومصيره معلق بفعله هو لا بفعل سواه ، وأن جرائر الأجداد لا يحملها ولا يرثها الأحفاد ، ولا يطالبون بالخلاص منها لأنها عالقة بالأجداد الذين فعلوا ، ولا تعلق - ولا يجوز أن تعلق - بنسلهم وبذرياتهم إلى أبد الآبدين . وإنما أوقع اليهود فى هذه المحاولات التى باءت وستبقى تبوء بالإخفاق - ذات النظر العرقى الذى يتشكى منه الأغيار ويتشكى منه العالم بأسره وإن أظهر البعض - لأغراض السياسة - غير ذلك ! .. هذا النظر العرقى هو الذى يشعر اليهود بأن المعاصرين منهم مسئولون عما فعله الأجداد الغابرون ، فيجتهدون اجتهاداً محكوماً عليه بالفشل لنفى وإنكار مسئولية هؤلاء الأجداد عن هذه المأساة . وهكذا نرى أن ذات الخصوصية العرقية هى هى " مصدر التهمة " و " مجلبة " البحث - فى الوقت

ذاته - عن سبيل للخلاص منها .. المعتنق العرقى هو الذى يستحضر " التهمة " ، ثم يسعى لصرفها .. وهنا تكمن قمة الدراما العجيبة !!! .

لم يجد المسلمون الذين انحدروا من نسل كفار ، قرشيين وغير قرشيين ، أسلموا قبل أن يفارقوا أم لم يسلموا .. لم يجدوا بأنفسهم حاجة ، لا اليوم ولا بالأمس ، للبحث عن مخرج أو خلاص أو نفى أو إنكار لما فعله أجدادهم من إيذاء وكيد وإساءة لنبى القرآن وحرب ظالمة جائرة عليه وعلى الإسلام والمسلمين - سبب ذلك أن الإسلام لا ينظر إلى الأعراق والسلالات ، ولا يورث الحاضرين آثام الغابرين ، فلا تزر وازرة وزر أخرى ، وكل امرئ بما كسب رهين ، وكل إنسان ألزمه الله تعالى طائره فى عنقه ، ولذلك انتقد القرآن أبا لهب عمّ نبى الإسلام وتوعده بسوء العذاب ، وانتقد قريشا وكفارها ، وكذلك فعلت مدونات الإسلام ، حتى فى تناول الصفحات السلبية التى كانت لكبار الصحابة قبل أن يسلموا .. ومن هنا نرى أن الإشكالية اليهودية المطروحة

فى شأن مأساة الصلب ، تردنا ـ شاء اليهود أم أبوا ـ إلى الإشكالية "العرقية " التى هى هى " مصدر الاتهام "الذى يستحضره اليهود بمنطقهم العرقى ، وتعلة الدفاع الذى يكابدون مكابدة هائلة لاصطناعه لرد تهمة لاحاجة بهم إلى ردها عن الحاضرين إذا ما استطاعوا التخلص من المفهوم العرقى وما يجره عليهم حقيقة من مصاعب وويلات !!! بيد أنه يبدو أن المعتنق العرقى غائر إلى أعماق الأعماق حتى النخاع فى النسيج اليهودى ، لاسبيل لاقتلاعه !!!

قراءة واجبة في الكتب اليهودية !

لا غناء إذن عن النظر والبحث والتفتيش عن منابع الخصوصيات اليهودية ومصادر موقفها من الأغيار .. واليهودية المعنية هنا ، هى اليهودية كما يؤمن بها اليهود ، وليست اليهودية ـ مثلاً ـ كما أوردها القرآن . اليهودية الواجب البحث فيها هى اليهودية المستمدة من الكتب اليهودية المقدسة كما هى فى عقيدة اليهود لا فى منظور

سواهم ، فغاية البحث والتفتيش هى الكشف عمّا أسهم فى تشكيل صفحة الوجدان اليهودى وأدى إلى هذه الخصوصيات أو الإشكاليات - لايشكل وجدان أهل أى دين إلاّ مقدسات دينهم حسب اعتقادهم ، فلا يشكل وجدان اليهود معارضات من عارضوا - ومنهم يهود ومسيحيون - نسبة التوراة (أسفار موسى) أو باقى أسفار العهد القديم إلى الله ، أو تساؤلهم عمّن كتبوا هذه الأسفار التى ظلت تكتب على مدار مايزيد على ألف عام !!ولايشكل وجدان اليهود معارضات القرآن ولا ما أورده من وقوع تحريفات بكتب اليهود للكلم عن مواضعه (البقرة / ٧٥، المائدة/١٣، النساء /٤٦) .. وإنما يتشكل وجدان اليهود بما يعتنقونه ويؤمنون به من واقع كتبهم المقدسة كما هى فى معتقدهم .. لا يقصد هذا الاستقصاء إلى مجادلة اليهود أو غيرهم فى دينهم ، ولا إلى منازعتهم فيه ، وإنما هو يغوص ويفتش عن منابع مواقف الأديان - ومنها اليهودية - من الأغيار !

كتب اليهـودية المقدسة ، التى يعتنقها اليهـود - ودعنا هنا من البروتوكولات المنكورة أو المقول بأنها مزورة - هى بصفة أساسية العهد القديم ، والتلمود .. ويعود تعدد كتب اليهودية المقدسة - فيما يقول الدكتور المسيرى فى موسوعته الرائعة - إلى عدة أسباب من أهمها فكرة العقيدة الشفوية الحلولية التى تضفى القداسة على كتابات الحاخامات الدينية واجتهاداتهم ، بل تكاد تعادل بين الوحى الإلهى (التوراة) والاجتهاد البشرى (التلمود) والكتاب المقدس، أو ما اصطلح على تسميته بالعهد القديم، يحتوى على أسفار موسى الخمسة، وإليها فى الغالب ينصرف مسمى "التوراة"، وهى أكثر أجزائه قداسة وتغطى الأحداث ما بين سنة ١٣٠٠ وسنة ٢٠٠ ق . م تقريبا ، وتتكون من أسفار : التكوين ، والخروج ، واللاويين ، والعدد ، والتثنية ، ثم تليها كتب الأنبياء وهى أكثر الأسفار توحيدية ، وأخيرا كتب الحكم والأمثال والأناشيد .. هذا إلى كتب الرؤى وغيرها التى ظهرت بعد تدوين العهد القديم ، أو استبعدت من

التدوين فيه ، وصارت تسمى الكتب الخارجية أو الخفية (أبو كريفا) ، أما "التلمود " ، فقد بدأ تدوينه مع القرن السادس وصار كتاب اليهود الدينى الأول ، ثم ظهرت مع القرن الثالث عشر كتب " القبالاه " وغيرها مما كوّن فى مجموعه كيانا تراكميا بات يشكل المرجعية الدينية اليهودية .

لا خلاف بين اليهود مهما كانت رؤاهم أو مواقفهم الاعتقادية أو الفكرية ، على " التوراة " كأرضية مشتركة يتلاقى الجميع على تقديسها ، كذلك " التلمود "ـ الثمرة الأساسية للشريعة الشفوية ـ الذى يخلع عليه اليهود القداسة باعتبار أن كلمات علماء التلمود وحى من الروح القدس نفسه ، فصارت الشريعة التلمودية (الشفوية) مساوية فى المنزلة والمكانة بل والقداسة للشريعة المكتوبة .

الوصايا العشر

تحتل الوصايا العشر ، صدارة الخطاب الديني اليهودي .. وتكاد تكون على شهرتها دستورا للشريعة اليهودية ، وجاء ذكرها في عدة مواضع من التوراة ، ووردت لها صيغة في سفر الخروج ٢٠ : ٢ ـ١٧ ، وأخرى في سفر التثنية ٥ : ٦ ـ ٢١ ، وثالثة في سفر الخروج ٣٤/١٠ ـ ٢٦ ، وتكاد الصيغتان الأولى والثانية ، وهما أشهر الصيغ ، تتفقان في الخطوط العريضة فيما عدا تفاصيل قليلة ، يهمنا منها في معرض استقصاء موقف الديانة اليهودية من " الأغيار " ، ماجاء بالشطر الثاني بالصيغتين من توصيات تقول تباعاً : لا تشهد على " قريبك " شهادة زور ، ولا تشته امرأة "قريبك " ، ولا تشته بيت " قريبك " ولا حقله ولا عَبْده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ـ ولا شيئا مما " لقريبك " !!!

وتكاد تتفق نسخة التوراة السامرية اتفاقاً تاماً مع هاتين الصياغتين في ربط النواهي بما يخص ذوى القربى أو الأقرباء . فشهادة الزور المنهى عنها هي التي تمس

" القريب " مما يفيد بمفهوم المخالفة أنه لا تثريب إن مست غير القريب . والاشتهاء المنهى عنه مقيد بدوره بما يكون لذوى القربى أو الأقرباء : امرأة " القريب أو " أمة " القريب أو " عبد " القريب أو بيته أو حقله أو ثوره أو حماره أو أى شيء مما يمتلكه هذا " القريب " . وبذلك أدارت هذه الوصايا ظهرها للأغيار ، ولم تقدم لهم الحماية التى تعطيها للقريب !!! .. يتعانق مع هذا الموقف اللافظ للأغيار ، المنظور العرقى الذى تقوم عليه الديانة اليهودية والهوية اليهودية ، حتى الرب ـ تجعله اليهودية رب أو إله " إسرائيل " ، وزادت الصيغة الثالثة للوصايا العشر على هذه الوصايا المنطلقة من منظور عرقى ، فحرمت قطع العهد مع الأغيار ، بل حضت على المساس بممتلكاتهم وأشيائهم .. جاء مما جاء فى هذه الصيغة (الخروج ٣٤ : ١٠ـ ٢٦) : " احفظ ما أنا موصيك اليوم . ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحيثيين والفريزيين والحويين واليبوسيين ، احذر من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التى

أنت آت إليها لئلا يصيروا فخا في وسطك . بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم ، فإنك لا تسجد لإله آخر لأن الرب اسمه غيور . إله غيور هو ! . احذر من أن تقطع عهدا مع سكان الأرض فيزنون وراء آلهتكم ويذبحون لآلهتكم فتدعى وتأكل من ذبيحتهم وتأخذ من بناتهم لبنيك فتزنى بناتهم وراء آلهتهم " !!!! .. هذه الصياغة تنهى وتحذر في وضوح صريح عن قطع العهد مع الأغيار " لئلا يصيروا فخاً في وسطك !! " ، وعن الزواج من بناتهم : " فتزني بناتهم وراء " آلهتهم " !!! .. ثم هي تبيح ممتلكات الأغيار، هدماً وتدميراً ، وتنطلق في هذا كله من ذات المنظور العرقي والتميز للشعب المقدس المختار !!!

هذا النظر في الصيغ التوراتية الثلاثة للوصايا العشر ، بسفري الخروج والتثنية ، نظر مغرق في مجافاة الأغيار ، يربط الحماية والرعاية ويقصرها على " القريب" دون سواه ، فتحريم الشهادة الزور أو اشتهاء زوجة الغير أو ممتلكاته أو كل ما يخصه لا يكون إلاّ بالنسبة " للقريب " مما يعطى

انطباعــاً ـ بمفهـــوم المخالفـــة ـ أنه لا عناية ولا احتفـاء ولا حـمـاية " لغيـر القريب " !!! يتـأكد هذا المنظور العرقى اللافظ للأغيـار ، بما ورد عن طرد الأغيـار والتـهيـئة لنول أراضيـهم ، وتحريم قطع العـهد مـعـهم ، بل وهدم وتدمـيـر ممتلكاتهم ، وتحريم الزواج من بناتهم ؟!!

ومع أن العقيدة المسيحية تدرج العهد القديم فى شطرى الكتاب المقدس ، وتعتنق أن دعوة الســيد المسيح تكمـل ولا تناقض الناموس اليهودى ، إلاّ أنها لم تساير هذا المنظور فى صياغتها للوصايا المقابلة الواردة فى الأناجيل ، فحذفت منها جميعا " شرط القرابة " كشرط لإعمال وتطبيق الوَصية .. فى إنجيل لوقا ١٨ : ١٨ـ٢٠ ، حين سئل السيد المسيح عن العمل الصالح ، قال : " أنت تعرف الوصايا . لا تـزن . لا تقـتل . لا تسـرق . لا تشـهـد الزور .. أكـرم أباك وأمك " ، ونفس هذه الصياغة بحصر اللفظ ، فى إنجيل مرقص ١٠ : ١٩ ، وهـو هو ما ورد بإنجيـل متـى ١٩ : ١٨ ، ١٩ الـذى لم يضف إلى هذه الوصايا ـ التى خلت من شرط " القرابة "

ـ إلاّ وصية " أحب قريبك كنفسك " ، ومغزاها أن يحب المرء لأخيه ما يحبه لنفسه . وعلى مثل ذلك جرت رسالة بولس إلى أهل رومية ١٣: ٨ ـ ١٠ ، فحذفت هى الأخرى " شرط القرابة " من الوصايا . وبذلك التفتت المسيحية إلى غلط ومحاذير ربط الوصايا بالقرابات ، لأنه ربط يصدر عن مفهوم عرقى لم تقبله المسيحية !

تتجلى أكثر هذه المجافاة للأغيار ، فى الوصايا اليهودية ، حين تقارن بما يقابلها فى القرآن .. لا يربط القرآن صدق الشهادة والتحذير من الكذب فيها ـ بأن تكون لقريب .. فالشهادة فى ديانة الإسلام واجب ، لله والحق .. "وأقيموا الشهادة لله" (الطلاق ٢) .. الشهادة التى تكون لله ، لا بد أن تكون شهادة صدق وعدل .. لا يعلق هذا الواجب على أى شرط ، بل ولا ينبغى أن يحول دون الصدق فيها أن تقع على قريب ، أو حتى على النفس .. حق " الغير " هو المقدم فى الشهادة لإعلاء العدل والإنصاف .. لا يرضى الإسلام للشاهد إلاّ أن يكون عادلا فى شهادته ، ولا يعذره

فى ذلك عذر مهما بلغ .. لا شنآن الخصم يعذره ، ولا قرابة القريب تعفيه ، ولا كون المشهود عليه يمسه هو شخصيا أو يمس أحد ذوى قرباه .. فى القرآن المجيد : " وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى " (الأنعام ١٥٢) .." يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ " (النساء١٣٥) .. " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى " (المائدة٨) .. تحريم الشهادة الزور تحريم عام أيا كان من تمسه شهادة الزور ، قريبا أو بعيدا ، صديقاً أو عدوا .. لا يتقيد النهى عن الشهادة الزور بأى قيد من عرق أو قرابة أو صداقة .. فى القرآن : " فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ " (الحج ٣٠) .. بل إن البعد عن الشهادة الزور - أيا كان المشهود عليه ، صفة لازمة وحتمية من صفات المؤمنين الذين فيهم قال القرآن " وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا " (الفرقان ٧٢) ..

العدل اسـم مـن أسـمـاء الله ، وخلـق قرآنى ، لا يتوقـف ولا يعلق على شـرط من عرق أو قـرابة .. الوصـيـة بالعـدل وصية عامة لا تتغيا شيئا غير العدل ، ولا تبالى بأى اعتبار سـواه ، وتقدم لذلك منظومة تحمى " الأغيار" قبل أن تحمـى سواهم .

العـدل الذى يرعـاه الإسـلام لايتـجـزأ لأن النفس العـادلة تصـدر فى كل مـا تأتيه عن سـجـيـة العدل .. فى مـعـامـلاتها ، وفى خصـومـاتها .. العـادل لايفارقـه عدله .. إذا شـهـد يشـهد بالعدل .. " يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُواْ كُـونُواْ قَـوَّامِـينَ لِلّهِ شُـهَـدَاء بِالْقِسْطِ " (المائدة ٨) .. بل ولا يصرفه عن الشهادة بالحق شنآن شـانئ ولا إسـاءة مـسـىء .. المسلم ينضح عـدله فى كافة معاملاته .. يفى للناس بحقوقهم ، ويفى بالكيل والميزان ، ولا يخسـر النـاس أشـيـاءهـم .. "فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيـزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ " (الأعراف ٨٥) .. هذه الآيات غايتها مـن الحض على الوفـاء بالكيل والميزان هـى رعايـة " الأغيار" وحماية المتعاملين من الجور والظلم فى التعامل ..

يقول القرآن للمسلمين رعاية لهذا العدل الواجب : "وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ" (الرحمن ٩) .. "وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ " (المطففين١ـ٣) . أما قطع العهود الذى حرمته الوصية التوراتية بالنسبة للأغيار ، فإنه مع الوفاء به ـ للجميع وبلا قيود ـ مبدأ أساسى من مبادئ القرآن ، فالمؤمنون هم الذين " لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ " (المؤمنون ٨) ـ الأمر إليهم بالوفاء أمر عام فى قرآنهم المجيد : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ " (المائدة١) .. وفى سورة الإسراء : " وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً " (٣٤).. لا ينحى الإسلام أحدا من الأغيار عن هذه الرعاية ، حتى الكافر .. له فى القرآن رعاية وأمان حتى يسمع كلام الله ثم يبلغ مأمنه : " وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ" (التوبة ٦) .

إن الوصايا الدينية صاحبة أثر غائر عميق فى نسيج الناس ، تشكل رؤاهم ومواقفهم مما يستوجب استكمال القراءة فى الأديان لاستشفاف هذه الآثار.

* * *

ليس مرام هذا الاستقصاء أن يتتبع أو يعرض حادثات ومآس مهما كان إغراء الحكى الدرامى ، بل إن أثر هذا الحكى على الناس هو هو ما يريد هذا الاستقصاء أن يتجنبه كل التجنب ، لأن الحكى يثير الأشجان ويؤلب المشاعر ، ويثير الكراهية والعداوات . ليس هذا هو المراد ، بل أن ينظر الناس جميعا بمن فيهم أهل كل ديانة من الديانات ، ليعرفوا لماذا كان ما كان ، ولماذا يكون ما هو كائن من ابتعاد أو اقتراب أهل كل دين من أو عن الأغيار ، وماذا فى مرجعياتهم الدينية يدفعهم إلى هذا الاتجاه أو ذاك .

قراءة في العهد القديم

ما تقدم ، يفرض وصولاً إلى الغاية الموضوعية المطلوبة ، أن يلتزم الاستقصاء بالنصوص الدينية كما هى فى عقيدة وكتب اليهود ، فالدين لا يُرى ولا يُستقصى من رؤى الناس ، أو من حركات الغلاة ، فليس يريد هذا الاستقصاء أن يستطلع موقف اليهودية من الأغيار من خلال نزعات أو سياسات أو مآرب أو أهواء أو جنوح أو مبالغات أو غلو أو تطرف الناس ، وإنما يريد استقراء النصوص التى يؤمن بها عامة أهل الدين كما هى فى كتبهم المقدسة ، ثم إن الالتزام بهذه النصوص يقى البحث مغبة سوء الفهم أو سوء الظن أو شطحات الجدال . من هنا كانت هذه القراءة فى نصوص أسفار العهد القديم .

لا مراء فى أن الحرب والقتل ، أشنع وأبشع صور الدراما الإنسانية وأخطر وأغلظ صور التعامل مع الأغيار .. فيها تصارع أو تجاوز يستبيح الأرواح ، فيزهق الإنسان بيده أرواحا إنسانية ويغتال الحياة التى خلقها ومنحها الله ، وهى

بذلك صورة من صور الاعتداء الشنيع على " الأغيار " ، يستهدف أرواحهم وحيواتهم وسلامة أبدانهم ، وأراضيهم وأموالهم وممتلكاتهم .. لذلك كان بدهيا أن تعرض شرائع الأديان للحروب وما يقتضيها أو لا يقتضيها ، والقواعد الحاكمة لها ولعواقبها إن لم يكن من وقوعها مفر !!

موقف كتب الديانة اليهودية من الحرب - باعثاً أو سبباً أو حدثاً أو نتيجة - موقف يبعث على الحيرة الشديدة ، ويثير علامات استفهام بالغة الأهمية لا تلقى جوابا شافيا ، ومن المحال أن تلقاه ، لأنها تستبيح الحرب وتسترخص دماء الأغيار لغير سبب ، وتحصد الأرواح لغير غاية ، وتكشف عن موقف بالغ القسوة والغرابة بالنسبة للأغيار الذين وسعت كتب اليهودية دائرتهم لتشمل غير اليهود فى العالم بأسره مما أطلقت عليه كتبهم تعبير الأمميين ! .

جاء فى سفر الخروج ٣٢ : ٢٦ ـ ٢٩

"وقف موسى فى باب المحلة • وقال من للرب فإلىّ • فاجتمع إليه جميع بنى لاوى • فقال لهم • هكذا قال الرب إله إسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب فى المحلة واقتلوا كل واحد أخاه (؟!) وكل واحد صاحبه (؟!) وكل واحد قريبه (؟!) • ففعل بنو لاوى بحسب قول موسى ووقع من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل (!!!) • وقال موسى املأوا أيديكم اليوم للرب حتى كل واحد بابنه وبأخيه فيعطيكم اليوم بركة " !!!

هذه الصورة للإسراف فى القتل ، ونوال البركات (؟!) عليها ، تأتى فيما يبدو فى إطار فلسفة عامة تنطلق من عقيدة التميز (؟!) ـ عن ذلك عبر سفر اللاويين ٢٠ : ٢٤ ـ ٢٦ ، فجاء فيه : "وقلت لكم ترثون أنتم أرضهم وأنا أعطيكم إياها لترثوها (!!) أرضا تفيض لبنا وعسلا • أنا الرب إلهكم الذى ميزكم من الشعوب (!!) • فتميزون بين البهائم الطاهرة والنجسة وبين الطيور النجسة والطاهرة •

فلا تدنسوا نفوسكم بالبهائم والطيور ولا بكل ما يدب على الأرض مما ميزته لكم ليكون نجسا . وتكونون لى قديسين لأنى قدوس أنا الرب . وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لى "!!!

هذه الاستباحة لأرواح الغير ، وإزهاقها بالقتل .. لا تستثنى أرواح النساء ، ولا الأطفال الرضع ، وتمتد حتى للحيوان الأعجم ، مطبوعة بمنطق " الإبادة " التى تغلق أى سبيل للصلح أو العفو ، والأغرب أن الصياغة فى العهد القديم تنسب الدعوة بذلك إلى الله ، وتصفه بأنه : " رب الجنود " . فجاء فى سفر صموئيل الأول ١٥ : ١-٣ :

"وقال صموئيل لشاول . إياى أرسل الرب لمسحك ملكا على شعبه إسرائيل والآن فاسمع صوت كلام الرب . هكذا يقول رب الجنود . إنى قد افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل حين وقف له فى الطريق عند صعوده من مصر . فالآن اذهب واضرب عماليق وحرموا كل ما له ولا تعف عنهم بل اقتل

رجلا وامرأة ٠ طفلاً ورضيعاً (!!)٠ بقرا وغنما ٠ جملا وحمارا " !!

وفى سفر التثنية ، حزمة غريبة من الوصايا التى تحض على " تسخير " و "استعباد " الشعوب المغلوبة ، وضرب كل من يقاوم من الذكور بحد السيف ، وأخذ جميع النساء والأطفال والبهائم غنيمة ، سنة متبعة في كل المدن التى تطولها يد الفتح والغزو ـ لا يستبقى الغزو منها نسمة ما بل يحرمها تحريما !!! فيقول سفر التثنية ٢٠ : ١٠ ـ ١٦

حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح . فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير (!!) ويستعبد لك (!!!) . وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف (!!) وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك (!!!) وتأكل غنيمة أعدائك (!!!)

التى أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا . أما مدن الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريماً " !!!.

وجاء فى الإصحاح ١٣ : ٦ ـ ١٧ من سفر التثنية عن المدن التى لا تدين بديانة إسرائيل : " فضرباً تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف (!!) وتحرمها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف (!!) تجمع كل أمتعتها (!!) إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار (!!) .. المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك ، فتكون تلا إلى الأبد لا تبنى بعده " !!

وجاء فى سفر الخروج ٣٢ : ٢٥ ـ ٢٩ أن بنى اللاوى قتلوا ثلاثة آلاف رجل من الشعب (!!!) لعبادتهم العجل ، وفى سفر العدد ٣١ : ١ ـ .. : " أن النبى موسى أرسل اثنى عشر ألف مقاتل لمحاربة أهل مدين ، فقتلوا كل ذكر (!) ، وقتلوا خمسة من ملوك مدين بالسيف " ، " وسبى بنو إسرائيل نساء مدين وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم

وجميع مواشيهم وكل أملاكهم ، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار . وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم (!!) "، .. وأنهم لما رجعوا بالسلب والنهب والغنيمة قوبلوا بالغضب على استبقائهم النساء والأطفال ، ثم أمروا بقتل كل طفل ذكر ، وكل امرأة ثيب، وأبقوا الأبكار ، وكان عددهن اثنين وثلاثين ألفاً " ! .

وفى سفر صموئيل الأول ٢٧ : ٩ ـ ١٢ " :أن النبى داود " ضرب الأرض ولم يستبق رجلاً ولا امرأة وأخذ غنماً وبقراً وحميراً وجمالاً وثياباً وجاء إلى أخيش فقال أخيش إذن لم تغزُ اليوم . فقال داود بلى ". وعاد داود فلم يستبق رجلاً حتى أتى إلى جات " !!! .

وفى سفر صموئيل الثانى ١٢ : ٣١ أن النبى داود كان يمثل بمن يقتلهم أشنع تمثيل : " .. فجمع داود .. وأخرج الشعب الذى فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأمرّهم فى أتون الآجر (موقد كبير من الآجر) وهكذا صنع بجميع مدن بنى عمون " !!! .

هذه العدوانية إزاء الأغيار ، مجدولة باستباحة أراضى وأملاك الغير ، فجاء فى سفر التثنية ٧ : ١ـ٦ فيما يباح اجتياحه من أملاك الغير للشعب اليهودى المقدس :

" متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوبا كثيرة من أمامك الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين سبعة شعوب أكثر وأعظم منك ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنك تحرمهم . لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم . بنتك لا تعط لابنه وبنته لا تأخذ لابنك . لأنه يرد ابنك من ورائى فيعبد آلهة أخرى فيحمى غضب الرب عليكم ويهلككم سريعا . ولكن هكذا تفعلون بهم تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم وتحرقون تماثيلهم بالنار . لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك . إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض "!!.

ومن اللافت أن إباحة التغول على أراضى وأوطان الغير ، قد اقترنت بجعلها مستعمرات يهرب إليها القتلة حتى لا تطولهم يد القانون والعدالة ، فجاء في سفر التثنية ١٩ : ١ـ ١٤ :

"متى فرض الرب إلهك الأمم الذين الرب إلهك يعطيك أرضهم وورثتهم وسكنت مدنهم وبيوتهم تفرز لنفسك ثلاث مدن في وسط أرضك التى يعطيك الرب إلهك لتمتلكها. تصلح الطريق وتثلث تخوم أرضك التى يقسم لك الرب إلهك فتكون لكى يهرب إليها كل قاتل ! وهذا هو حكم القاتل الذى يهرب إلى هناك فيحيا" !!!

إلى جانب ما ورد بالعهد القديم ، من حديث عن سلب وتقتيل ونهب وتدمير وتحريق بلا فلسفة ولا ضابط ولا علّة ، حتى في حصد أرواح الأغيار .. ورد في إيذاء وسلب ونهب مصر والمصريين ، تحريض عجيب يعكس عداءً صارخا للأغيار ، وحضّا على بث الكراهية والعداء وسلب ونهب المصريين ، فجاء في سفر الخروج ٣ : ١٨ ـ ٢٢ :

" فإذا سمعوا لقولك تدخل أنت وشيوخ إسرائيل إلى ملك مصر وتقولون له الرب إله العبرانيين التقانا . فالآن نمضي سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا . ولكني أعلم أن ملك مصر لا يدعكم تمضون ولا بيد قوية . فأمد يدي وأضرب مصر بكل عجائبي التي أصنع فيها . وبعد ذلك يطلقكم . وأعطي نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين . فيكون حينما يمضون أنكم لا تمضون فارغين بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا وتضعونها على بنيكم وبناتكم . فتسلبون المصريين" !!!

ويتكرر الإلحاح في العهد القديم على مصر ، والحض على قتل كل الأبكار فيها ، فجاء في سفر الخروج ١٢ : ١٢ ـ ١٤ :

"فإني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم. وأصنع أحكاما بكل آلهة المصريين . أنا الرب .. ويكون لكم الدم علامة على

البيوت التى أنتم فيها · فأرى الدم وأعبر عنكم · فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر · ويكون لكم هذا اليوم تذكارا فتعيدونه عيدا للرب · فى أجيالكم تعيدونه فريضة أبدية"!!!

التلمود

لا تحب هذه الكلمات ، أن تخوض كثيراً فى استقراء التلمود ، مع أنه يشكل مع العهد القديم المرجعية الدينية اليهودية ، ويحتل مساحة ضخمة ومؤثرة فى الوجدان اليهودى ومحوط بغموض كثيف على غير اليهود ، وما تسرب من مجلداته البالغة ٣٦ مجلداً خطير فى عدائه واحتقاره للأغيار ، ووصمهم بأحط الصفات ، وتحريم الزواج منهم ، والنزول ببعضهم إلى مستوى الحيوان ، وفى عدوانية زاعقة تدعو فى بعض أجزائه إلى قتل الغريب .. غش الغريب مباح وليس محرما كغش القريب ، والمباركون أولاد الحق هم اليهود ، والآخرون عبدة أوثان لحومهم من

لحوم الحمير .. " إذا وقع أحدهم فى حفرة فاسددها بحجر كبير " !! .. لقد سببت هذه العدوانية حرجاً شديدا لليهود ، فسعوا فى الطبعات الجديدة إلى إحلال كلمة " مصرى " أو " سامرى " أو " صدوقى " محل كلمة " مسيحى " أو " غريب " !!

بين العهدين القديم والجديد

دعنا من التلمود وما يثيره ، ولنعد إلى العهد القديم وموقفه من " الأغيار " وما يسببه ذلك من إشكالية حقيقية يصادفها المسيحى حين يتناول الكتاب المقدس المتضمن للعهدين القديم والجديد .

لقد ألف الخطاب الدينى المسيحى واعتاد ترديد أن المسيحية تكمل ولا تنقض الناموس اليهودى ، وقد يبدو - ظاهريا - أن الناس ألفت الاستسلام لمنظور الخطاب ، وبلغت بها الألفة والاعتياد حد التوقف عن النظر والتأمل والمقارنة .. وقد كان يمكن أن يكون هذا متاحا لو أن الخطاب اليهودى

غير مطروح أو فى غير متناول قراءات المسيحى لخطابه الدينى ، وهذا ليس صحيحا ، لأن الخطاب الدينى اليهودى منشور فى ذات الكتاب المقدس الذى يحمل شطره الثانى أناجيل المسيحية وخطابات ورسائل الرسل.. عين المسيحى تجرى بالضرورة على ما تضمنته أسفار العهد القديم باعتباره على الأقل مرجعية تاريخية للديانة المسيحية ولظهور السيد المسيح عليه السلام ، ثم هو - أى المسيحى ، يقرأ بأشواق التدين ما فى أناجيل ديانته ، ثم يقارن شاء أم أبى - بالقصد وباللا قصد ، بين ما جاء هنا مناقضاً كل التناقض ما جاء هناك .. هو لا يستطيع أن يتجنب ما تحادثه به نفسه من مناقضة المسيحية شريعة المحبة والسلام وملكوت السماء ، لهذا الذى بالعهد القديم - جملة وتفصيلا .. قد تحاشت الأناجيل شرط "القرابة" فى بعض الوصايا فحذفتها ، ولكن ماذا فى القتل والاستباحة والنسف والتحريق والتدمير واجتياح أراضى الغير واستلاب المغلوبين ، ونهب الممتلكات ، وبذر بذور العداوات والكراهات !!. إن المسيحى

ليقرأ فى إنجيل متى ٥ : ١ ـ .. موعظة السيد المسيح على الجبل ، ويقرأ فيما يقرأه أن كل ما قاله السيد المسيح أنه لم يجيء ليلغى الشريعة أو الأنبياء ، ولكن ليكمل .. ثم يقرأ فى كل سطور الموعظة تعديلات عميقة تنبذ وتخالف ما شطح إليه السابقون " .. سمعتم أنه قيل للأقدمين : لا تخالف قسمك .. أما أنا فأقول لكم : لا تحلفوا أبدا " .. (متى ٣٤ : ٥ ـ ٣٥ (ـ "وسمعتم أنه قيل : عين بعين وسن بسن . أما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر بمثله ، بل من لطمك على خدك الأيمن ، فأدر له الخد الآخر ، ومن أراد محاكمتك ليأخذ ثوبك ، فاترك له رداءك أيضا " .. (متى ٥ : ٣٨ ـ ٤٠) .. "وسمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك . أما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، وباركوا لاعنيكم ، وأحسنوا معاملة الذين يبغضونكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويضطهدونكم ، فتكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات " .)متى ٥ : ٤٣ـ٤٥) .. يمضى المسيحى فى قراءة أناجيله فيرى فيما يراه قول السيد

المسيح : " لا تدينوا لئلا تدانوا . فإنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون ، وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم . لماذا تلاحظ الخشبة فى عين أخيك ، ولكنك لا تتنبه إلى الخشبة فى عينك " . (متى ٧ : ١ـ ٣ (.. أينما يمضى المسيحى فى أناجيله بالكتاب المقدس ، يلمح مسحة إنسانية تفيض بالمحبة وتناقض كل المناقضة ما تقرأه عيناه ويقض مضجعه ما ورد بالعهد القديم .. هذه المقارنة لا بد تجسد " الصدمة " التى بها يخرج القارئ المسيحى لما ورد بالعهد القديم ، هذه الصدمة التى يعزى إليها تنافر العلاقة فى أوربا بالذات بين أهل الديانتين ، ساهم فى دفعها إلى منطقة الخطر الخصوصيات أو الإشكاليات اليهودية التى ألمنا ببعضها !

ومن الظواهر اللافتة ، أن علاقة المسلمين باليهود ، فى الشرق الإسلامى ، لم تتسم بالصفحات المأساوية التى اتسمت بها علاقة المسيحيين باليهود فى أوربا ، بل وبقى اليهود يتمتعون فى المجتمعات الإسلامية بكل الحقوق وبزغ منهم نجوم فى الحضارة الإسلامية فى جو من التسامح

مجدول بقبول الآخر ، ولم تنشأ الحساسيات إلاّ بعد الشروع في إقامة الكيان الإسرائيلي الإحلالي الاستيطاني في فلسطين . لماذا كانت خصوصية موقف الإسلام وما نعم به اليهود في حضارته .

* * *

أسوأ ما يجرى هذه الأيام ، من حملة ضالة جهولة على الإسلام والمسلمين ، أنها تصرف الأنظار عن الفهم الذى يمكن أن يؤمن الإنسانية ويلات ما يجرى وما هو راقد بالتبعية له فى رحم الأيام القادمة .. والديانات بعامة ، لا ينال منها هجوم مهما ضل واشتط ، لأن الدين هو ما فيه من ناحية ، لن ينقص أو يزيد بمرايا الآخرين المحدبة أو المقعرة ، ولأنه من ناحية أخرى واقع راسخ فى عقيدة أهله .. الخاسر هو التشخيص الضال والمواجهة الأكثر ضلالاً ، لأنها تترك مايجب التصدى له ، وتحارب طواحين

هـواء علـى منطق دون كيشـوت فى رائعـة سـرفـانتس .. لن يجدى التشخيص أن يترك الداء ويتربص بالإسلام وأهله ، ولن ينفعـه أن يخلط بين الدين وبين الجانحين أو الحركات الجانحة عنه ، فذلك وارد وورد على كل الأديان ، ولن يصدق أحد هذا التشخيص الأحول ـ حين يخلط بين الفداء للدفاع المشروع عن الأوطان ، وبين الإرهاب، فالوضوح الواضح فى الفارق الهائل بين هذا وذاك ، يستدعى الضحك من عوار التشخيص وعماه الضرير ـ بأكثر مما يجلب الألم أو البكاء !! .. إن الاشتباك الدائر الآن هو بين مصالح تغولت وتسعى لمزيد من التغول ، وبين حقوق مهدرة تناضل لوقف الزحف الجائر الجارى عليها! ..

أين أس البلاء ؟!

يشيع هذا النظر الضرير المتربص بالإسلام ، عن أس البلاء الناجم عن تحالف الصهيونية مع الاستعمار الغربى فى استكمال الغزو بكل صوره للشرق الإسلامى ، ذلك الغزو

الاستعمارى الذى مارسه الغرب على مدار حقب ثم التأمت به الحركة الصهيونية التى هى فى جانب منها إفراز عضوى للحضارة الغربية بمنطقها تسخير العالم لصالح الأقوى ، وفى جانبها الآخر استدعاء لنصوص توراتية أو تلمودية تسرف فى مجافاة وازدراء وتحقير ومعاداة الأغيار ، وتشتط من منطق العرق والتميز والاستعلاء والشعب المختار الذى جعل الله الكون كله لخدمته ـ إلى حد التدمير والغزو واستباحة الأرواح واسترخاص دماء الأغيار على نحو لا نظير له فى مدونات الأديان الأخرى (سفر الخروج ٣٢ : ٢٥ ـ ٢٩ ، وسفر اللاويين ٢٤:٢٠-٢٦، وسفر صموئيل الأول ١٥ : ١-٣، وسفر التثنية ٢٠:١٠ ـ ١٦ ، ١٣: ٦ـ ١٧، وسفر صموئيل الأول ٢٧: ٩ ـ ١٢، وسفر صموئيل الثانى ١٢:٣١، وسفر التثنية ٧:١-٦، ١٩ : ١ ـ ١٤ (ـ ومن هذه النصوص ما يخص مصر والمصريين بعداوة خاصة بلغت حد الإيذاء والسلب والنهب وبث الكراهية والعداء (سفر الخروج ٣ : ١٨ ـ ٢٢ ، ١٢:١٢ ـ ١٤) فضلا عما ورد فى التلمود ـ على تناقضاته ـ من عداء وتحقير واستباحة للأغيار ـ مما تحفظ عليه

قطاع غير ضئيل من اليهود ومفكريهم ، وسعت الطبعات الجديدة من التلمود إلى إحلال كلمة " مصرى " أو "سامرى" أو " صدوقى " محل كلمة " مسيحى " أو " غريب " درءا للحرج الشديد الذى استشعره يهود بلغ ببعضهم حد التحفظ على النصوص ذاتها ، وألف بعض مفكريهم مصنفات تعزو كثيرا من المدونات الدينية إلى تدخلات وتحريفات وإضافات بشرية على نحو ما نجده فى كتاب ريتشارد فريدمان : " من الذى كتب التوراة " و كتاب ليوتاكسل : " التوراة كتاب مقدس أم جمع من الأساطير " ، مما يقترب مما أورده القرآن من أن المتداول فى المدونات أصابه تحريف عما أنزله الله تعالى على موسى عليه السلام ، ويبدو أن هذا الاستعلاء على الأغيار ، ومجافاتهم ، والاستهانة بهم ، حصاد تلقائى لهيام اليهودية بالعرق والسلالة ، وبقداسة الشعب المميز المقدس المختار ، وبالعبقرية اليهودية التى يستمسك بها اليهود فى غير تواضع .. ولا مراء فى أن إشكالية العزلة اليهودية ـ المنبثقة من كل هذه الإشكاليات ،

تسهم فى تعميق " مجافاة " الأغيار وتجفيف ينابيع الود وإحلال الوحشة وسوء الظن المتبادل محلها ، واستدعاء واستنفار روح العداء إزاء الأغيار الذين وسعت اليهودية دائرتهم فصاروا من لا يدين فى العالم كله باليهودية .. ومن دائرتهم أو دوائرهم - ينسحب اليهود من الدنيا بأسرها ليقيموا داخل الجيتوات الاختيارية أو القسرية والتى تعددت فى أوربا بالذات . هذا الانعزال أدى إلى إحساس اليهود بالنفى الأزلى ، وبالغربة فى كل مكان ينتقلون إليه ، وهذا الإحساس الدائم بالغربة والنفى هو الذى يلح على اليهود بفكرة الوطن القومى لليهود . وصارت عبارات " المنفى " و " الشتات " و " الدياسبورا " و" العودة " كلمات متداولة مألوفة فى الأدبيات اليهودية الصهيونية .

وجدير بالذكر أنه بعد إنشاء الكيان الإسرائيلى التفريغى الإحلالى الاستيطانى فى فلسطين ، لم يهرع كل يهود العالم إلى أرض الميعاد (؟!) كما توقعت الصهيونية ، وهو ما اضطر بن جوريون إلى ابتداع مصطلح سمى بمقتضاه

الناكلين عن العودة بأنهم " منفيو الروح "، بزعم أن أرواحهم معذبــة فى المنفى !!! وهى شطــحة تتحداها وتدحضها ما تمثله الولايات المتحدة الأمريكية ـ بالذات ـ كنقطة جذب وارفة هائلة للغالبية الساحقة من يهود العالم !

أين كان العداء ؟!

على أن من الظواهر اللافتــة ، أنه مع انطلاق الموجـة الصهيونية من عباءة الفكر الاستعمارى الغربى ، فإن الصفحات الدامية والويلات التى تجرعها اليهود ، لم تكن من الشرق الإسلامى الذى يستهدفونه ويناصبونه العداء ، وإنما كانت فى أوربا المسيحية ، مع أن المسيحية ديانة المحبة والإخاء والسلام .. فكل المآسى التى حاقت باليهود ، جرت فى أوربا ، بينما بقيت الجاليات اليهودية تتمتع فى الشرق الإسلامى بكافة الحقوق ، وبزغ منهم فى الحضارة الإسلامية نجوم من العلماء والساسة فى جو من التسامح مجدول بقبول الآخر .. لم تتكدر هذه العلاقة إلاّ بعد بروز مشروع الكيان

الإسرائيلى الصهيونى التفريغى الإحلالى الاستعمارى الاستيطانى ! .. هذه المفارقة بين حال اليهود فى الشرق الإسلامى ، وحالهم فى الغرب المسيحى - واقع حاصل رغم أن الخصوصيات أو الإشكاليات اليهودية واحدة هنا وهناك ، ورغم أن الديانتين الإسلامية والمسيحية تتفقان فى روح الإخاء والتسامح .. ويبدو أن الفارق يرجع إلى أن الإسلام لم يكتف بالدعوة إلى هذه المبادئ ، وإنما جعلها شريعة لها أحكامها وضوابطها فى إطار منظومة محكمة تضمن سريان وإعمال المبادئ فى حيز التطبيق .

قد رأينا كيف أن الإسلام بلغ فى رعايته للأغيار ، حد تأمين الكافر المستجير حتى يسمع كلام الله ثم يبلغه المسلم مأمنه . (التوبة ٦) .. هذه الصورة ليست مجرد لوحة وردية جمالية ، وإنما هى صدى لمنظومة كاملة عمادها المساواة والتسامح اللذان التأما مع باقى مبادئ الدوحة الإسلامية ليوفرا للجميع - بعالمية الدين - ضمانا ترعى فيها حقوق الإنسان دون ما نظر إلى عرقه أو لونه أو جنسه أو دينه ..

ولأن الأمر جاوز مجرد الدعوة إلى سن شريعة متكاملة ، لذلك بقيت روح المساواة والتسامح سائدة حتى فى فترات الضمور أو التراجع أو الانحلال أو الاستبداد .. انطلقت هذه المنظومة فى رعاية الكافة ، بمن فيهم الأغيار ، من تقديس شامل للروح الإنسانية كفرع على تكريم الإسلام للإنسان من حيث هو إنسان .. روح الآدمى - أيا كان عرقه أو دينه - هى روح الناس جميعا .. من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ، ومن قتلها بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعا (المائدة ٣٢) .. فالتكريم القرآنى للإنسان بعامة ، لا للمسلم بخاصة ولا للعربى تحديدا .. " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً . " (الإسراء ٧٠) .. من أجل ذلك لم يكن لمخلوق أن ينهى حياة خلقها ووهبها الخالق ، فاحترام الروح فى الغير وفى النفس فرع على الإيمان .. المسلم يحترم الحياة فى غيره ، وواجب عليه أيضا أن يحترمها فى نفسه وفى خاصة أهله ،

فلا يباح له أن يتخلص من حياته بالانتحار ، ولا أن ينهى حياة بنيه خشية فاقة أو إملاق.. (التكوير ٨ ، ٩ ـ النحل ٥٨، ٥٩ ـ الإسراء ٣١ ، الأنعام ١٥١).. حتى الأسير فى الحرب ، له الحماية والرعاية والأمان . " وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . " (الإنسان ٨) ، والمنّ عليه بإطلاقه من الأسر سابق على الفداء : " فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا " (محمد ٤) .

منابع شجرة التسامح الباسقة في الإسلام

تنبع شجرة المساواة والتسامح فى الإسلام، من قاعدة ترد الإنسانية كلها إلى أصل واحد وإلى أسرة واحدة لا تفاضل بين أفرادها إلاّ بالتقوى والعمل الصالح .. يتعدد ذلك فى القرآن المجيد فى خطاب إلى الناس كافة لا إلى المسلمين أو العرب بخاصة.. ففى سورة الحجرات: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ." (الحجرات ١٣)،

والإنسانية كلها راجعة إلى أصل واحد ، ومنحدرة من نفس واحدة خلـق الله منهـا زوجها وبث منهما رجالا ونسـاء.. (النساء ١، الأعراف ١٨٩ ، الأنعام ٨٩).. هذا الركاز يصب فى مناط المفاضلة التى لا تكون بالأعراق أو السلالات ، وإنما بالتقوى والعمل الصالح .. تشمل التقى الورع ، ولا تغلق فى الوقت نفسه أبواب الرجاء أمام غيره .. القدرة المتحققة للقادر مسخرة لجبر غير القادر ، لا يستعلى بها صاحبها ، ولا يتفاخر أو يتباهى أو يتميز .. شجرة حقوق الإنسان فى الإسلام تقوم على جناحين : مبدأ المساواة ، ووحدة الأصل البشرى. هذا الانتماء الإنسانى تذوب فى أخوته الإنسانية الشاملة ـ كل فوارق .. الفرد أمام الإسلام قيمته فى ذاته لا ينتهكها استعلاء ولا تجبر ولا مال ولا هيلمان .. الكل سواء أمام الله والقانون، لا تفاضل إلا بالعمل الصالح .. باب السماء مفتوح لكل إنسان بلا كاهن ولا حبر ـ إلا اتجاهه إلى الله تعالى بإخلاص وقلب منيب . المساواة أمام القانون فرع على شجرة المساواة الوارفة ، التى عنها عبر رسول القرآن

فقال : " الناس متساوون كأسنان المشط " .. هذه المساواة امتدت إلى كل المجالات .. أمام القانون ، وفى الوظائف ، وفى العطاء ، وفى واجب الجهاد أو ما يصطلح الآن على تسميته بالخدمة العسكرية ، وفى الضرائب ، وفى نصيب الناس من حمل أعباء الجماعة ، وفى حق كل منهم فى بيت المال .. لا يستبعد الإسلام من واحة المساواة أهل الذمة الذين يقيمون فى دار الإسلام ، ولا المعاهد .. فهم أحرار فى عقائدهم وفى إقامة شعائرهم وفى ممارسة أنشطتهم وفى ولاية الوظائف وبنصيبهم من الأعباء ومن بيت المال الذى تقيهم مظلته من العوز والحاجة .. يلتقى الفاروق عمر بيهودى ضرير يتكفف الناس ، فيأخذه بيده إلى بيت المال ويقول لعامله عليه : " انظر هذا وضرباءه ، فو الله ما أنصفناه إن أكلنا شبيته ثم نخذله عند الهرم " ! ..

ما نعم به اليهود في دوحة الإسلام

الصفحات التى تروى ما نعم به اليهود فى الدوحة الإسلامية ، لاتقع عند حصر .. لم يتأثر المسلمون كما تأثر سواهم بجرائر الأجداد الغابرين .. سواء فى واقعة الصلب ، أو فيما لاقاه رسول القرآن .. كثر اشتغال اليهود - ومعهم النصارى - بالطب فى ظل الحضارة الإسلامية ، وبزغ منهم نجوم ، وفى موسوعة الحكماء للقفطى عشرات الأسماء التى نبغت من الذميين بعامة ومن اليهود بخاصة فى ظل سماحة الإسلام وقبوله للأغيار .. من أعلام الطب فى الحضارة الإسلامية موسى بن ميمون اليهودى وغيره ، ولم يتح لليهود من انخراط فى النسيج العام للبلاد التى يعيشون فيها مثلما أتيح لهم فى الأندلس الاسلامية فى ظل هذا المبدأ الوارف الذى يظلل ربوع دار الإسلام .. فى عصر الخلافة الفاطمية استوزر العزيز بالله الفاطمى (٩٧٥ - ٩٩٦ (واستناب فى الشام رجلا يهوديا يدعى منشّا بن ابراهيم .. صحيح أن الوزير مال وظلم وأثار السخط ، ومع

ذلك تبقى دلالة استخدامه آية على تسامح الحضارة الإسلامية التى بذلت المساواة والفرص المتكافئة للجميع.. ممن بزغوا من اليهود والنصارى في رحاب المساواة الاسلامية إسحق ابن حنين الطبيب المترجم النصرانى (٩١٠/٩١١م).. وإسحق بن سليمان الاسرائيلى ، الفيلسوف اليهودى المولود بمصر عام ٨٥٠ م .. واسحق بن عمران الطبيب البغدادى (أواخر القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى).. وليس ببعيد عن الأذهان موسى قطاوى باشا - اليهودى المصرى - الذى تولى وزارة المالية فى مصر فى القرن الماضى !

من أبرز أصداء " المساواة " فى الإسلام ، المساواة أمام الضرائب والأعباء العامة .. فى الزكاة على سبيل المثال - يتساوى المسلمون فى إخراجها بنسبة واحدة فى النقد والثمار والغنم والزرع والركاز وغير ذلك . ولأن الزكاة فريضة مالية تعبدية ، فلا تفرض على غير المسلمين ، فلم يتذرع الإسلام " بالمساواة " ليفرض الزكاة على غير المسلمين ، وإنما أعفاهم منها ، بينما لم يجز لمسلم أن يتحلل

أو يتميز عن باقى المسلمين فى نصيبه المقدور من الزكاة طبقا لما لديه .. فلا يجوز الإعفاء من اخراج الزكاة ما دام المكلف يملك النصاب .. "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا " . (التوبة ١٠٣) .. كما لا يجوز تخفيضها عن تقاديرها التى يتساوى الناس فيها كل بقدر نصيبه المقدور .

الاستعانة بالصبر والإسماح

على كثرة وجسامة ما لقيه نبى القرآن والمسلمون الأوائل من أذى اليهود والمشركين ، أمروا بالصبر والإسماح .. وصبروا .. يقول لهم القرآن : " وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ " . (المائدة ٢) ، ويوصيهم فيقول لهم : " لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ . " (آل عمران ١٨٦)

يعتنق الإسلام ، ويعرف المسلمون من قرآنهم المجيد ، أن الناس قد خلقوا مختلفين فى عقولهم وقدراتهم ، وفى فهمهم وعقائدهم .. هذه السنة الكونية تحدث عنها القرآن الحكيم فقال : " وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . " (هود ١١٨) .. لا يقابل الإسلام هذا الاختلاف بالازدراء أو بالعداء ، وإنما يمد للأغيار الهداية والإسماح .. لا يجبر الإسلام أحداً على اعتناقه ، وليس صحيحا أن الجزية كانت للإكراه على الدين أو مقابل لعدم الإسلام ، وإنما هى ضريبة لا تحميل فيها .. فغير المسلم يتمتع بكافة مرافق ومنافع وحماية دار الإسلام التى يتمتع بها المسلم ، ولا يؤدى الأغيار فريضة الزكاة التى يؤديها المسلم لأنها تعبدية ، فكان من سماحة الإسلام وعدل وسلامة منطقه أن لا يلزم بها غير المسلم .. الجزية إذن ضريبة يؤديها غير المسلم الذى لا تفرض عليه الزكاة لأنها فريضة تعبدية ، ومن ثم كانت الجزية مساهمة اجتماعية فيما يعود على مؤديها من حماية ونفع من العدل أن يتساند المجتمع كله ـ

المسلم وغير المسلم ـ في الوفاء بمستلزماته ، ومع ذلك فإن الجزية ـ على عكس الزكاة ـ ترد إلى دافعها إذا حال عائق يحول دون الدفاع عنه ، وتسقط عن المرضى والضعفاء والمساكين وغير القادرين .. الذمي ـ يهوديا كان أو مسيحيا ـ مصون في ماله ودمه ، محفوظ في عرضه وشرفه ، متاح له نصيبه من بيت المال ومن الوظائف العامة والخاصة .. " الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ " (المائدة/٥) .. في عهد النبي عليه السلام لأهل نجران: " ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله .. ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر " .. الذميون في الحديث : "لهم مالنا وعليهم ماعلينا " .. أموالهم وحقوقهم كأموال المسلمين وحقوقهم ٠٠ ينتصر لهم رسول القرآن فينهى عن أذاهم أو ظلمهم أو التعرض لهم .. يقول للمسلمين : " من آذى ذمياً فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة " .. ويقول : " ألا من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه أو أخذ منه شيئا بغير

طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة . ".. غير المسلم على دينه ، لا يلويه أحد ولا يجبره على ترك دينه .. فى كتاب النبى عليه السلام إلى عامله باليمن : "من كان على يهودية أو نصرانية فلا يفتنن عنها " .. لا يبيح القتال إن أبيح وقامت ضرورته ما استباحته الشرائع الأخرى من قتل وحرق وتدمير وسبى واسترقاق .. بل ويحرص الاسلام على صيانة حقوق المتعبدين وما يدينون ويؤمنون به.

لم تكن الصورة الرائعة التى قدمها الصحابة والتابعون ومن تلاهم - حتى فى فترات الانحدار ، إلاّ صدى وفهما مطبوعاً فى نسيجهم عن روح ومهجة وسماحة الإسلام - لا ينظر أحدهم خلفه مستحضرا صفحات السيرة، إلاّ طالعته مواقف رائعة موحية ، تضيف إلى شجرة التسامح الباسقة ، حبات للعقد الفريد الذى اكتملت به منظومة الإسلام التى ضربت للبشرية أعظم وأحكم المبادئ والأمثال لحقوق الإنسان حيث كان .

* * *

اتسـعت سـمـاحـة الإسـلام لكافـة الأغـيـار .. منذ عـهـد الراشـدين ، عومل الصابئة عبدة الكواكب في شمال العراق معاملة أهل الكتاب، واتسعت سماحة الإسلام حتى للمجوس عبدة النار الذين ظلت مـعابدهم تملأ أراضى الإسلام لقرون في بغداد وفارس وكرمان وسـجستان وخراسان وأذربيجان ، مثلما اتسـعت سماحتهم لأهل الكتاب من يهود ونصارى .. عاش أهل تلك العقائد والأديان ، على تنوعها واختلافها ، مستقرين آمنين فى دوحة الإسلام .. هذا الأمان طمأنهم إلى حاضرهم وغدهم ، فأقبلوا طائعين مختارين على تعاطى الحضارة الإسلامية ودراسة لغتها ثم الإسهام فيها .. فى جميع العهود الإسلامية ، قديمها ووسيطها وحديثها ، ظلت شجرة التسامح الباسقة جاذبة لهؤلاء الأغيار جميعا فضرب كل منهم بسـهم فى هذه الحضارة ، ومنهم من بزغ نجماً لامعاً فى سمائها !

لا مجافاة في الإسلام للأغيار

الإسلام لم يجاف الأغيار ، ولم يعطهم ظهره .. ولم تميز الحضارة الإسلامية بروح إسماحها ، بين المسلم وغير المسلم ، نعم فيها اليهود بكل الحقوق والمزايا - رغم ميلهم إلى العزلة وحرصهم بفكرة " الجيتو " على التمايز وعدم الانخراط فى النسيج العام .. لم يتح لليهود فى حضارة من الحضارات ما أتيح لهم فى واحة الحضارة الاسلامية .. وهيأ الإسماح الإسلامى أن يبزغ منهم نجوم .. منهم تمثيلاً لا حصراً ، موسى بن ميمون الطبيب الأندلسى الشهير الذى انتقل من الأندلس والمغرب العربى إلى مصر وعاش مكرماً فى ربوعها ، وإسحق بن سليمان الإسرائيلى المولود بمصر ٨٥٠ م ، حيث تنقل بينها وبين القيروان ونبغ فى الطب والفلسفة والحساب والهندسة وتأليف اللحون وعلم النجوم ، وصار من أعلام من نبغ من اليهود فى الفلسفة فى بلاد المغرب ، ومعاصره إسحق بن عمران الطبيب اليهودى الذى بدأ ببغداد ونبغ وذاع صيته فى المغرب

العربى وصنف الكتب والمؤلفات ، من هؤلاء اليهود هبة الله ابن جميع ، الطبيب المصرى اليهودى المتوفى ١١٩٨م الذى كان طبيبا للناصر صلاح الدين .. استوزر الخلفاء منهم ، وفتحت الأندلس الإسلامية مصاريعها لليهود على مدى ثمانية قرون .. احتموا فى ظلها من اضطهاد الغرب .. ونرى اليهودى " حسداى بن شبروط " يصير وزيرا (٣٣٤هـ/٩١٦م) لعبد الرحمن الناصر الأمير الأديب الأموى وأبرز حكام الأندلس .. لم يُصادَر على هذا الوزير اليهودى ، ولا ضُيِّق عليه أحد ، فانطلق يبعث حركة للدراسات التلمودية ، مضت نشيطة متخففة حتى صارت الأندلس برضاء الحكم الإسلامى مركزا للدراسات العبرية .. حين أزيح المسلمون من الأندلس بسقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢ م) وانطلق الإسبان يعيثون فى اليهود إيذاء واضطهاداً بعد غياب شمس الإسلام عن البلاد، لم يجد اليهود فرارا من طغيان واضطهاد الملك فيليب الثالث لهم، إلاّ النزوح إلى ديار الإسلام فعبروا مضيق جبل طارق هاربين

لائذين بتسامح الإسلام والمسلمين فى المغرب العربى ..
إلى هذه النزوح العدد الكبير نسبيا الذى لليهود فى المغرب
العربى الذى فيه واصلوا العيش دهوراً فى دوحة التسامح
الإسلامى ، فاغتنوا وأثروا وشكلوا جالية كبيرة لا تزال آية
على إسماح الإسلام وموقفه الفريد من الأغيار .

سماحة الإسلام مع النصارى وأتباع السيد المسيح ،
سماحة لازمت نزول الذكر الحكيم .. " لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ
عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ
مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ
قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ × وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ
إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ
الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ " (المائدة/٨٢،
٨٣).. فى كتاب النبى عليه السلام إلى عامله باليمن
ألا يفتن نصرانى عن ملته .. عاش هذا كله فى نسيج وحنايا
المسلمين حتى شاهد العالم صورة للتسامح الإسلامى فى
معاملة النصارى تجل عن أى وصف .. يرى القاصى والدانى

عمر بن الخطاب يتحرج من الصلاة فى كنيسة القيامة مخافة أن يطمح المسلمون فى اتخاذها مسجدا .. ويوصى المسلمين من بعد ، ألا يصلــوا على " الدرجة " التى صلى عليها إلاّ واحداً واحداً غير مؤذنين للصلاة وغير مجتمعين .. يكتب لصفرونيوس حين تصالحا على بيت المقدس كل ما طلبه من أمان وضمان لعدم مساكنة اليهود لهم مخافة الإيذاء الشديد الذى يلاحقونهم به .. يتراجع عمر بن الخطاب على صرامته عما كان قد شرع فيه من نهى عن استقبال النصارى له بالشام باللعب أمامه بالسيوف والريحان كما تعودوا فى احتفالاتهم بالعظماء .. ما يكاد أبو عبيدة بن الجراح يلفت نظره إلى أن هذه عادتهم وأنهم قد يعدون نهيه لهم عن اللعب نقضا للعهد الذى أعطاه لهم ـ حتى يرجع عمر عما شرع فيه من نهى ، ويقول فى سماحة ومودة : " دعوهم ..عمر وآل عمر فى طاعة ماراه أبوعبيدة " .. وهذا عمرو بن العاص ، يدخل مصر فيعطى أقباطها الأمان على كنائسهم

وصلبانهم ولا يمد يده قط إلى شىء من أملاك الكنائس ولا يتدخل فى شأن من شئونها .

في الأندلس الإسلامية

فى الأندلس ، كفل المسلمون للمسيحيين واليهود حريتهم الدينية ، لم يجبر أحد من الأغيارعلى ترك دينه ، أو يُقسر على اعتناق الإسلام .. وكما صان المسلمون فى الأقطار الأخرى المعابد والأديرة والكنائس ، حتى معابد المجوس عبدة النار فى شمال العراق وفارس .. صانوا وحفظوا المعابد والأديرة والكنائس فى الأندلس ، واحترموا الشعائر والأحبار والقسيسين والرهبان، وأفسحوا للجميع فى مناصب الدولة ، حتى لترى " قومس بن أنتنيان " واليا للحاكم محمد بن عبد الرحمن الأموى (٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ) فى جمع الضرائب من أهل الذمة وكاتبا يشارك فى إدارة شئون الدولة .. لم تكتف السماحة الإسلامية فى الأندلس ببسط الفرص الكاملة الواسعة لأداء شعائر الأديان الأخرى،

وإنما أعفوا المسيحيين من العمل أيام الآحاد ليقوموا بصلواتهم فى كنائسهم.. إلى هذه البحبوحة السمحة التى نعم بها الجميع ، إقبال كثيرين بكامل طواعيتهم وحريتهم على اعتناق الإسلام ، وإقدام الكل - من أسلم ومن لم يسلم - على المساهمة فى صنع الحضارة الإسلامية ، وفى بعث حركة كبرى للترجمة من العربية إلى الإسبانية لعلوم وفكر العرب ، وامتدت إلى ترجمة القرآن الكريم ، وتعددت المدارس فى المدن الأندلسية التى تسهم فى هذه النهضة وفى حركة الترجمة الكبرى .

هذه الشجرة الباسقة للتسامح الإسلامى ظلت فروعها ممتدة إلى العصر الحديث .. موسى قطاوى باشا ، اليهودى المصرى ، ولِىَّ وزارة المالية المصرية فى القرن الماضى ، ووُلِّىَ نوبار باشا الأرمنى الأصل - (١٨٢٥ - ١٨٩٩) رئاسة الوزارة المصرية ، ومكرم عبيد كان شعلة حية للعطاء بلا فوارق دينية سواء فى مرحلته مع الوفد المصرى ، أم بعد خروجه وتأليفه حزب الكتلة الوفدية .. كبار الأثرياء

والتجار : جاتينيو وشيكوريل وصيدناوى وعائلات قطاوى ومصيرى ، ورولو ، وسوارس ، فضلا عن المستشفيات اليهودية (المستشفى الإسرائيلى) والأندية والجمعيات اليهودية التى باشرت أنشطتها فى مصر بلا أى قيود !

المزارات المسيحية في مصر الإسلامية

المزارات المسيحية فى مصر الإسلامية ، مزارات للمسلمين أيضاً .. مزارات سانت كاترين ، والقديس مار جرجس ، والقديسة دميانة بالدقهلية ، وسانت تريز بشبرا ، ودير المحرق بأسيوط وغيرها ، مزارات يوقرها ويزورها ويتبرك بها المسلمون .. هذه الصورة الرائعة لاحترام الأغيار والتآخى بين الأديان ، محال أن تراها ـ فى غير الإسلام .. الغرب الذى يتغنى بالحرية والاخاء ، محال أن يتخذ أحد منه مزاراً إسلاميا يتبرك فيه رعاياه .. لم يحدث ، ولا أظنه يحدث ، أن يتسمى أبناء اليهودية أو المسيحية باسم محمد عليه السلام ، أو باسم من الأسماء الإسلامية التى ارتبطت

بالصحابة والتابعين وأعلام الإسلام ، بينما أقبل المسلمون بسماحة الإسلام ، على تسمية أولادهم بأسماء أنبياء الأديان والرسالات الأخرى لا يستثنون من ذلك أنبياء بنى إسرائيل .. فى البلدان الإسلامية ترى فى المسلمين أسماء نوح وموسى ويعقوب وعيسى وداود وسليمان ويوسف واسحق وهود ويونس وهارون وعمران ومريم وشعيب .. يكثر المسلمون من تسمية أولادهم بهذه الأسماء ، ولا يجدون فى ذلك غضاضة ، بل ولا يلتفتون إلى ذلك لأنه صار جزءاً من نسيجهم طبعوا عليه من سماحة الإسلام وتوقيره وإجلاله لكل الأنبياء ولجميع الأديان والرسالات .

الوفاء بالعهود في الإسلام

رعاية الإسلام للأغيار لم تهملهم حتى حين تشجر الحروب ولا تكون هناك مندوحة عنها .. لا تعطى الحرب ان وقعت ذريعة للإخلال بالعهود التى قدمها الإسلام على

سواها، لم يكد صلح الحديبية يبرم حتى لاذ بالمسلمين قرشى أسلم ، فأبى النبى عليه السلام إلاّ أن يرده إلى ذويه احتراما لعقد الصلح الذى أبرم .

فى نقض اليهود للعهد الذى أبرم بينهم وبين النبى عليه السلام ، أنزل الله عز وجل : " إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ . " (الأنفال ٥٥،٥٦) .

لم يحل شرك قريش دون الوفاء بالعهد المعطى لها ، وهذا فرع على مبدأ عام ورد فى الذكر الحكيم .. يقول عز من قائل " :إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ" (التوبة ٤) .. يمضى الاتفاق أو العهد أو الميثاق ساريا إلى ميقاته وأجله..

ما استقام المعاهد ، يجد صدى استقامته فى وفاء من الإسلام والمسلمين بالمثل : " فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ " (التوبة ٧)

تنبه الإسلام ، ونبه ، إلى أن " العهود " مع الأغيار هي السبيل لاستقرار السلام ، وتفادى ويلات القتال .. ويستطيع المتابع للسيرة النبوية منذ بداية تكون المجتمع الإسلامي فى المدينة ، أن يلحظ أن معظم اهتمام النبى عليه السلام كان بإرسال البعوث إلى القبائل المحيطة بالمدينة لتبادل التعاهد على المسالمة ، وظلت هذه سياسة مرعية فيما تلا ذلك من مكاتبة للملوك أو الأمراء أو زعماء القبائل الحاكمة . فور الوصول إلى المدينة تلازمت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار مع " معاهدة اليهود " بعهد عقده ووادع فيه اليهود وأقرهم على دينهم وعبادتهم وأموالهم ووضع أسسا تسير عليها العلاقات بين الفريقين فى سلام وأمان .. فى هذا العهد ، ساوى بين اليهود والمسلمين فى وجوب النصرة : " ومن تبع المسلمين واليهود فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم"

فى العقد الذى عقده الرسول عليه السلام مع نصارى نجران : " لنجران وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد النبى

رسول الله ، على ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته ، وليس عليه دنية ولا دم جاهلية ولا يخسرون ولا يعسرون ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر ، وعلى ما فى هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبى الأمّى رسول الله أبدا ، حتى يأتى الله بأمره ."

ومركز الأجانب فى دار الإسلام ، صورة لافتة من صور العناية الباكرة بهذا الفرع الذى يتصل بأحكام القانون الدولى . وللعالم الجليل الأستاذ الدكتور حامد سلطان مؤلف ضاف فى أحكام القانون الدولى فى الشريعة الإسلامية يلاحظ فيه أن الشريعة الإسلامية أفردت للأجانب معاملة خاصة قفزت قفزات هائلة صعوداً بأوضاعهم وحقوقهم ومعاملتهم بعدما كانوا يعاملون به قبل الإسلام من معاملة عدائية، على سبيل المثال نظر اليونانيون القدماء إلى الأجانب على

أنهم " برابرة " أعداء أعدتهم الطبيعة ليكونوا خدماً وعبيداً لهم ، فكان للشريعة الإسلامية ، أثر هائل فى تطور معاملة الأجانب والاعتراف لهم بمركز قانونى منظم عومل به " الذميون " و" المستأمنون " معاملة متميزة قوامها :العدالة ، والمعاملة بالمثل ، والوفاء بالعهد ، والأخلاق ، ونصر الضعيف دون الالتفات إلى جنسه أو لونه أو دينه .

ولأن الحرب قوامها الشر ، لم تعرف فى ممارستها حدودا ولا ضوابط ، فتحللت فى نظر الأفراد والمجتمعات من أى قيد ، وجرت بلا أى ضابط ، تستبيح القتل للقتل ، ولا تستثنى منه مسالما ، ولا شيخا ولا طفلا ولا امرأة .. السبايا تقتل وتذبح وتحرق ، ولا تستبقى - إن أُبقيت - إلا للاسترقاق بأنواعه وأشكاله وأغراضه وشهواته !! .. مضى هذا العرق الممدود يصاحب البشرية فلا تلتفت بتاتا إلى التخفيف من ويلات الحرب إن لم يكن منها بد ، مثلما لم تلتفت إلى مزالق الاندفاع إليها مع القدرة على تحاشيها ، لأن المطامع والشرور غلبت العقل

والحكمة ، لم ينج تحريف كتب بعض الأديان من تمجيد القسوة وسفك وإراقة الدماء واسترقاق خلق الله وتذبيح وتحريق الأسرى بعد وضعهم تحت مناشير ونوارج وفؤوس الحديد .. فإن أفلت من التقتيل والتحريق أحد فليكون مطية مستعبدة مملوكة فى حياتها وجسدها وعرضها !!

لم تعرف البشرية قانونا للحرب يخفف ويلاتها قبل الإسلام.. لم يبح الإسلام الحرب إلاّ لضرورة الدفاع أو إزالة الصد عن سبيل الله ، وبقيت فى شرعة الإسلام مكروهة لا تباح إلاّ لضرورة تظل محكومة بها فلا تجاوزها ولا تتعداها ، لا يخوضها الإسلام - إن فرضت عليه - للتقتيل أو التذبيح أو التحريق ، وإنما لغاية سامية تُوقَفْ الحرب ويُجْنَح إلى السلم فور بلوغها .. لا تمضى الحرب - إن مضت ولم يكن منها بد ، مسلوخة عن شجرة الأخلاق الإسلامية التى راعى الإسلام أن تحكم حياة الناس حتى فى حربهم .. من الإسلام عرفت الإنسانية أول أساس لقانون الحرب الذى فرض لها الضوابط وقلم الجموح للتخفيف قدر

المستطاع من ويلاتها وشرورها .. حسبنا أن نعرف أن الإسلام أول من احترم الأسير وأفسح لنجاته ولمعاملته بالحسنى ولقبول الفداء بل والمن بإطلاقه ..

فمع أن المحارب الأسير ، سلف منه القتل ، إلا أن الإسلام لم يضن عليه بالحماية ، فوضع القرآن دستورا عظيما في رعاية وفداء وتبادل الأسرى ، بالآية الرابعة من سورة محمد التي قضت في شأن الأسرى بقولها : " فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا" (محمد/٤) .. بل وأضاف الإسلام عدم جواز استرقاق الأسير ، فإما المنّ وإما الفداء ، ولا سبيل غير هذا ، ثم أضاف القرآن الأسير إلى من تجب لهم الصدقة والرحمة والإطعام ، فيقول عز وجل في صفات المؤمنين : " وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا " (الإنسان/٨) .

لا كانت هناك عصبة أمم ، ولا أمم متحدة ، ولا مجلس أمن ، ولا اتفاقيات جنيف ، ولا شيء مما جاهدت الإنسانية فيه طويلاً لبلوغ ما بلغه الإسلام من أربعة عشر قرناً حتى

صار فقهاء القانون الدولى يسلمون على اختلاف أجناسهم ومللهم وأديانهم بأن الفضل فى سن قواعد لقانون الحرب هو لشريعة الإسلام . هذا التعانق الفريد ، بين " المساواة " و " التسامح "فى الإسلام ، يشكل ملمحا ناصعا من ملامح عالمية هذا الدين وعنايته بالأغيار .. لا يطلب الإنسان .. أى إنسان .. من دين لا يدين به ، أكثر من أن يحس فى كنفه بالمساواة مع الجميع .. قد خلق الناس مختلفين ، والاختلاف بين الأحياء سنة كونيّة .. تتسع الديانة للعالمين حين تراعى هذا ، فتفتح قلبها بالمساواة والتسامح ليحيا الجميع فى دوحتها فى مساواة لا تمييز ولا تعال ولا اضطهاد فيها .. عبقرية الإسلام أن " الأمان " الذى تبنى دوحته ، يؤمه ويستظل به غير المسلم مع المسلم ، لا يصادر على أحد فى دينه أو ملته أو معتقده .

الإشكالية فى العدوان الاستعمارى التفريغى الإحلالى الاستيطانى!

الإشكالية إذن فى هذا العدوان الحاضر الذى يتغول على الأراضى والأرواح والكيان ولا يستبعد الدين ومعتقدات الناس من الافتراء الجائر المغلوط .. ما يجرى الآن دفاع مشروع ، تحض عليه كل شرائع الأرض والسماء ، تطلب إلى الإنسان وتأمره أن يأبى التجبر والعدوان عليه وعلى كيانه وروحه وترابه ، وأن يقاوم ذلك ما وسعته المقاومة .. هذا الفداء دفاع مشروع بكل المقاييس إزاء " إرهاب " متغول جاء من أشتات الأرض يستهدف الشرق الإسلامى برمته ، ويزرع رأس جسر - بالتفريغ والإحلال والاستيطان فى أرض فلسطين ، لينطلق منها لتحقيق مشروع البلقنة الكبير الذى ينظر باستعلاء إلى العرب المسلمين نظرة دونية تنطلق من تحالف مصالح الاستعمار الغربى ، مع المعتنق الصهيونى العنصرى !! فهل ينظر العالم نظرة إنصاف ، فإن أعوزه الإنصاف ، أليس جديرا به أن ينظر بفهم قبل أن يجر

هذا العدوان الدنيا بأسرها إلى ويلات مشرئبة سوف تأتى على الأخضر واليابس وتدفع الإنسانية كلها ثمنها الفادح ؟!!

الأديان .. وشرنقة الاعتياد ؟!

يعرف دعاة الإصلاح ، مثلما يعرف علماء النفس والاجتماع ، والمتأملون فى أحوال الإنسان - . أن شرنقة العادة أو الاعتياد ، هى الجدار العالى الذى تتكسر عنده محاولات الآدمى منذ كان للهداية أو الإصلاح أو الترقى أو التغيير أو التطوير ، وأن هذه الآفة - آفة أو شرنقة الاعتياد - هى أعوص ما تواجهه دعوات أو حركات أو محاولات أو رغائب الهداية أو التنوير أو الإصلاح أو الترقى أو التغيير ، للفرد أو للجماعات - أيا كان شكلها أو نظامها أو أحوالها !!!

وسلطان العادة أو الاعتياد ، غير ظاهرة : التكرار و" الإعادة " التى تكاد تنطبع بها حياة الآدمى منذ كان .. فحياة الآدمى منذ تخليقه جنينا فى الأرحام ، يرد عليها التكرار والإعادة ، فى حركات الآدمى وفى سكناته .. الواعية

وغيـر الواعيـة ، وهو خـضـوع لا يخلو من الفـائدة لأن إليـه الضبط النسبى لمعدل نمونا المناسب بدنيا وعاطفيا وعقليا . ذلك أنه يستحيل أن تستمر حياة أى حى - إنسانا كان أو حيوانا أو نباتا - دون الإذعان لناموس " التكرار والإعادة " .. وهو ناموس يبدو مطلقا قاسيا فى الحيوان وفى النبات ، ولكنه مع مرور الزمن يصير نسبيا فى البشر لأنه تنمو فيه مرونته وتخف تبعا لذلك سيطرته وتتكاثر فيه الثغرات التى ينفذ منها نشاط العقل النامى المتطلع المتوثب الطامح - إذا تيقظ - إلى المزيد ومزيد المزيد من اتساع الرؤية والفهم وصحتهما .. على أن إيجابية ناتج " التكرار والإعادة " .. لا تنجو من جانب مأساوى حين يسيطر هذا الناموس على كل مصدقات وتقاليد وعادات وأساليب ومشارب وقيم ومثل وآمال وأمانى البشر ، وحين يهيمن على طرق التفكير والتصور والفهم والرؤية والإدراك والتمييز بين الصواب وغير الصواب ، سواء فى اختيارات الناس أو معارفهم أو آدابهم أو فنونهم أو أخلاقهم أو مذاهبهم بشتى

أنواعها وألوانها! .. وإلى هذا الجانب المأساوى ترجع معظم الأخطاء والفظائع والحماقات والمعارك الفردية والجماعية ، وبسببها تقع أغلب الأزمات والفتن والكوارث والنكبات والحروب ، ويتشكل الجانب المعتم الحزين فى معظم ماضى وحاضر البشر ، لأن التكرار والإعادة كما يتسببان فى تقوية حفظ الحافظ وفهم الفاهم ، وأدب الأديب ، وفصاحة فى الفصيح ، وحب المحب ، ومحاسن الحسن ، وعطف العطوف ، وصدق الصادق ، ووطنية الوطنى ، وصلاح الصالح ، وإيمان المؤمن ، وفطانة الفطن ، وعفة العفيف ، وأمانة الأمين ، وصبر الصابر ، وشفقة الشفيق - فإنهما يتسببان أيضا : التكرار والإعادة ، فى تقوية وتحكم الشعور بأضداد ما تقدم كله ، فتقوى أو تتحكم أو تستحكم صلابة المتصلب ، وجمود المتجمد ، وقسوة القاسى ، وصعوبة الصعب ، وقبح القبيح ، ونكران المنكر ، وجشع الجشع ، وخطورة الخطر ، وخيانة الخائن ، وحقد الحاقد ، وإجرام المجرم ، وتهور المتهور ، واندفاع المندفع ، ورعونة الأرعن ،

وأذى المؤذى ، وضراوة الضارى ، وحمق الأحمق ، وقفر المقفر ، وإجداب المجدب .. لأنه مع تكرار هذا أو ذاك وإعادته يغور ويقوى ويتمكن ويشتد فى اللاوعى وفى الوعى ، وينزرع فى النسيج والطباع ، وإلى ذلك ترجع الشرور والآثام التى تذوى وتنحدر بها أحوال الجماعات مع مرور الزمن !!!

وللتكرار والاعادة ناموس سارٍ فى بنية وأساس الكون كله ، شموسه وأرضينه ونجومه وكواكبه وأجرامه وأفلاكه ومجراته وعناصره وذراته وجزيئاته .. وهما فوق ذلك شرطان أساسيان فى كل تدريب وتمرين وتعليم ، ويستحيل بدونهما أن تمضى حياة البشر !

وكما أن شرنقة العادة أو الاعتياد ، ليست هى ناموس التكرار والإعادة ، فإنها أيضا ليست "التلقائية" التى تصاحب المولود - أيا كان - منذ يخرج إلى الحياة ويباشر التعامل معها .. فهذه التلقائية هى تلقائية الحياة المعاشة بأجهزة الآدمى الجارية العاملة الخالية فى جريانها وعملها

من " التــردد " فى عـملها الدءوب المسـتـمـر لأداء وظائفـهـا حسب توجيه أدوات التنسيق والرقابة والاتصـال والأفـعـال وردود الأفعال فـى الأجهزة المركبة ـ بمواصفاتها ـ فى كيان الحى لكى يتمكن من الحياة فى محيطه المتاح له فى الزمـان والمكان ! ولذلك فـإن هذه " التلقائيـة " أظهر وأشـد وضـوحـا فى الصـغـار عنهـا فى الكبـار ، لأن الصـغـار لا يكـادون يعـرفـون الشـك فيما يأتونـه مـن حـركـة أو سـعى أو أخـذ أو عطاء ، ويقبلون على سلوكهم بتلقـائيـة بلا تفكير لأنهـم ـ مع الغضاضة ـ قلما يعرفون الخوف أو التوجس أو الخطـر ! ومع امـتـزاج " التلقـائيـة " بالثـقـة ، فـإنـهـا تغـدو دعـامـة من دعامـات المعرفـة البشـريـة بكل أنواعـهـا ودرجـاتـهـا ، وحـاجـة إنسـانيـة تتطبع بالعـصـر والبـيـئـة والمحـيـط والظـروف والمواهب ، ومقودة بالفهم والعقل .

أمـا العادة أو الاعتياد ، فإنها " شرنقة " تحاصر الآدمى وتكبله وتطويه وتدفعه إلى استسلام خابٍ يخلد إلى ما ألفه ، ويخشى ويخاف ويقاوم إلى حد الحرب والقتـال ـ كل جـديد

غريب على ما اعتاد أن يأنس ويرتاح إليه بلا جهد ولا عناء ولا تبصر ولا تفطن ولا مجاهدة ولا إعمال فكر.. وأخطر ما في شرنقة العادة أو الاعتياد ، أن أسلحتها الصادة المانعة الحائلة المقاومة تعمل عملها في جد ونشاط وراء الستار في كواليس ودهاليز اللاوعي .. قد لا يتبينها وعي الآدمي ، ولا يقبض عليها ، ولا يعرف بوضوح سمومها الماضية المكبلة القاعدة بوعيه وفهمه وإدراكه ـ عن أي تطلع إلى جديد يبتغي الهداية أو التنوير أو الترشيد أو الإصلاح أو الترقي أو التغيير أو التطوير !!!

لهذا " الجمود " و" الإخلاد " إلى حصار " شرنقة " العادة أو الاعتياد ـ يرجع كل ما واجه ويواجه الأديان ودعوات وحركات الإصلاح أو الاستنارة أو التغيير أو التطوير ـ من مقاومة عاتية ضروس تتمسك بالقديم وتقاتل من أجله ، وترفض الجديد ولا تتردد في شن الحرب عليه !

مع أن أحدا من الناس لا يختلف على لزوم الترقي

والإصـلاح ، ووجـوب التنوير والتطوير والتـغـيـيـر ، وطلب الأفضل والأكمل والأكثر تعبيرا عن الحق والصواب !

بيـــد أن اتفـــاق أو رغبة وأمـــل النـاس فـى الترقـــى أو الإصـلاح أو التطوير، لم يجـر قط على مـا يوافق منطق العـقل أو أمـانـي ورغـاب الناس .. وإنمـا اصطدم على الدوام بجدران " العادة والاعتياد " ، ولم يستطع أن ينسلت بسـهولة من الواقع رغم حمقه ومرارته إلى المأمول مـهما كان ما فيه من صـواب وحـق وسـداد حكيم ومـأمـون وواعـد ! لم ينفـــع دعـوات الـهداية ولا حـركـات الإصـلاح والتـرقى أن الآدمى مـفطور على نشـدان الأفضل ، ويتطلع ويرنو دومـاً إلى صـور أجـمل يتـمنـاها ويهـفـو إليـهـا وربمـا يرغب رغـبـة قـويـة فى تحقيقها !!

يدل تـاريخ الإنسـانيـة على أن إخـفـاق دعـوات الـهـداية والتنوير ، أو حركات الإصلاح والترقـى والتـغيير ـ لم يكـن كله راجعا إلى ما يصـادفـها من معوقات أو عوارض أو قلة الامكانيات أو تصـاريف الظروف والأقدار أو مـعاندة الخطوط

أو الصراعات والمنافسات والمثبطات .. فهذه وغيرها عوارض متوقعة لا تحول الأحلام دون توقعها والتحسب لها والصبر عليها واحتمالها ، واستحضار القدرة على مواجهتها وتذليلها ، واستثارة الخيال واستلهام الحلول الإبداعية منه ومن مخزون الخبرات والمعارف ـ إلى غير ذلك مما اعتاد الناس قديماً وحديثاً أن يواجهوا به ما يصادفهم من مشاق وعقبات وصعاب ، ويحققوا به ما يراودهم من آمال وأحلام وأمنيات !

أشد وأعوص ما يصادف الدعوات ، أو يواجه حركات الإصلاح ـ هو ما ينبع من ذات الآدمى نفسه وما فى داخله من معاول مقاومة ذاتية .. قد تكون لصاحبها غير مرئية أو غير مدركة ، ومع ذلك تكبله وتشده على الدوام إلى قاع ما ألفه وجمد عليه واعتاده ، وتجذبه بخيوط كامنة مستترة إلى الارتياح إلى ما هو فيه ، وتصرفه عن الهم والنَّصَب والجهد والتعب والمكابدة والمخاطرة والمجازفة بترك " القديم " "المجرب" إلى " الجديد " " غير المجرب " ..

هذا كله من عمل " شرنقة " قانون العادة أو الاعتياد المكبل للهمم والعقول ، ولعبه غير المرئى أو غير المحسوس فى أدمغة وعقول ومشاعر الناس - تدل على ذلك كل شواهد الماضى والحاضر ، فى أبسط الأمور وفى أشد وأعقد المعضلات سواء بسواء !!

أظهر الآيات على سلطان قانون العادة ، أو مكبلات شرنقة الاعتياد ، ما واجهته كافة رسالات النبوات من صد ورفض ومقاومة وإيذاء .. لم ينج من شرور الكفر والكافرين - نبى ولا رسول من الأنبياء والرسل .. اجتمع الكفار والمشركون فى كل عصر ، على الصد والإنكار ، وعلى الرفض والمقاومة ، وعلى الإساءة والإيذاء ، يدفعهم إلى هذه الصورة المتكررة مع جميع الرسل والأنبياء - الإلف والاعتياد والارتياح القاعد الكسول إلى كفرهم الضال الشقى التعس الخالى من أى معنى ، المغرق فى تيه لا منطق له ولا بصيص من نور فيه !! .. الذين عبدوا الأصنام ، أو العجل ، أو النار أو الكواكب أو " الطوطم " ممثلا فى طائر

أو حيوان أو غير ذلك مما يستحيل أن يعبده أو يقدسه عقل يفكر !! هؤلاء جميعا إنما كانوا محاصرين بشرنقة الاعتياد أسرى لقانون العادة الذى صرفهم بتغلغله فيهم عن النظر وإعمال الفكر وشحذ العقل ، يجذبهم إلى ما اعتادته النفوس الضالة الخامدة ، أنهم لا يريدون تعباً ولا نصباً ولا مجاهدة ، ولا حاجة بهم - هكذا يسرب قانون العادة ، إلى المجازفة إلى المجهول !! لا يلفتهم ما فى الواقع الحاضر من سخف وضلالة ، ولا ما فى الجديد المنشود من نور وحق ومنطق ، بل يقلبون الآية ، ويحسبون النور ظلاما والحق باطلاً والمنطق خطلاً .. حتى ليقول قائلوهم فى إنكار دعوة التوحيد التى يدعوهم إليها رسول القرآن : " أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ " (ص ٥) - لا يدركون فى عماهم الضرير أن العجب العجاب هو فى تعدد الآلهة لا فى أن يكون للكون كله إله واحد !!

" اعتياد " الكفر ، هو " الشرنقة " الى جمعت جميع الكافرين فى صدهم للأنبياء والرسل فى كل عصر .. وكأنهم

كانوا جميعا ينطقون بلسان واحد ، وعلى نسق واحد ، ووتيرة واحدة ، وعلى إيقاع واحد يجمع خيوطه على اختلاف الأقوام والعصور والأزمان ، إلف هؤلاء وأولاء واعتيادهم وجمودهم وتقديسهم الضرير وتمسكهم بما ألفوا ووجدوا عليه آباءهم وأجدادهم .. لا يجدون فى هذا الجمود إلاّ الحق ولا حق سواه ، وغيره باطل لا صحة ولا سداد فيه !!!

الذين سمعوا وصدوا نوحاً عليه السلام ، لم يتذرعوا إلاّ بالعادة الموروثة الناشبة فى حناياهم عن الآباء والأجداد ، فتعللوا قائلين فيما يروى القرآن المجيد : " مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ • إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ " (المؤمنون ٢٤ ، ٢٥) .. فى ذات هذه الوهدة يتردى قوم ابراهيم الخليل ، مع أنه عليه السلام شرح وبين وأوضح وساق حجته لأبيه : " إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا " (مريم ٤٢).. لم يثن هذا الشرح والبيان ـ قوم إبراهيم عن لجاجة الإخلاد إلى شرنقة العادات الموروثة عن الآباء والأجداد .. لم يجدوا

مـا يردون به على تعـجب إبراهيـم لهم عـن عـبـادتهـم أصناماً لا تسـمـع ولا تنفع ولا تضـر ، إلاّ الـهروب إلى عـالم الأجداد الغابرين ، فقالـوا فيما يرويه القرآن : "بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ " (الشـعراء ٧٤) .. تروى هذا المشهد سورة الأنبياء فتقول عن إبراهيم الخليل وقومه " :إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ • قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ • قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ " (الأنبياء ٥٢-٥٤) .. لا يحجم بنو إسرائيل عن إبداء عجبهم لموسى مما جاء يدعوهم إليه من نور وتوحيد ، فيقلبون العجب مما يفعلون إلى عجب من دعوة موسى الكليم لا لشيء إلاّ لأنها تريد أن تلفتهم وتثنيهم عما وجدوا عليه آباءهم السابقين ، يقولون لموسى منكرين لائمين : " أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا " (يونس ٧٨) .. "وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ " (القصص ٣٦) .. ذات هذا العجب العجيب أبدته ثمود لنبيها صالح : " أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا " ؟! (هود ٦٢ (.. بينما تقول مدين لشعيب

عليه السلام : " أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا " ؟!
(هود ٨٧) .. وعلى مثل هذا التعجب تقول عاد للنبى هــود :
" أَجِئْتَنَــا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْــدَهُ وَنَذَرَ مَـا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَــا " ؟!
(الأعراف ٧٠).. حتى الفواحش ، لم يجد الكفار بأساً من أن
يبرروها بصنيع الآباء والأجداد الغابرين ، يصفهم القرآن
المجيد إلى الرسول المصطفى فيقول عز شأنه فى سورة
الأعراف : " وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ
أَمَرَنَــا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَــاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ
مَا لاَ تَعْلَمُونَ " (الأعراف ٢٨) .. تتحكم فى هذه العقول
شرنقات العادة والاعتياد ، فلا يلتفتون ولا يبصرون ما فيها
من قبح وتهافت وضلالة ، فيقولون فيما يرويه الذكر الحكيم
لنبى الهدى عليه السلام : " بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى
أُمَّةٍ وَإِنَّــا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَــدُونَ . وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَــلْنَا مِن
قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَــدْنَا آبَاءنَا
عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ " (الزخرف ٢٢ ، ٢٣)
.. من هؤلاء وأؤلاء ـ ومن كفار قريش ـ يسخر القرآن

المجيد من ضلالهم وقصور عقولهم وعماهم الضرير ، فتقول الآيات البينات : " إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ . وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ " (الصافات ٦٩ ـ ٧١) .. تدل هذه الآيات وغيرها ، على أن عرق تترس الكفار والمشركين بشرنقة العادة وموروثات الآباء والأجداد الغابرين ظل ممدوداً حتى تعلق به طواغيت قريش وكفار شبه الجزيرة العربية ، وقاوموا به الدعوة المحمدية .. لم تنفعهم القوارع التى نزلت بالسابقين ، ولا المنطق المبين الذى واجه به الأنبياء لجاجة الكفر ، ولا سخافة معتقدهم الذى دعا إبراهيم الخليل أن يقول لهم فيما يرويه القرآن : " أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ " ؟! (الصافات ٩٥) .. على قدر تكرار هذه الظاهرة ، على قدر ما تناولها القرآن وتنزل بها على رسول الإسلام .. قص الذكر الحكيم ما كان من ضيق منطق هؤلاء الأقوام مع نوح وهود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب وموسى وعيسى وغيرهم ـ فى سور البقرة والمائدة والأعراف والأنبياء ونوح وابراهيم والفرقان والشعراء

والمؤمنون والقصص والصافات وص ولقمان والقمر وغيرهم ، يحاجيهم القرآن المجيد فى سورة البقرة بقوله عنهم : " وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ " (البقرة ١٧٠) .. وفى سورة المائدة : " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ " (المائدة ١٠٤) .. أرادهم القرآن ، وبين لهم رسوله ، أن التعلق بالآباء أو التذرع بتوقيرهم ، لا يعنى مسايرة الضلال أو اعتناق الباطل أو العمى عن النور والحق المبين !!!

ومع التسليم بالأثر السلبى الخطير لسلطان العادة أو شرنقة الاعتياد ، فإنه محال على العقل أن يسيغ أن يُعزى هذا الجمود والانحصار الغبى فى " الشرنقة " إلى محض احترام وتوقير الغابرين ، فقد خالفوا سننهم حين أرادوا ، أو أن يكون محض ارتياح للواقع القائم أو عجز عن فهم

الجديد .. فقد كان بعض هؤلاء الأقوام - كقريش على سبيل المثال - على قدر من الإلمام بالأديان السابقة والحضارات المجاورة .. الأمر الذى يومئ أن "الشرنقة " التى انحصر فيها السابقون واللاحقون قد دخلتها دنيا المصالح ، فالشرائع باطلها قبل سديدها تنمو حولها مصالح تتخذ لحمايتها درقة أو درقات ، وتتحصن بالقديم المألوف المجرب لأن المصالح التى نمت حوله آمنة فى حضانته ، مهددة فى غيرها ! .. لا يكتفى الآدمى فقط بالسقوط فى وهدة سلطان الاعتياد ، وإنما يتشبث بالمصالح التى نمت حوله .. يعض عليها بالنواجذ!! .. كيف واجهت الأديان هذا كله فى رحلتها الطويلة مع الإنسان ، هذا موضوع الحديث القادم إن شاء الله .

* * *

تسمر وتجمد وانحصار الناس ، فى شرنقة الاعتياد ، وهى من صنعهم يحبسون أنفسهم فيها ، هو الذى أدى إلى

مقاومة حركات الإصلاح والتغيير ، وإلى مقابلة كل النبوات والرسالات السماوية بالصد والانكار والتكذيب !! .. ما من نبى ولا رسول إلاّ كذبه قومه وآذوه ، وصدوا عن سبيله ، واستخرجوا كل ما فى جعبتهم لإنكاره وإنكار دعوته وتسفيه ما أتاهم به .. نوح عليه السلام ليس فى نظر الكفار المعاندين إلاّ رجل به " جنة " يتربصون به إلى حين !! (المؤمنون ٢٥ (.. وهود ليس إلاّ دعى لم يجئ إليهم ببينة وما هم له بمؤمنين !! (هود ٥٣ (.. أما صالح فقد كان مرجوا فى قومه ثمود حتى دعاهم إلى عبادة الله فصار مشكوكاً فيه حيث يدعوهم إلى أمر مريب) !!هود ٦٢) .. وما هو إلاّ بشر مثلهم ومن المسحرين ، عليه أن يأتى بآية إن كان من الصادقين (الشعراء ١٥٣ ، ١٥٤) .. وقوم لوط الذين كذبوا المرسلين وعانى لوط الأمرين من هؤلاء الذين يفعلون السيئات ولا يرضون عنها بديلا حتى أرادوا أن يغلبوه على ضيوفه رسل السماء ، وهددوه بأن يكون من المخرجين (هود ٧٨ ، الشعراء ١٦٠) .. وإبراهيم الذى كذبه

قومه وأعنتوه وألقــوه فى النار ليحرقــوه لولا أن جعلهـا الله بردا وسـلامـا عليـه !!)الأنبيـاء ٦٨ ، ٦٩) .. ومـدين التى كذبت شـعيبا وقـالت له " وإنا لنراك فينا ضـعيـفـا " ، وهددوه بالإخـراج من قـريتـهم مـا لم يعد إلى ملتـهم !! (هود ٩١ ، الأعـراف ٨٨ (.. ومـوسى الكليم الذى أعـيتـه أفـاعيل بنى إسـرائيل ، فـعبدوا العـجل من بعده) !!البقرة ٩٢ ، ٩٣) ، وأعنتـوه فى أمـر البـقـرة التى أخـبـرهـم أن الله تعالى يأمـرهـم بذبحـها ، فـمرة قد تشـابـه البقر عليـهم ، ومـرة يتفننـــون فى إثارة العراقيل ، ولا يتلقـون إجابة إلاَّ بحثوا عن إعنات جديد بسـؤال جـديد !! (البـقــرة ٦٧ ـ ٧١ (.. ثم قـسـت قلوبـهم فصـارت كالحجـارة أو أشد قسـوة ، وأخذوا يحرفـون كلام الله عن مـواضـعـه ، حـتى إذا مـا أتاهـم عـيـسى عليـه السـلام ، أنكروه وأعنتـوه وكذبوه ، وترددوا فى مـأسـاة الصلب لولا أن شبه لهم ورفعـه الله تعالى إليه !! ..

لجاجة بلا حجة !

هذا قليل مما لاقاه الرسل والأنبياء قبل الرسالة المحمدية ، من إنكار وصد وتكذيب وإيذاء ، وقد رأينا فيما سبق أن هذه اللجاجة الجهولة لم تحمل حجة تُناقش أو يُرد عليها ، ولم تأت ببرهان يُدفع ، ولا ببينة تُدحض .. وإنما محض لجاجة ولغو ، لا تجد ما تقوله سوى التترس بديانة الآباء والأجداد الغابرين ، وكأنها " يوتوبيا " ومنحى مقدس لا يجوز المساس به ولا إعادة النظر فيه ولا مراجعته أومناقشته .. فلم يكلف المنكرون خاطرهم ـ فى عنادهم الضرير ـ بإعمال عقولهم للمقارنة بين ماهم عليه ، وبين المبعوث إليهم ، فصمّوا آذانهم ، وأغلقوا عيونهم ، وغلفوا قلوبهم ، وعطلوا عقولهم .. وصفهم القرآن المجيد بأن فى آذانهم وقراً ، وبأن قلوبهم غلف ، وبأنهم " صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ . " (البقرة ١٧١)، وبأنهم : " فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . " (فصلت ٤٤) ـ من عماهم الضرير لا يردون على دعوة الهداية إلاّ بلغو ولجاجة فارغة لا عقل

فيها ولا حجة ولا منطق .. " وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ . " (فصلت ٥) .. هذا الذى يتذرعون به محض لغو بضاعته " الجمود " على ما اعتبروه " مقدسات " الآباء والأجداد ..لا يستمد تحجره إلاَّ من قانون العادة أو شرنقة الاعتياد وما نمى حول شرك وكفر الغابرين من أوضاع ومصالح تعلق بها اللاحقون ، وانحصروا بجمود العادة والارتياح إليها فى حويصلتها لا يستطيعون أن يخرجوا منها ولا حتى أن يطلوا فيما وراءها، ولا يجدون فى جدلهم ولجاجتهم وإنكارهم سوى رمى الأنبياء والرسل بالكذب والسحر والجنون ، فكانت مشكلة الدعوات كيف يمكن أن تواجه هذا الصد والانغلاق والتجديف بالتكذيب .. ولأن هذه المقاومة تترس فى شرنقة الإلف والاعتياد ، كان " خرق المألوف المعتاد بالمعجزات المادية والخوارق الحسية المخالفة للعادة وقوانين السببية ـ هو " حجة الصدق" التى أرادت السماء أن تؤيد بها الأنبياء والرسل ، وأن تقرع بها

العقول والألباب ، وأن تفحم المجادلين والمنكرين ، وأن تدلهم على أن الخالق عز شأنه قادر على أن يخترق حجب الأسباب ، وأن يقول للشيء كن فيكون ، وأن ما يأتى من خوارق ومعجزات على أيدى الأنبياء والرسل - هو حجتهم على صدق نبواتهم ورسالاتهم وأنهم مبعوثون بها من السماء !!

المعجزات والخوارق !

المعجزات والخوارق هى خروج عن قوانين السببية ، وهى قوانين تحد البشر بإرادة الله عز شأنه الذى أقام ناموس الكون على سنة الأسباب ، والسبب والمسبب - هذا الناموس السارى على الكون والناس ، لايسرى على الخالق المبدع عز شأنه ، لأن إليه سبحانه مناط ومآل كل شيء ، هو سبحانه السبب الأول ، واجب الوجود لذاته .. "سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ"(مريم ٣٥)

.. "إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ." (النحل ٤٠)

كانت "معجزة" أو "حجة صدق" نوح عليه السلام ، السفينة التى بكرٌ بصنعها بأمر ربه ، فنجته ومن معه من الطوفان الذى لم ينج منه أحد من الكافرين!(هود ٣٦ ـ ٤٤) ، أما عاد ـ قوم هود الذين كذبوه وسخروا منه ـ فقد كانت آية الله لهم الريح الصرصر العاتية التي دمرت كل شيء بأمر ربها (الأحقاف ٢٤ ، ٢٥) .. سخرها الله تعالى عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما حتى صار القوم صرعى كأعجاز نخل خاوية !! (الحاقة ٥ ـ ٨) .. أما صالح ومماراة ثمود التى سألته أن يخرج لهم من الصخر ناقة ، فإن الله سبحانه قد أيده بناقة انشق عنها الصخر لتكون لهم آية أمرهم الله ألاَّ يمسوها ، إلاَّ أنهم خالفوا وعقروها ، فأخذتهم " الصيحة " فأصبحوا فى ديارهم جاثمين !! (هود ٦١ ـ ٦٨) .. وقوم لوط " أسرى" اعتياد عمل السيئات، فقد دمر سبحانه وتعالى قريتهم وجعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من

سجيل منضود !! (هود ٧٧ ـ ٨٣) .. ومدين ، قوم شعيب ، الذين حذرهم من نقصهم الكيل والميزان أن يصيبهم مثل ما أصاب أقوام نوح وهود وصالح ولوط ـ فلما أبوا واعتدوا وسفهوا نبيهم وكذبوه وهددوه ـ أخذتهم " الصيحة " مثلما أخذت ثمود !!)هود ٩٤) .. وعلى هذه السنة توالت المعجزات الإلهية تأييدا وحجة صدق للأنبياء والرسل ، وقوارع كفيلة بإيقاظ الغرقى فى " شرنقة " الاعتياد والتجمد على عبادات الغابرين وإلف الكفر والشرك !!فإبراهيم الخليل عليه السلام ، أيده الله بالنار التى أراد قومه تحريقه بها ، فجعلها الله بردا وسلاما عليه !! (الأنبياء ٥١ ـ ٧٠) .. ، وأيده الله سبحانه بمعجزة الطير الأربعة التى وزعها على قمم الجبال ثم دعاهن فأتينه سعيا بأمر ربه ! (البقرة / ٢٦٠) .. وموسى الذى كلمه الله تكليماً وآتاه تسع آيات بينات فما ظنوه إلاَّ مسحورا !! وأتاه آية العصا التى لقفت ما يأفكه السحرة فبطلت أعمالهم! (الشعراء ٤٥، ٤٦ ، الأعراف ١١٥ ـ ١٢٠) وأتاه آية يده التى وضعها فخرجت من جيبه بيضاء

بغير سوء) !النمل ٧ ـ ١٢ ، الأعراف ١٠٨) ثم لم تمنع هذه الخوارق ، ولا آية البحر الذى فـرقه الله وأغـرق المطاردين فى اليم ـ .. لم تمنع بنى إسـرائيل من أن يتنكروا لموسى ويتخذوا العجل من بعده !! ..

المفارقة الكبري !

المفارقة الكبرى ، كانت فى معجزات عيسى عليه السلام غير المسبوقة ، وما لاقاه برغمها من مأساة غير مسبوقة بدورها .. من قبل عيسى ، كانت آية نبوة يحيى ولادته لأبوين شيخين طاعنين ، أما السيد المسيح ، فقد تأيد بمعجزات وخوارق لم يرها الناس من قبل ، حملت فيه مريم بغير أب ، وكلم الناس فى المهد صبيا ، وجعل الماء ـ بأمر الله ـ خمراً فى عرس " قانا الجليل " ، وصور الطين على هيئة الطير ونفخ فيه فصارت طيرا بإذن الله ، وأبرأ الأكمه والأبرص ، وأحيا الموتى بإذن ربه ، وأخبر بنى إسرائيل بما يأكلون وبما يدخرون فى بيوتهم ، ومع ذلك كله ،

ورغمه ، لم تفلح هذه الخوارق والمعجزات والبراهين والآيات ، فى زحزحة اليهود وإخراجهم من " شرنقة " الاعتياد ، وإنما قادهم ما انحرفوا به عن الناموس وشريعة الله ، وما ألفوه وتجمدوا عليه فى هذا الانحراف - قادهم إلى أشنع مأساة عرفها تاريخ الإنسانية، حين تآمروا وتكاتفوا ودفعوا الأحداث دفعاً إلى مأساة الصلب الذى صاحبه أبشع صور القسوة والعنف والتعذيب الذى انتهى بدق وصلب مخلوق حى - لم يقارف وزراً - على الصليب حتى الموت، فيما يؤمن المسيحيون أنه ذات شخص السيد المسيح - عليه السلام ، بينما يؤمن الإسلام بأنه شُبّه عليهم ، وأن الذى تعرض للتعذيب والدق والصلب شخص شبه لهم فى صورة المسيح (النساء ١٥٧ (- يخبر القرآن المجيد أن عيسى عليه السلام أحس منهم الكفر ، وبأنهم مكروا ومكر الله تعالى وهو سبحانه خير الماكرين : " إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ " . (آل عمران ٥٥)!

هل أجدت الخوارق ؟!

يروى التـاريخ ، ويروى القـرآن المجـيـد ـ أن الناس قـد سـارعـوا رعـونةً وطيـشـاً وصـدا ، إلى إنكار الخـوارق والمعـجزات ، وتلمس التـعلاّت لإنكارها ، وكيف أن " حـجج الصـدق " التى تأيد بها الأنبياء ـ بهذه الخوارق المادية ـ قد قـابلهـا الكثـيـرون بالإنكار والممـاراة وقت حـدوثهـا ، وازداد النكران لها والاستهزاء بها بانصرام الزمن وتباعد وخفوت الصور التى يختلف من تلقاها بالسماع ـ اختلافاً مؤكدا ـ عـمن اسـتـقـبلهـا وعـاينهـا بالمشـاهدة .. بل إن المعـاينـة والمشاهدة لم تمنع الكفار المكذبين عن الصد والإمـعان فى الإنكار والهزء والكفر ، وفى افـتـعـال الأراجيف والتـعلات للإفلات من حجـتها . وما إن تمضى دورة ، وتبدأ أخرى .. حتى يتلاشى أثر الخارقة ، ويرتد الناس إلى ما كانوا فيه ، ويظهر ويعم الفساد فى البر والبحر بما ألفه واعتاده الناس من صد وعقوق وإلحاد .. فيخاطب القرآن نبيه المصطفى داعيا له أن يلفت نظر الكفار والمشركين إلى تأمل ما كان من

عاقبة مشركى الأمم السابقة الذين كذبوا بالله ، وعصوا رسله وأنبياءه ، واستهزأوا بهم ، وقاوموا وأوصدوا قلوبهم ظلما فى وجه كل دعوة ترشدهم إلى الحق والنور والهداية والسواء .. يقول القرآن لمحمد : "قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ" (الروم ٤٢) .

المعجزات أو الخوارق المادية أو الحسية ، محدودة بطبيعتها ـ بحدود المكان والزمان .. يبتعد تأثيرها بابتعاد المكان مثلما يبتعد بابتعاد الزمان.. ولا تعدم أن يأتيها الإنكار ممن عاين وشاهد .. فالمشاهدة والملاحظة محصلة تفاعل مركب بين الحدث وذاتية وإمكانيات المراقب التى تختلف من شخص لآخر ، سواء فى قدرات رصده أم فى صدقه أم فى إخلاصه وتوجهه ونواياه .. وقياس الوقائع الحادثة على النواميس هو بدوره مسألة نسبية ، وقد لايعتبر خارقا للعادة والناموس فى زمان ـ ما كان فى نظر الناس خارقا للعادة فى زمان سابق .. ومن يسبق إلى خارقه بمقياس زمانه بحكم

العلم المتاح فيه ، قد يكشف ما يتاح فى العلم من بعدها أنها لم تكن خارقة فى الحقيقة ، يضاف الى ذلك أن الخارقة المادية أو الحسية ليست حجة إلا على من رآها فى مكان وزمان حدوثها، وتفقد بالضرورة قوة تأثيرها بطول الشقة و مرور الزمن ، وتآكل وخفوت صورتها وأثرها ومقدرة الناس على قبولها والاقتناع بها ناهيك بالتسليم والإذعان والإيمان !!

ديناميكية الاستمرار

أيا كان حجم وثقل وعراضة وبهر ووقع المعجزة أو القارعة ، فإنها حدث محدد بالمكان والزمان ، لا يحمل " ديناميكية " استمرار الأثر ، لأن الاستمرار رهين بقوة دافقة دافعة تحمل فى بنيتها آلية وقوة دفع ذاتية تكفل المضى والاستمرار والدوام ، فإذا فقدت القوة الدافعة ، أو لم تكن من طبيعة وآلية الحدث، كان مآله الحتمى إلى التناقص ثم الخفوت ثم التلاشى شيئاً فشيئاً.. إن الحجر الذى يلقى فى

الماء ، يحدث دوائر متتالية تأخذ فى الاتساع ، ولكنها ما إن تصل إلى غايتها ، وتفقد " الرمية " أثرها وقوتها الدافعة ، حتى يؤدى افتقادها إلى آلية وقوة دفع ذاتية - إلى تلاشى هذه الدوائر مهما انتشرت ومهما بلغ حجمها من الاتساع حتى تستوى فى النهاية صفحة الماء وتعود إلى ما كانت عليه !!!

المعجزات الحسية أقرب إلى هذا التصوير ، لأنها بطبيعتها خارقة مادية ، محدودة بحدود المكان وبحدود الزمان ، ولا تحمل فى بنيتها آلية الدفع ولا القوة الذاتية الدافقة التى يعيش بها أثرها خارج حدود المكان والزمان .. ومن ثم وكما تدل شواهد التاريخ يتناقص ويخفت ثم يتلاشى أثرها وتنطمر بمضى الزمن وزوال طبقة المشاهدين الذين عاصروا وشاهدوا ، وحلول مستجدات وطوارئ جديدة تأخذ ألباب والتفات الناس إلى بعيد عما شاهده وعاينه الغابرون فى المعجزة أو القارعة التى لم يعد لها - الآن ! - ذلك البهر الذى كان !

ثــم إن " شــــرنقة " الاعتيـاد التى تقرعها المعجــزة أو الخارقة ـ لا تقتصرعلى مجال دون مجال ، ولا على زمن تنقطع بعده فيما يتلوه من أزمنه .. عادات الناس متغيرة لأن أسبابها متجددة متغيرة ، ومصالح الناس تبعاً لذلك متغيرة تلبس الأثواب التى توافق "الشرنقة" التى تتحوصل فيها فى زمانها تبعاً لنوعها وصورتها وشـكلها ودوافعهـا ـ من أجل ذلك فإن " القوارع " التى تحمل " حجة الصدق " لنبى ما ـ محدودة الأثر بنطاق غايتها وموضوعها وهـو دفـع وحث الناس وتشجيعهم على التصديق فى نبوة النبى الذى يبعث إليـهم .. وهذه القـارعة ـ بحدودها ـ لا تحمل بذاتها بذرة مواجهة " الشـرنقات " المتجددة المستحدثة الطارئـة التى لا ينقطع تكونـها وتشكلـها فى دنيـا النـاس على اخـتـلاف الأماكن وتعاقب الأزمان والعصور !!

الغاية المثلي !

الأديان لا تنتهى غايتها بمحاربة شرنقة اعتياد الكفر ، وإنما غايتها المثلى احتواء وهدم كل " عادة " ذميمة تتشرنق فيها المذمات والمصالح والمآرب العارضة وتأخذ البشرية بعيدا عن طريق الحق والجمال .. هذه الغاية المثلى لا تنهض بها قارعة حسية تبهر العقول والألباب دون أن تحمل بذاتها مدد النور والهداية فيما يصادف الانسان كل يوم من سلبيات تتمحور وتصد كل دعوة أو محاولة للتغيير والإصلاح .

إن لكل زمن عادات وشرنقات تتحوصل فيها هذه العادات والمصالح ، والتعامل مع هذه " الشرانق " المتغيرة يستلزم قدرة آلية ذاتية تحمل مقومات التعامل مع كل منها حسبما تقتضيه عناصرها .. ومن هنا كانت القيمة العظيمة لهداية العقل والضمير التى أتى بها وأنجزها الإسلام ، لأنها تعطى للآدمى أكسير التعامل الدائم المتجدد مع آفة كل عادة ومآرب المصالح التى تتشكل وتتمحور وتتشرنق فى دنيا الناس !!

لم تكن السـمـاء بعيدة عن هذا كله ، ولا كانت غير ملتفتة إليه ، وإنما هى مراحل كان لابد من تتابعها تتابعاً تدريجياً لتأهيل البشرية لاستقبال الهداية الفارقة التى تأخذ بيدها أبداً إلى النور الدائم الذى لا يخبو ولا ينقطع ـ هذا النور الذى يحمل شعلته الذاتية ، وقوامها هداية العقل والضمير ، وقوته الدافقة الدافعة التى تكفل للإنسانية ديمومة الإمساك بالخيط الذى يشدها دوما إلى الحق والنور .. كيف حقق الإسلام ـ الدين الفارق الخاتم ـ هذا الإنجاز.

* * *

المسئولية التى نيطت بالإسلام ، لم تكن كشأن الديانات السابقة ، لأمر بالغ الأهمية عريض الخطر .. كانت الأديان من قبل ديانات لأقوام ، محدودة الدائرة التى فيها يجرى الخطاب فى زمان بعينه ، إلى قوم بعينهم ، فى بقعة يعيشون فيها ، محدودة بهم ومحدودين فيها بلا وسائل اتصال أو انتشار مما أتيح للبشرية من بعد ، فكان مفهوما ومقبولاً مع هذه المحدودية أن تحتل المعجزة المادية أو الحسية

مكان الصدارة لأنها بالغة الغاية فى دائرتها طالما لا يطلب إليها أن تتخطاها إلى خارج الزمان والمكان اللذين فيهما يعيش المخاطبون ، بينما جاء الإسلام ليخاطب الدنيا بأسرها ، الرب فيه رب العالمين لا رب قوم بذاتهم ، والخطاب فيه يتجاوز حدود المكان وحدود الزمان ليقدم للإنسانية الدين التام الكامل الخاتم الذى تغيت السماء أن يكون ديناً للعالمين إلى أن يرث سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها . هذا الدين لا يؤدى غايته المرجوّة إن لم يحمل بذرة وصلاحية وقدرة الامتداد فى المكان والزمان ، وغير متصور لهذه الغاية العريضة أن يكون خطابها محدودا ، ولا أن تكون أدواتها محدودة ، لأن هذه وتلك تقعدان بالديانة عن بلوغ هذه الغاية المأمولة ـ لذلك كان لابد للإسلام أن يكون دينا فارقاً يحمل شعلته الذاتية ، وقوامها هداية العقل والضمير ، ليكون له بهذه الهداية ـ القوة الدافقة الدافعة التى تكفل للإنسانية ديمومة الإمساك بالخيط الذى يشدها دوماً إلى الحق والنور والجمال .

ليس يعنى هذا أن الإسلام أو رسول الإســلام قد افتقدا " حجة الصدق " ، أو أن سيرة النبوة المحمدية قد خلت من الآيات والمعجزات ، وإنما الآية البينة على كمال الإسلام غايةً ومنهاجاً ، أنه قدم للإنسانية مفتاحاً تواجه به المعضلات وآفات الجمود والاعتياد على مدار الزمن ، فلا ينحصر فى إزالة شرانق اعتياد الكفر ، وإنما يتجاوزها إلى هداية موصولة تحاصر كل ضلالة ناشبة أو محتملة النشوب ، وهو لذلك قدم منهاجاً متكاملاً وعقيدة شاملة تصح بهما الحياة والأحياء فى عالم مشدود إلى نور دائم لا يخبو ولا ينقطع ، شعلته الذاتية هداية العقل والضمير والوجدان .

النبوة المحمدية

النبوة المحمدية ، أرادها الله نبوة هداية ، لا ترمى إلى إفحام العقل بالحجة المسكتة ، وإنما تتغيا تفتيحه وتبصيره ودعوته واستثارته إلى التفكير والتأمل والتدبر والفهم .. لذلك كان القرآن المجيد هو آية الإسلام الكبرى ، وحجته

الموصولة الممدودة ، وزاده المعطاء الذى لا ينفد لإنارة سبيل البشرية إلى الحق والنور والجمال .. لم يكن القرآن محض معجزة بديلة عن المعجزات والخوارق الحسية التى كانت حجج الديانات السابقة ، وإنما هو نور وهداية وزاد موصول ومدد لاينتهى لجعل نبوة الإسلام نبوة هداية وإنارة تخاطب الوجدان والعقل والضمير ، وتستنفر وتستحث مكنات هذه الملكات لالتقاط المدد الدائم واستيعابه واستحضاره والإمساك به كيما لا يفلت من الإنسان تعلقه المنشود بالمعنى الكلى والغاية المثلى للدين فى إصلاح وصلاح الحياة والأحياء إلى يوم الدين .

النبوة الإسلامية ليست نبوة استطلاع للغيب ولا إفحام للعقول بالخوارق المفحمة المسكتة ، وإنما هى نبوة هداية أراد الله تعالى لها أن تخاطب وتفتح " العقول " و " البصائر " ، لا أن تفحمها وتقعدها عن النظر والتأمل والتدبر والتفكير والفهم .. هذا المعنى الفارق لم يكن محض تصور متروك لاستخلاص الناس أصابوا فى ذلك أم أخطأوا ،

وإنما هو توجيه قرآنى صادر بأمر ربانى صريح إلى النبى أن يبدى للناس أنه ليس إلاّ بشراً رسولاً اصطفاه ربه لحمل وأداء الرسالة - " قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ." ؟ (الإسراء ٩٣) .. هذا الأمر الربانى ببيان جوهر الرسالة المحمدية ، ورد فى معرض نقد تعلق الناس بالخوارق الحسية التى ثبت بتجارب البشرية أن مآل أثرها إلى الانقضاء والانطمار .. فى ذات سورة الإسراء تقدمه لهذا الأمر والبيان الإلهى ، تنبيه واضح إلى الفارق الجوهرى بين نبوة هداية قوامها القرآن ، وبين التعلق الضرير بالخوارق الحسية ! .. تقول الآيات الحكيمات : "قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً × وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً * وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً *

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً * " (الإسراء ٨٨ - ٩٣) .. فى تماحى أثر الخوارق ، وتلمس المكابرين التعلاّت والأسباب للتملص منها ، يقول القرآن المجيد : " وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ × لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ " (الحجر ١٤ ، ١٥) .. فليست الخوارق مما يغنى فى دعوة المكابر المعاند المفتون ، ولا هى أداة الدعوات لمواجهة ما يأتى به قابل الأيام !!

لذلك أراد الإسلام لنبوة القرآن أن تكون نبوة فهم وهداية تدعو بكتابها المبين إلى النظر والتأمل والتفكير ، وليست نبوة استطلاع وتنجيم وخوارق وأهوال .. النبى ليس منجماً ولا عالما بالغيب ، وليست النبوّة نبوّة سحر أو رؤى أو أحلام أو قراءة طوالع وأفلاك .. " قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ "

(الأعراف ١٨٨) .. لذلك حرص رسول القرآن أن ينحى عن أذهان الناس سمعة المعجزة المسكتة عندما جاءته ميسرة يوم كسفت الشمس وظن الناس أنها كسفت لموت ابنه إبراهيم ، فأبى عليهم ذلك ، ونبههم إلى أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته .. ومع تعدد ما ورد فى المأثورات عن المعجزات والآيات التى صاحبت مولد محمد عليه السلام وطفولته ، إلاّ أن عنايته الكبرى كانت بلفت انتباه الناس إلى معجزة القرآن وما ينطوى عليه من آيات ومدد لا ينقطع .

القرآن المجيد

القرآن المجيد كتاب " عقل " ، يجعل من التفكير فريضة بدعوة صريحة فى الآيات وخواتمها التى تستدعى ملكة الفهم والنظر والتأمل والتفكير ، على نحو : " أفلا تعقلون " .. " لعلكم تتفكرون " .." قل انظروا ماذا فى السموات والأرض " .. " لعلهم يفقهون " .. " أفلم ينظروا " .. " أو لم

يتفكروا " .. " لآيـة لقـوم يتفكـرون " .. " أفـلا ينظــرون " ..
"أفلا تبصرون " .. " ليدبــروا آياته ".. "أفلا يتدبرون " ..
هذه وغـيـرها من القـوارع المنبـهــة المتكررة ـ لا تــأتـى فى
القرآن المجيد عرضاً ، وإنما فى إطار منهاج عميق يتبناه
القرآن ويدعو إليه حتى فى مسائل الإيمان والعقيدة .. " إِنَّ
فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ
لأُوْلِي الأَلْبَابِ × الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُوداً وَعَلَىَ
جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ
هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * " (آل عمران ١٩٠ ،
١٩١) .. هذا التـأمل المتعبد الفاهم الواعى ـ هو قوة دفع
ذاتيـة بآليـة دافقـة لا تنقطع تسـتـخلص المتـأمـل مـن وهـدة
شرانق الكفر أو الضلالة أو الجمود ، وتكفل له ديمومة المدد
والأثر الفاعـل واستمرار الإمساك بأحبال الهدايـة والنـور ..
لا ينقطع هذا المدد بتجاوز كفر أو شرك ناشب فى النفوس ،
ولا باقتلاع عادة ذميمة ، ولا بالقضاء على آفة مستحكمة ـ
وإنما هو طاقـة ديناميكيـة واعـيـة ، تعطــى القــدرة على

مواجهـــة واحتـــواء أو تجاوز أو إزاحـة كل " ســالبة " أو " مذمّة " أو "عادة " أو " نقيصة " تفرخها مسالك ودروب ومآرب الناس فى الحاضـر أو فى الزمن القـابل .. لا تنقطع مآرب وأغراض الناس عن إفراز " المذمّات " و " النقائص " والتحوصل فى شرانق الاعتياد أو الجمود ، أو بمنطق " ليس فى الإمكان أبدع مما كان " .. ولذلك لا تنقطع حاجة دعوات الهداية أو الإصلاح أو التغيير أو التطـوير أو الترقى ـ إلى مدد موصـول يعطى " المفتـاح " لتجاوز مـا يطرأ أو عساه يطرأ ، وهذا المفتـاح لا يكون إلاّ بقـدرة فـاعلة ومـهـيـأة ـ بالنظر والفهم ـ إلى سبر أغوار المستجدات ، واستكشاف جـذور الآفـات والنقـائص والسلبـيات ، واسـتـشراف سبل مـحـاصـرة شـرانق الاعتـياد والجـمود ، وإزاحـة أو إزالـة أسبابها ، وإفراز معطيات جديدة صالحة تدفع تيار الحياة والأحياء إلى الحق والجمـال والكمـال .. هذه الغاية المثلـى ، لا تتحقق بقارعة أو خارقة غابرة شـدت وبهرت فى أوانهـا ثم انطمرت وانطمر وزال أثرها .. يلمس القرآن المجيد هذه

الحقيقة لمساً عميقاً حين يورد " وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ . " (الإسراء ٥٩) .. هذا التكذيب الضرير واجه كل الدعوات إستمساكاً من المنكرين والمكذبين بضلال الآباء والأجداد الغابرين .. "إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ * وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ *فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ * " (الصافات ٦٩ ـ ٧٣) ..

مفتاح الإسلام إلى القدرة الموصولة على ديمومة مواجهة شرانق " العادات " و " المذمّات " ، وطلب الكمال والسعي إليه ، مجدول فى المنهاج العقلى الذى اعتمده القرآن المجيد وتبنته النبوة المحمدية الهادية التى لا تسعى إلى إسكات ولا إلى سيطرة ولا تجبر ولا إلى قمع للفكر والفهم ، وإنما إلى التبصرة والتنوير والهداية .. الدعوة قوامها الحكمة والموعظة الحسنة والمحاورة القائمة على العقل والمنطق واستشفاف الصواب : " ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ

بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . " .. (النحل ١٢٥) .

هذا المنهاج العقلى كان هو أداة الإسلام النافذة فى مواجهة وإزالة " الموانع " و "المذمّات " و " النقائص " و" شرانق " العادة والجمود ـ التى اعترضت سبيل دعوته .. واجه الإسلام العرف المغلوط ، وعبادة الأسلاف ، والاقتداء الأعمى بالكهان وأصحاب السلطة الدينية ، والخوف المذل من أصحاب السلطة الدنيوية .. هذه المواجهة التى تصدى لها الإسلام ، لا تتحقق غايتها بخارقة مفحمة ، ولا بمعجزة مسكتة ، وإنما اعتمدت فى الماضى ، وكفيلة بالمضى على ذلك فى المستقبل ، على الفلسفة القرآنية فى إعلاء العقل والتفكير ، وعلى نبوة الهداية والتبصير .. فلا حاجة إلى كهانة ولا إلى هيكل ، لأن الله تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، وقبلته إليه سبحانه ممدودة بغير عوائق ولا حدود .. " فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .) "البقرة ١١٥) .. حاجة المتدين إلى الفهم

مكفولة بعطاء وتبصير وتنوير أهل العلم لا بنفوذ سلطان الكهانة.. "فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ "(النحل ٤٣)

.. ولم يقبل الإسلام من المسلم أن يلغى عقله جريا وراء سنن الآباء والأجداد ، أو خنوعاً لمن يسخره باسم الدين فى غير ما يرضى العقل والدين ، أو رهبةً وجبناً من بطش الطغاة والمتجبرين !.

خطاب القرآن المجيد للمعاندين المتحوصلين فى "شرانق" الاعتياد والتحجر والتسمّر والجمود ، خطاب لحمته العقل وسداه الفكر .. بالعقل والتفكير - لابمحض خارقة مفحمة - تدرك النفس الإنسانية ضلالة التحجر والجمود على عمى الغابرين .. " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ " (المائدة ١٠٤).. "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ " (البقرة ١٧٠) .. إزالة الانقياد الأعمى إلى سلطان الكهانة ، لم يرد فى القرآن

الحكيم عارياً من سببه وسنده أو منزوعاً عن علّته وغايته .. يقول الخبير الحكيم : " اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * " (التوبة ٣١ ـ ٣٢) .. تقفي الآيات القرآنية بعد ذلك مباشرة بلفت صريح إلى أن النبـوّة المحمديـة نبـوّة " هداية " ، فتقول : " هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ " (التوبة ٣٣) .. هذه " الهداية " لا تجرى منزوعة أو منفصلة عن واجب المتلقين والمخاطبين فى إعمال العقل والفهم وإدراك الغاية .. تجمد المتلقين على عادات الآباء وانصرافهم عن الإمساك بخيوط الهداية ـ عميٌ ضرير مغبته عليهم لا على سواهم ، فيوصى القرآن رسوله المصطفى بقوله له : " قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ " (الأنعام ٩١).

أثرالثقة في الحاضر

أدرك الإسلام أن مقاومة " شرانق " الاعتياد ، لا تتأتى فقط ببيان ما فيها من عمى وعوار ، ولا بدحضها بالحجة ، والتفت بوعى رشيد إلى أن الناس لا يقبضون على ماضيهم بعناد وتعصب وإصرار إلاّ حين لا ينجح الحاضر فى إكتساب ثقتهم ، وحين ينفرهم هذا الحاضر ويزعجهم ، وحين تضيق زوايا ومساحات رؤيتهم فلا يدركون جوهر ومعالم وإيجابيات "البديل " الوافد أو المطروح .. أمسك الإسلام بالخيط الصحيح بالتفاته ولفته إلى أن الدين وسيلة للإصلاح ، وأن هذا الإصلاح هو الغاية المثلى التى من أجلها قدم الإسلام منهاجاً شاملاً وشريعة متكاملة وصورة للحياة تشد الإنسان حيث كان من وهدة الجمود والتحوصل أو التحجر إلى واحة لحاضر حيّ ومستقبل أكثر حياةً وإشراقاً .

الإسلام دعوة إصلاحية تستنهض الناس من آفات الاعتياد ، لأنه عقيدة شاملة أحاطت الحياة بكل ما يحتاجه التعامل مع معطياتها السالبة والموجبة ، وليس يحتاج الباحث

إلى كثير عناء ليدرك شمولية عقيدة الإسلام ، فهى مرئية بوضوح وجلاء فى آيات القرآن المجيد التى يسمع تلاوتها وترتيلها من يفوته قراءتها ، ثم هى ملحوظة - هذه الشمولية - فى أحوال المسلم فى معيشته وعبادته ..يكفى للمتأمل أن يرى المسلم متجها بعبادته مباشرة إلى ربه مستقلاً بها عن الهيكل والصنم والأيقونه والوثن ، ليعلم من ذلك وغيره - أن الدين الإسلامى وحدة متكاملة فى متناول المسلم أينما يولى فثمّ وجه الله .

هذا الجانب الإصلاحى ، فى المنهج الإسلامى ، هو ديناميكيته الفاعلة فى ملاحقة الحياة والتعامل المستمر مع مستجداتها واحتواء ما عساه تفرزه مآرب الناس من " مذمّات " أو " نقائص " ، وإزاحة الجمود الضرير المتحوصل فى شرانق من فعل المصالح والمآرب التى لا تنقطع عنها أغراض الناس - ودعوة الإسلام الإصلاحية دعوة قد توفرت لها - فى منهاجه - كافة الأدوات والآليات اللازمة للنهوض بها فى الحاضر وفى المستقبل ، مثلما

تم النهوض بها فى الماضى وأنجزت بها ما حققته من أمجاد فى إطار الغاية المثلى والمعنى الكلى.

لم يكتف الإسلام بتقديم " مفتاحه " ممثلاً فى الهداية والعقل والتفكير ، وإنما قدم نظاماً شاملاً متكاملاً ، التأم فيه العلم والحض عليه ووجوب الأخذ بأسبابه ، مع العقل أداة الفهم والتفكير ، مع احترام العمل والعاملين ، فى إطار منظومة أخلاقية وارفة لم تستبعد الأغيار من دوحتها ، وإنما شملتهم بعطائها ، فى باحة نظام متكامل يحدد ضوابط المسئولية ، وغاية العدالة ، مجدولة بالمساواة والإسماح ، ليتضافر ذلك كله فى توفير الآليات التى تتصدى لشرانق الجمود والاعتياد ، " نقائص " المآرب وجنوح الأغراض ، ويوفر الصورة الواعدة البديلة التى تشد أزر الناس وتشجعهم وتحفزهم على الخروج من شرنقة ما اعتادوه وتجمدوا فيه بلا فهم ولا وعى ، إلى أمل صادق فى مستقبل أكثر إشراقاً وحياةً .

* * *

اقتضت عالمية وشمولية عقيدة الإسلام ، أن يقدم للإنسانية مفتاحاً تواجه به المعضلات وآفات الجمود والاعتياد الغابرة ، والحاضرة ، والمستقبلة .. أن يقدم إلى الإنسانية هداية موصولة تحاصر كل ضلالة ناشبة أو واردة أو محتملة النشوب .. لم يحصر الإسلام غايته أو منهاجه فى مقاومة وعلاج شرنقة اعتياد كفر وضلال الآباء الغابرين ، وإنما عمد إلى غيرها من شرنقات ماضية أو حاضرة أو واردة ، سواء ارتدت إلى اتباع عبادة الآباء والأجداد بغير فهم ولا وعى ، أم ارتدت إلى السلطة الدينية أو المتشحة بالدين ، أم إرتدت إلى السلطة الدنيوية .. هذه المنابع لآفات أو شرنقات الاعتياد لا تتحوصل بمصالحها فى زمن ما ثم تكف عن التحوصل وإنشاب مخالبها فى حياة الناس ، وإنما هى تحمل دائما أسبابها أو مآربها التى لا تنقضى ، وتتلبس مع تطورات الحياة فى صور وأشكال كثيرا ما تخدع أو تخادع الناس عن حقيقتها وأغراضها الكامنة فى حويصلاتها !!

اعـتناق الإسـلام للعـقل ، والتنويه به ، والدعـوة إلى الاحتكام إليه ـ هـو قـوة الدفع الذاتيـة ـ وبآليـة دافقـة لا تنقطع ـ لاستخلاص الإنسانية من وهدة الشرانق المختلفة المتغايرة التى تريـد أن تطفئ نـور الحياة والتجـدد .. هو طاقتها الديناميكية الواعية لاحتـواء وإزاحـة وعـلاج "المذمات " و " النقائص " التى تفرخـها رغائب ومسالك ودروب مآرب وتدابير الناس أمس واليوم وغداً !!

عـبادة الأسـلاف، أو سلطان الآباء فى تسـريب البـاطل والضـلال إلى الأبناء ، ليس مجرد آفة غابرة واجهها الإسلام وسـعـى إلى انتـزاع أثرهـا المزيـغ من وجـدان الماضـين ، وإنما هـى آفـة مـحـتملة النشوب فـى كل زمن ، تسـتولدها ظروف ما فى مكان ما فى زمن ما ، لذلك كان التفات الإسلام ولفته وتنبيهه إلى وجوب التيقظ وعدم الانقياد إلى أى ضلالة تتحوصل اليوم أو غداً فى "تابوهات" تستدعى لنفسها قداسة من الاحترام الواجب للآباء !! .. القداسة فى شرعة الإسلام ، ومفتاح " العقل " الذى تبناه ، لا تكون إلاّ للموضوع أو للفكرة

أو للحق .. عن طريق معرفة الحق يُعرف أهله ، لا العكس ..
لم يكتف القرآن المجيد بما بثه من آيات تورى بفساد تعطيل العقول والانقياد الضرير لضلالات الآباء والغابرين ، مع أن عمومية الخطاب فيها تغطى الزمن الحاضر والزمن القابل مثلما غطت الزمن الماضى .. هذه الآيات يقرأها المسلم اليوم فيفهم منها ما فهمه من استقبلوا القرآن فى زمن التنزيل ، من بيان شاف رشيد لضلال الاتباع الأعمى بلا فهم ولا وعى ، من مثل " :أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ." (البقرة ١٧٠) (أيضا المائدة ١٠٤، الأعراف٢٨، الشعراء ٧٤، الصافات ٦٩، الزخرف ٢٢،٢٣)..
بيد أن القرآن المجيد لم يفته أن يضيف إليها خطاباً عاماً آمراً بالالتفات والتيقظ والانتباه والإعراض عن أى دعوة ـ ماضية أو حاضرة أو آتية ـ لاتباع الباطل !!

هداية الإسلام الموصولة ، ودعوته الإصلاحية ـ تتجلى فى تصديه لهذه الآفة مثلما تتجلى فى غيرها .. فأوامره ونواهيه ليست جُزُراً متفرقة ، وإنما تضمها فلسفة شاملة

عميقة وواعية ومتسامقة تقيم توازناً دقيقاً مرعيا ومقصودا ، بين كافة الاعتبارات مهما اختلفت أو حتى تضادت ، فنرى القرآن المجيد يحرص حرصاً ناضحاً نادياً على وجوب محبة وتوقير واحترام وتبجيل الآباء والإحسان معهم وإليهم ، دون أن يغفل أو يسقط أن ذلك كله لا يجيز اتباعهم في الشرك أو الباطل أو الضلالة أو الفواحش أو المذمّات!!

القرآن المجيد ، وهو يعرى ضلالات الآباء الغابرين ، لم يغفل أن تتوالى وصاياه للإحسان للوالدين ، فى إيقاع متلاحق لافت، فتتردد فى آياته وصايا "وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً " (البقرة ٨٣ ، النساء ٣٦، الأنعام ١٥١، الإسراء ٢٣).. تقرن الآيات شكر الوالدين بالشكر لله عز وجل : " أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ " (لقمان ١٤) .. وتتكرر الوصايا الإلهية بالبرّ بهم والإحسان إليهم " وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا " (العنكبوت ٨) .. " وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا" (الأحقاف ١٥).. ثم فى بلاغة وجمال، تقول الآيات فى وصاياها الربانية : " وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً" (الإسراء ٢٣ ، ٢٤).

هذه المكانة السامقة العليّة التى للآباء ، محبةً ورحمةً وعطفاً وتوقيراً وتبجيلاً ، لا تبرر فى نظر الإسلام - الانصياع الأعمى ولا المتابعة الضريرة في الضلال والشرك .. من ذلك يحذر القرآن المجيد ، دون حض على نكران المعروف والإحسان ، فيقول عز وجل : " وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ." (لقمان ١٥ - أيضا العنكبوت ٨)

شرنقة الكهانة من قديم

واقع الحال ، أن الكهانة ظاهرة سابقة على نزول الأديان الكتابية ، وقد وجدت الكهانة والرؤية بين العبرانيين

من أقدم عصورهم كما وجدت فى سائر الأمم السابقة ، وهى فى مجملها حرفة تستتر بالأديان بعامة ، وتدعى مطالعة الغيب وكشف حجبه ، والإخبار بالأسرار والحوادث المستقبلة والماضية ، وتحتكر لنفسها من هذا المدخل سلطة الوساطة بين المخلوق والخالق ، وتختص بفك رموز الدين ، وتحديده ، وتستأثر بالشفاعات ، وتضطلع بالمراسم الدينية ، وتقديم القرابين والذبائح ، ومنح الأسرار ، والتبشير بكلمة الله .. تتلبس بلباس تتخيره لكل دين ولكل زمن ، عرفها بنو إسرائيل من قديم ، وكان "الكهنة " الإسرائيليون هم الذين تصدوا لدعوة السيد المسيح ، وقادوا الأحداث لمأساة الصلب - بغض النظر عن الخلاف فى " شخص " المصلوب ، هل هو ذات المسيح كما يقول المسيحيون ، أم شبيه له كما يقول القرآن المجيد .. إلى هؤلاء الكهنة كانت رعاية "الهيكل" ، برئاسة " الكاهن الأعظم " .. وهذا هو المقابل العربى للكلمة العبرية : " كوهن هاجدول " - ومع أن وظيفة الكاهن الأعظم كانت دينية ، وكذلك الكهنة ، فقد كانت لها

أبعادها الدنيوية حتى كان كبير الكهنة يعد من رجالات المملكة العبرانية وجزءاً من الأرستقراطية الحاكمة!! بل كان الملك ذاته يضطلع أحياناً بوظيفة كبير الكهنة بنفسه، كما فعل داود (١٠٠٤ ـ٩٦٥ ق . م) .. وفى سفر صموئيل الثانى ٦/١٢-١٩ : " فأخبر الملك داود وقيل له قد بارك الرب بيت عوبيد أدوم وكل ماله بسبب تابوت الله . فذهب داود وأصعد تابوت الله من بيت عوبيد أدوم إلى مدينة داود بفرح . وكان كلما خطا حاملو تابوت الرب ست خطوات يذبح ثوراً وعجلاً معلوفاً . وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب .. " وقد تكررت كلمة " كهن " ومشتقاتها نحوه٧٧ مرة فى العهد القديم ، كما تكررت كلمة " لاوى " ـ وهو السبط الذى كان منه الكهنة٢٨٠ مرة ! ، كما تكررت ١٨٥ مرة فى سفر اللاويين وحده ، ولم يقتصر استخدام الكلمة على الكهنة العبرانيين ، بل أطلقت أيضاً على الكهنة المصريين فى زمن القدماء والكهنة الفلسطينيين وكهنة البعل وكهنة " كموش " .

وعرف العرب الكهانة قبل الإسلام ، واشتهر من الكهنة والعرافين فى الجاهلية والإسلام ، " شق أنمار " و " سُطيح " ، ومن النساء " زرقاء اليمامة " و " سجاح " بنت الحارث التى لحقت بالإسلام ثم ادعت النبوة ونزلت اليمامة تريد حرب أبى بكر واتقاها مسيلمة الكذاب بالزواج منها ، حتى إذا ما قتل - أسلمت وهاجرت إلى البصرة وفيها توفيت . وكانت الكهانة لدى العرب على ثلاثة أضرب ، أولها أن يكون للإنسان ولى من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من السماء ، وثانيها يدعى الإخبار بغيبيات الزمان القادم أو المكان البعيد ، أما ثالثها فيقوم على العرافة والتنجيم .

منزلق ومخاطر السلطة الدينية !

هذه السلطة الدينية ، منزلق هائل للسيطرة على وعى وأفهام ووجدان الناس ، وسلب لإرادتهم وتغييب لعقولهم ، لتسييرهم كالعميان إلى حيث يراد لهم وبهم .. سيطرة الكهان

وأضرابهم ، هى تسلط على عقول ورقاب الناس باسم الدين ، وتعطيل لملكة العقل التى ميز الله تعالى بها الإنسان على سائر المخلوقات والكائنات !!

الإسلام يعلى العقل ويرفض الكهانة

لم يقبل الإسلام من المسلم أن يلغى عقله أو يسلسه بلا فهم إلى غيره ، وإنما حرص بآيات القرآن المجيد على مخاطبة العقل الذى يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور ، ويفرز ويوازن بين الأضداد ويتبصر ويتدبر ويحسن التفكر ، هذا العقل يستلزمه لباب وجوهر الإسلام الذى رفض الكهانة بكل صورها ، ولم يجعل لكهنة أو سدنة أو أحبار وظيفة الوساطة بين المخلوق والخالق ، ولا شفاعة للإنسان إلاّ شفاعة عمله وعطائه وتوجهه إلى الله تعالى بضمير مخلص وقلب منيب .

عقل المسلم حرّ طليق من سلطان الكهان الذين يتخذون من الأديان حرفة وصناعة ، ومن سلطان الهياكل والمحاريب

ـ سبيلاً للتحكم فى ضمائر وألباب اللاغين والسفهاء الذين يتخذونهم أربابا من دون الله ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم وضلالهم !! (التوبة ٣١/٣٢) !! وكثير منهم يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون فى الحقيقة عن سبيل الله .. (التوبة ٣٤) !!

القرآن المجيد ، قول رسول كريم ، لا قول حبر ولا كاهن : " وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ " (الحاقة ٤١ ـ ٤٣) .. الكهانة تقترن فى البيان القرآنى بالجنون ـ يقول رب العزة لنبيه المصطفى : " فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ " (الطور ٢٩ ، ٣٠) ..

لم يتخذ الإسلام هذا الموقف الرافض للكهانة والكهان ، بمعزل عن رؤية شاملة تقدم للآدمى هدايته بلاحاجة إلى وساطة أو شفاعة أو تحكم حبر ولا كاهن .. صلة الإنسان بربه سبحانه وتعالى صلة ممدودة موصولة لا يخفيها

ولا يحجبها شيء .. فحيثما وجد المسلم يستطيع أن يتجه إلى الله ، وأن يبث دعـاءه ويؤدى صـلاته وقـيـامـه وتهـجـده ، وصومه وحجه .. يطمئنه القرآن المجيد إلى أن حبله إلى الله لا ينقطع .. " فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ) "البقرة ١١٥) .. لاحاجة بالإنسان إلى كهانة ولا إلى هيكل ، ولا حاجة به إلى وساطة وسيط ولا إلى شفاعة متشفع ، لأن وزنه أمام الله بعمله وتقواه ، ومصيره معلق بيده وما يقدمه لا بما يتوسط أو يتشفع له به سواه.. "وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا" (الإسراء ١٣) .. "كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ " (الطور ٢١) .. الإنسان يثاب وينجو بعمله لا بوساطة الكهان والأحبار .. يحمل وزره لا وزر غيره "ولا تزر وازرة وزر أخرى " (الأنعام ١٦٤ـ وأيضا فاطر ١٨، الإسراء ١٥، النجم ٣٨، ٣٩) .. فى القرآن المجيد أن الإنسان بسعيه ، وأنه ليس له إلاّ ما سعى ، وأن سعيه مرصود معروف فى الملأ الأعلى ..

"وَأَن لَّيْسَ لِلإنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاء الأَوْفَى" (النجم ٣٩ ـ ٤١).

الله فى عقيدة الإسلام ، هو العليم الواسع المحيط ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم ما يظهره الإنسان وما يخفيه ، وما يدور بدخائل الصدور ـ هو سبحانه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء شهيد ، وعنده توزن الأعمال بموازينه وعدله ، وما كان سبحانه بظلاّم للعبيد . أبواب السماء مفتوحة بلا وساطات ، والله تعالى أقرب لعباده من حبل الوريد (ق١٦) .. يخبرهم فى محكم تنزيله أنه " لسميع الدعاء " (ابراهيم ٣٩). ويوجه سبحانه دعوة مفتوحة إلى عباده باللجوء إلى رحابه : " وقال ربكم ادعونى أستجب لكم " (غافر ٦٠) .. ويطمئنهم عز وجل لتلبيته فيقول : " وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانى " (البقرة ١٨٦) وهذه العقيدة تغنى الآدمى فى باب الاعتقاد ، وتغنيه أيضا عن وساطات مدعى

الوساطة ، أو مدعى الشفاعة ـ وتغلق أبواب الدجل على الدخلاء ، رافعة لافتة بعنوان : " الوسطاء يمتنعون " !!!

هذه الباحة الربانية ، والضوابط المحكمة للمسئولية ، تغلق أبواب الدجل على الدخلاء والوسطاء وكل أشكال الكهانة التى تتخذ لكل مجال لباسه ، ولكل زمان وميدان سبله ومسالكه ، وتتسرب من الأديان إلى غيرها ، فتتحوصل حول السياسة أو الاقتصاد أو غيرهما ، كهانة تدعى امتلاك الحكمة والمعرفة دون سواها ، وتوغل فى الركوب على وعى وعقول وضمائر الناس ، تفرض الهيمنة عليهم بحكم " اعتياد " الاتباع لهم والإخلاد إلى سلطانهم وما يُظَن أنهم يمتلكون به الحكمة والصواب فضلاً عن مفاتيح السماء وصكوك الغفران !

رفَضَ الإسلام كل صور الكهانة ، ولم يجعل للمسلم أوعلى المسلم من سلطان غير سلطان العقل والنظر الصحيح والموعظة الحسنة .. فلا اختصاص فى الإسلام لأحد بحق الفهم والتفسير ، ولا باحتكار الصواب ، أو بامتلاك

مفاتيح السماء .. بذلك أسقط الإسلام سلطان الكهانة ونفوذ الأحبار ، ولم يقبل من المسلم أن يلغى عقله صدوعا أو خضوعا أو خوفا من أى سلطان غير سلطان العقل والحكمة والصواب .. بل بلغ من احترام الإسلام للعقل أن قدمه على ظاهر الشرع عند التعارض ، وجعل الأرجحية لما دل عليه العقل إذا تعارض مع النقل .

ليس فى الإسلام سلطة ـ فيما يقول الإمام محمد عبده ـ سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر .. ولم يجعل الإسلام لأحد بعد الله ورسوله ـ سلطانا على عقيدة أحد ، ولا سيطرة على إيمانه .. نبوة الرسول ذاته نبوة هداية قوامها الإبلاغ والتذكير بلا سيطرة ولا تجبر .. " فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر " (الغاشية ٢١ ، ٢٢) .." وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ " (ق ٤٥).. سبيله فى دعوته إلى ربه ـ الحكمة والموعظة الحسنة .. " ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ

وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " (النحل ١٢٥).

رفض الإسلام للكهانة بكافة أشكالها وصورها ، ليس إهدارا أو إشاحة عن علوم الدين والاهتمام به ورعايته ، وإنما هى توسعة محمودة لذلك كله بترك الباب مفتوحاً لمن يستقيم قصده ويملك ملكاته لينهل ويغترف من العلم اللدنى وأحكام الدين حتى يمتلك أدواته وتتسع قاعدة علمه ومعارفه ويستطيع بهذا كله أن يدلى بدلوه فى تيار الدين وبحوره الواسعة ، دون أن يكون مشروطا لذلك الانتماء إلى سلطة دينية أو التحصن بها أو اتخاذها بابا ووسيلة للهيمنة ورعاية المصالح . ليس كالإسلام دين يحض على احترام العلم والعلماء والرجوع إلى أهل الذكر ، ولا يرتفع المسلم بفضيلة كما يرتفع بفضيلة العلم ، ولا يستوى فى شرعة القرآن الذين يعلمون والذين لايعلمون (الزمر ٩، فاطر ٢٨)، ولم يستغن الإسلام فى إعلائه للعقل عن العلم والعلماء ، فإذا أعوز الإنسان العلم بما يريد ، فأمامه أهل الذكر من العلماء

والدارسين العارفين .. فى القرآن المجيد : "فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ" (النحل ٤٣).

فارق بين امتلاك العلم والحكمة ، وبين امتلاك السلطة .. بين من يتعلم العلم ويبذله للناس ، وبين من يدعى احتكار السماء والأسرار .. الفوارق بين العلماء وأهل الذكر فى الإسلام ، وبين الكهانة ، فوارق هائلة فارقة ، فمادة العلماء العلم والمعرفة وليس التنبؤ أو السحر أو التنجيم ، وفارق بين المعرفة والعرافة ، وبين الهداية والسحر والتنجيم .. العلماء وأهل الذكر لا قداسة لهم ولا يدعون قداسة كما يدعى الكهان والرائون والعرافون ، ويؤدون الفرائض والمناسك والشعائر التى يؤديها المسلمون ، ولا يباشرون طقوسا أو مراسم خاصة أو يختصون بقرابين ولا بشفاعات كما يفعل ويتاجر رجال الكهنوت . وعلماء الإسلام وأهل الذكر لا يُرسمون بطقوس ولا بمباخر ولا بذبائح ، ولا يدعون الإصغاء لصوت الله ولا يتكلمون باسمه ، ويتمايزون بعلمهم لا بطبقاتهم ، ولا يتخذون الدين حرفة للتجارة .. إن العلماء

وأهل الذكر فى الإسلام شموع تضيء دون أن تصادر على عقول الناس ، تنشد بذل العلم والهداية بلا ادعاء ولا استعلاء ولا ركوب على رقاب الناس ، فلا سحر ولا عرافة ولا كهانة ولا حواصل تتشرنق فيها المصالح والمآرب والأهواء ، وإنما هو مفتاح العقل والضمير الذى ينشد به الإنسان ما يشاء حيث يشاء ، ويتجه به إلى الخالق بقلب منيب !

الأديان، وعقيدة النبوة !

قد يبدو هذا العنوان مثيرا للتساؤل ، باعثا - ربما - على شيء من الحيرة ، فالأديان التى نتحدث عنها كلها لله ، والله سبحانه وتعالى واحد ، والرسل والأنبياء الذين نهضوا بمهام الرسالات والنبوات ، همُ جميعا اصطفاء رب واحد ، وخالق واحد .. والقرآن المجيد ينوه إلى هذا ويتجاوزه إلى اعتبار الإيمان بكل ما سبق من الرسالات والنبوات جزءاً من الإسلام .. وفى سورتى البقرة وآل عمران أمر إلهى يوصى المسلمين بذلك ، ويقول لهم : "قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" (البقرة ١٣٦، آل عمران ٨٤) .. فكيف تتعدد أو تختلف عقائد النبوة فى الأديان ، وأصلها واحد ، وباعثها واحد ، ومضمونها صادر من إله واحد ؟!

تنحل هذه الإشـــكاليـة الظاهرية ، إذا تأملنا فى رحلة حياة البشرية ، وعرفنا أنها تمر بمراحل أشبه بحياة الإنسان نفسه التى تبدأ بالطفولة ، وتنتهى بالنضج عبر مراحل الصبا والشباب .. فى هذه الرحلة لا تتسـع الإنسانية ـ مثلما لا يتسع الإنسان الفرد ـ إلاّ لكل ما تحتمله مرحلة التلقى ، سواء للأديان بالنسبة للأمم والجماعات والأقوام ، أم للتعليم والتأديب بالنسبة للأفراد . كل طور من هذه الأطوار محكوم بزمـانه وميقاته من ناحيـة ، ومحكـوم بقدرة المتلقـى أو المتلقين على الاستيعاب والإدراك والفهـم من ناحيـة أخرى !

ويستطيع المتتبـع لسنن النبوات فى أطوار البشـرية الأولى ، أن يلمح بغير عناء أن عقيدة النبوة فى الأديان المرسلة إليها قد تحددت بالزمان والمكان ، مثلما تحددت بوسيلة الخطاب وحجج الصـدق التى لاغناء عنها لرسـول أو نبى لإقناع الناس بأنه لا يتحدث بلسانه ، وإنما هو مبعوث مرسل يتحدث بأمر ربه الذى اصطفاه وبعثه لهداية الأقوام

فى دوائرهم المحدودة بمكان معيشهم وبالزمان الذى فيه عاشوا ونزلت إليهم الرسالة.

كافة النبوات التى كانت قبل النبوة المحمدية ، كانت لأقوام .. بهذا تحدث القرآن المجيد ، وتحدثت أسفار العهد القديم بغض النظر عما يقال عما يكون قد داخله من تحريف عبر مئات السنين التى كتب فيها، ومئات السنين الأخرى التى جمع فيها !! .. فى القرآن الحكيم أن نوحا أرسل إلى قومه (الأعراف ٥٩) ، وأن هوداً أرسل إلى قومه عاد .. "وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً" (الأعراف ٦٥ وهود ٥٠)، وأن صالحا أرسل إلى قومه ثمود .. " وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا " (الأعراف ٧٣ وهود ٦١)، وفى القرآن الحكيم : " وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ" ؟! (الشعراء ٦٩ ، ٧٠) .. كما أخبر القرآن أن نبوة إلياس كانت إلى قومه : " وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ" ؟! (الصافات ١٢٣ ـ ١٢٥) ، وأن موسى قد أرسل إلى قومه بنى إسرائيل .. "وَإِذْ

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ" (البقرة ٥٤ والمائدة ٥) ، وأن عيسى قد أرسل إلى بنى إسرائيل .. " وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم " (الصف ٦) ، والمسيح نفسه هو القائل كما روى الإنجيل : " إنما جئت لخراف بيت إسرائيل الضالة " ، وأن شعيبا قد أرسله إلى قومه مدين .." وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا " (الأعراف ٨٥ ، هود ٨٤ ، العنكبوت ٣٦) .. وأن لوطاً قد أرسل إلى قومه .. " إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ " (الشعراء ١٦١) ، " وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ " (الأعراف ٨٠، النمل ٥٤ ـ أيضا العنكبوت ٢٨)، وكان زكريا ويحيى مرسلين إلى قومهما " فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا" (مريم ١١، ١٢) ومن قبلهم إسحق ويعقوب وداود وسليمان الذين أرسلوا وذرياتهم إلى بنى إسرائيل ، وتعدد ذكر هذا فى القرآن الحكيم.

وحديث العهد القديم عن اختصاص هذه النبوات بأقوام بعينهم ، حديث كثير ومتكرر ، وبرغم الاختلاف فى بعض الأمور أوالتفاصيل ـ فإن العهد القديم يورد سيرة كل نبى مشفوعة بالقوم الذين نزل أو أرسل إليهم أو نهض بدعوته فيهم .. فيروى سفر التكوين فى الإصحاحات ٥ـ٩ قصة نوح مع قومه ، وكيف بعث إليهم وكيف ضاقوا به وضيقوا عليه حتى بنى الفلك لينجو بمن معه من الطوفان .. ويورد سفر التكوين أن الله تعالى كلم نوحا وبنيه معه قائلاً : " وها أنا مقيم ميثاقى معكم ومع نسلكم من بعدكم " (التكوين ٨ : ٩) .. وأخنوخ ـ وهو النبى إدريس بالعربية ـ السابع من آدم من نسل شيث ، وجاءت نتف من سيرته فى سفر التكوين ، وارتحل إلى أرض مصر ، واقتصرت سيرته على من عاش معهم أو انتقل فى ترحاله إليهم ، ولخص سفر التكوين حياته فى أنه : " سار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه " (التكوين ٥ : ٢٤) ، ولم يترك أثرا لدعوته فى مصر أو غير مصر ، ويورد الإصحاح التاسع من سفر

التكوين بالعهد القديم أن الله بارك نوحا وبنيه وقال لهم : "أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض " .. ومن نسل سام خرجت بطون كثيرة ، فمن نسل أرفكشاد وصلت الشجرة إلى " إبرام " (إبراهيم) الذى دعا أباه وقومه ، وابن شقيقه " لوط " ابن هاران .. ومن هذا النسل انحدرت قبيلة " عاد " التى منها وإليها أرسل هود عليه السلام الذى لم يرد له ذكر فى العهد القديم ، أما النبى "صالح" فقد كان من نسل عامر الذى انحدرت منه " ثمود " التى منها وإليها بعث النبى صالح عليه السلام .. والنبوات التالية فى العهد القديم كلها نبوات "مخصوصة" ببنى إسرائيل الذين بلغ بكتابهم أن اعتبر الرب نفسه رب إسرائيل ، وتكرر هذا مئات المرات بأسفاره المختلفة .. ولم يكن اختصاص كل نبى بقومه هو كل ما استقر فى عقيدة النبوة لدى بنى إسرائيل ، وإنما لابستها أخلاط السحر والرؤيا والأحلام ونبوءة الكهانة ونبوءة الجذب أو الجنون المقدس ، ونبوءة التنجيم وطوالع الأفلاك ، ولابس الغموض تعريف

النبوة فى العهد القديم مغموسا بإساءة معيبة إلى الأنبياء ، فصورت لوطا ـ عليه السلام ـ يستسلم لشرب الخمر ولخديعة ابنتيه فتحملان منه سفاحا (التكوين ١٩:٣٠ ـ ٣٨)، وصورت يعقوب ـ عليه السلام ـ يكذب على أبيه ويسرق بركة أخيه ويحتال على أخيه ويبتاع منه بكوريته (التكوين ٢٧: ١ ـ ٤٥) .. وصورت يهوذا بن يعقوب رأس اليهود وأحد الأسباط يزنى بزوجة إبنه وينجب منها طفلى زنى أحدهما جد داود (التكوين38١٢: ـ٣٠) .. وصورت النبى هارون يصنع عجلاً من ذهب ويبنى له مذبحا ويقيم له عيدا ويذبح له)الخروج ٣٢ : ١ ـ ٦) .. وصورت داود ـ عليه السلام ـ يغتصب زوجة " أوريا الحثى " وتحبل بسليمان ويعمل على قتل " أوريا " (صموئيل /٢ ـ ١١: ١ ـ ٢٧)!!. هذا الاضطراب فى فهم عقيدة النبوة اضطراب فى صياغة الخلق لا فى عقيدة الرب سبحانه وتعالى ، وقد كانت كثرة النبوات فى بنى إسرائيل لإصلاح هذا الشطط الذى لا يفارقهم ولا يفارقونه ! .. وتورى كثرة

إسباغ وصف النبوة في بني إسرائيل غلى الرائين والعارفين والناظرين والمتنبئن وأشباههم ـ أنهم كانوا يدخلون في زمرة الأنبياء من هم أشبه بمسميات عصرنا بالدراويش وأصحاب الأذكار ، يدل على ذلك ماجاء كثيراً في أسفار العهد القديم .. فجاء في سفر صموئيل الأول: " فأرسل شاول رسلا لأخذ داود ولما رأوا جماعة الأنبياء يتنبأون وصموئيل واقفا رئيسا عليهم ، كان روح الله على رسل شاول فتنبأوا هم أيضا ، وأخبروا شاول فأرسل رسلا آخرين فتنبأوا هم أيضا ... إلخ " (صموئيل 1/ ـ ١٩ : ٢٠ ـ ٢٢) .. وجاء بذات السفر : " ... إنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودف وناى وعود يتنبأون فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم !" (صموئيل /١ ـ ١٠ : ٥ ـ ٧) .. وصارت النبوة في عقيدة بني إسرائيل صناعة وراثية يتوارثها الأبناء عن الآباء ، وتكرر لفظ: " بنو الأنبياء " عدة مرات في العهد القديم (على سبيل المثال سفر الملوك الثاني ٢ : ٣ ، ٥ ، ٧) ... وهذه الكثرة الكاثرة المحسوبة على

الأنبيــاء في بني إســرائيل ، والتى لبثــت فيـها ردحـا مــن الزمـان طويل ، قد بلبلت عقـيدة النبوة فى الأفـهام ، وأصبح الكشف الروحى صناعة للدخلاء بدلا من أن يكون نفحة نبوة ولمحة من لمحات الصفاء التى ترتفع فيها البصيرة عن حجب الهوى والضلالة !

هذه الالتباسات التى خالطت عقائد أقوام، وارتبطت أيضا بظـروف الزمـان والمكـان ، كـانت تحـتـاج بالضــرورة إلى "بعثات" خاصـة بلغـة العصر : نبـى إلى قومـه ، محـدودة مهمته بهم ، فما كانت سبل الاتصال فى العالمين قد انتشرت بعد ، وكان حـال كل قـوم من هؤلاء الأقـوام كـجزر منعـزلة ، يحتاج كل منها إلى بعثة تخصه وتداويه ، وتسعى لانتشاله من وهدة ما هو فيه .. فمعصيات الناس وضلالاتهم فى هذه الجزر التى تكاد تكون منعزلة قد اختلفت بين زمـان وزمـان ، وبين رقـعـة ورقـعـة ، وبين قـوم وآخـرين ، ومـثل هذه الأحـوال تخاطب كل حال منها بما يجدى معها قبل أن تتهيأ البشرية لاستقبال الخطاب الجامع الشامل .. فليس يجدى مثل هذا

الخطاب مع أشتات تفرقت ضلالاتها وتنوعت ، ولم تصل إلى مرحلة النضج والفهم بعد !

ويـدل تاريخ النبوات إلى هؤلاء الأقـوام ، أنه قـد لازم كل نبوة " حجة صدق ".. هذه الحجة ترمى بخرق المألوف إلى مقاومة شرنقة الإلف والاعتياد بأن تكون مدخل النبى لإبهار وتصديق قومه بأنه بالفعل قد جاءهم مبعوثاً من الله .. فكان توقع الطوفان وبناء الفلك والنجاة به حجة نوح عليه السلام ، يروى القرآن المجيد ذلك منذ أمره ربه سبحانه وتعالى بصناعة الفلك " وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ " (هود ٣٧) إلى أن قضى الأمر وغيض الماء : " وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " (هود ٤٤) .. وأما حجة هود عليه السلام لقومه عاد ، فكانت الريح الصرصر العاتية التى استعجلها القوم المجرمون! (الأحقاف ٢٤ ، ٢٥ ، الحاقة ٥ ـ ٨) .. وكانت حجة صالح لقومه ثمود حجة بالغة ،

حين سألوه أن يخرج لهم من الصخرة ناقة .. ، فأيده الله جل شأنه بناقة انشق عنها الصخر لتكون آية لهم ، وأمرهم ألاّ يمسوها بسوء ، فلما خالفوا وفعلوا وعقروها ـ أخذ الذين ظلموا " الصيحة " فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ! (هود ٦١ ـ ٦٨) .. وقوم لوط الذين كانوا يعملون السيئات ، ورفضوا كل هداية وكل دعوة للإقلاع عما هم فيه ، أمطرهم الله تعالى بحجارة من سجيل منضود ، وجعل عاليها سافلها .. " فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ " (هود ٨٢) .. ومدين قوم شعيب الذى حذرهم من نقصهم الكيل والميزان أن يصيبهم مثل ما أصاب أقوام نوح وهود وصالح ولوط ـ فلما إبوا واعتدوا وجاء أمر ربهم أخذتهم الصيحة مثلما أخذت ثمود.. وإبراهيم الخليل الذى أيده الله بمعجزة حمل امراته وهى عجوز(هود ٦٩ ـ٧٦)، والنار التى ألقاه الكفار فيها فجعلها سبحانه وتعالى برداً وسلاماً عليه.. (الأنبياء ٥١ ـ ٧٠)، وحجة الطير الأربعة التى أمره سبحانه وتعالى ففرقها أجزاء على قمم

الجبال ثم دعاهن فأتينه سعياً بأمر ربه (البقرة ٢٦٠) .. وموسى الذى كلمه ربه تكليماً وآتاه تسع بينات حجج صدق قاطعة ناصعة فما ظنوه إلاّ مسحوراً (الإسراء ١١٠، الشعراء ٤٥ ـ ٤٦ ، الأعراف ١١٥ ـ ١٢٠ ، والنمل ٧ ـ ١٢ ، الأعراف ١٠٦ ، ١٣٠) .. ثم لم يمنع بنى إسرائيل من عصيانهم لموسى آية البحر الذى فرقه لهم وأغرق المطاردين فى اليم ، ولا منعتهم باقى الخوارق ـ من أن يتنكروا لموسى ويتخذوا العجل من بعده (البقرة ٩٢) .. أما سليمان ، فقد أعطاه الله العلم والحكمة والسلطان ، وأيده بخوارق لا عد لها ولا حصر ، وأعطاه العلم بلغة الحيوان والنمل والطير ، وسخر له الريح والطير والجن (النمل ١٥ ـ ٤٤ ، سبأ ١٢ ـ ١٤) .. ومع ذلك فإن هذه الخوارق الدامغة لم تمنع من تكرار مشاهد الإنكار والعصيان .. ثم ها هى الخوارق تتوالى مع هذه النبوات التى بعثت لأقوام ، فلا يعدم المنكرون وسيلة للصد والمجادلة والإنكار .. فبعد نبوة يحيى عليه السلام بعد آية ميلاده لأبوين شيخين طاعنين ، أيد الله المسيح عليه

السلام منذ حمل مريم فيه حتى رفعه إليه - بآيات معجزات هائلات : حمل مريم فيه بغير أب ، وكلامه في المهد ، وجعله الماء خمراً في عرس " قانا الجليل " ، وتصويره الطين على هيئة طير ونفخه فيه فتكون طيراً بإذن الله ، وإبراؤه الأكمه والأبرص ، وإحياؤه الموتى بإذن الله ، وإخباره بنى إسرائيل بما يأكلون وبما يدخرون فى بيوتهم - ومع ذلك أحس عيسى منهم الكفر ومكروا لصلبه ومكر الله والله خير الماكرين - " إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ " (آل عمران ٥٥) .

اقتصار النبوات على أقوام بعيونهم فى هذه الأطوار، كان ضرورة فرضها تغاير الأحوال ما بين هؤلاء وأولاء ، وانقطاع الصلة بين جزر منعزلة انقطعت أو تباطأت فيما بينها وبين العالمين سبل الاتصال ، فكان خطاب كل نبوة محدوداً بدائرته ناساً ومكاناً .. وكانت حجج الصدق التى زود بها

الأنبياء محكومة بالدائرة والغاية ، واحتلت الخوارق الحسية مكان الصدارة ، لأن مثل هذه الحجج فى متناول حواس ومدارك الناس فى دائرتهم ، ينظرونها بعيونهم ، ويسمعونها بآذانهم ، ويلامسونها بحواسهم ، فيدعوهم الانبهار بالإعجاز المعجز فيها إلى تصديق النبى المؤيد بها أنه بالفعل مبعوث من عند ربه .. لم يكن غائباً عن الحكمة الإلهية أن الخوارق الحسية حجة على من شاهدها وعاينها ، وليست بذات القدر على من لم يشاهدها بنفسه ويعاينها، ولا كان غائباً أنها تفقد أثرها بل وتنطمر بمضى الزمن ، ولا كان غائباً أن عناد الكفار والمكابرين لا يقف فى انكاره عند حد !! بيد أن هذه هى سنن التدرج بأفهام وأفكار الناس حتى تتهيأ لاستقبال ما هو أعرض وأعمق وأشمل وأوفى بالغاية المثلى التى يريدها جل شأنه للعالمين !

مع كل ما زود به الأنبياء والرسل من آيات معجزة ، وحجج صدق مبهرة ـ لم يعدم الناس كما رأينا وسيلة للجدل والإنكار ، ولابست عقيدة النبوة فى أفهامهم أغلاط ذهبت بها

عن مفهومها ومرادها ، حتى باتت فى هذه العقول مرادفاً لصناعة التنجيم أو الاستطلاع أو الكهانة ، وخلط بعضهم بينها وبين الجنون كما خلطوا بينها وبين السحر والكهانة ، واتخذها البعض مجالا لتوارث الأبناء عن الأباء ووقر فى أخلاد الناس من عامة جهلائه حتى أحباره وعلمائه ـ أن الكشف عن الغيب مرادف لمعنى النبوة ، وأن وقوع الخبر المنبأ عنه أو المتنبأ به هو وحده امتحان الصدق الذى يمتحن به الأنبياء الصادقون فيما ينقلونه أو يتكلمون به عن الإله ! ولم تتغير هذه المعانى الملتبسة بعد النبوات الكبرى ، وتجددت بظلامها بعد ستة قرون من نبوة موسى الكليم التى لم يعرف بنو إسرائيل مثالاً للنبوة أتم وأكمل منها ، إلاً أن الدنيا بمصالحها زحفت ، وتحول الهيكل إلى مزار تجارى ، وعادت الأساطير ، وتباعد الناموس الذى نزل به موسى ، وظل الانحدار يترى حتى كانت المعاندة السقيمة التى استقبلوا بها المسيح عليه السلام ، والتى وصلت إلى ذروتها فى مأساة الصلب بغض النظر عن شخص المصلوب ،

هل هو شخص السيد المسيح عليه السلام كما يعتقد المسيحيون ، أم شبيه له كما يقول القرآن المجيد ؟

* * *

من أعوص الأمور التى تعترض الباحث فى عقيدة النبوة فى الأديان، التصدى لهذه العقيدة فى الديانة المسيحية .. لا تأتى الصعوبة من نظر الأديان الأخرى إلى المسيحية أو عقيدة النبوة فيها ، فاليهود أنكروا ولا يزالون ينكرون نبوة السيد المسيح عليه السلام ، هذا الإنكار المتصلب المشتط الذى قادهم إلى مأساة " الصلب " بغض النظر عن شخص المصلوب ، هل هو المسيح ذاته كما يؤمن المسيحيون ، أم شبيه له كما أخبر القرآن المجيد . بهذا الإنكار اليهودى لنبوة السيد المسيح تنفض "إشكالية" البحث فى اليهودية عن رأيها فى عقيدة النبوة المسيحية التى

رفضتها وأنكرتها ورفضت وأنكرت السيد المسيح الذى بعث بها ودعا إليها !

كذلك لا تأتى الصعوبة فى استكناه عقيدة النبوة فى المسيحية - من الإسلام ، فالإسلام بقرآنه المجيد وسنة نبيه ، يقر بنبوة السيد المسيح ، ويضعه ويضع نبوته فى أعلى منزلة ، وَرَدَّ عنه وعن المسيحية إنكار ورفض وتهجم اليهود الذين بلغ بهم الإنكار والصلف غاية مداه حافرين بالصلب الدامى بقعة سواء فى تاريخهم وتاريخ الإنسانية من المحال أن تُزَال .. فالمسيح فى القرآن المجيد هو عيسى ابن مريم ، روح الله وكلمته : " إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي

أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ " (آل عمران ٤٥ ـ ٥١) ..

وليس فى القرآن الحكيم أى التباس حول كنه وطبيعة وخلق السيد المسيح ، فهو عبد الله ، وروحه وكلمته ، ورسوله , مثله كما قال القرآن كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون : " إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ " (آل عمران ٥٩) .

المسيح عليه السلام فرع وارف فى شجرة النبوة التى أمر المسلمون بالإيمان بها : " قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ

لاَ نُفَــرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْــنُ لَهُ مُـسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَــغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (آل عمران ٨٤ ، ٨٥) .

وعن آيــاته التى بـــــها زوده رب العـــزة - سـبحانه وتعالى ، روى القرآن المجيد فقال " :إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَـرْيَمَ اذْكُـرْ نِعْـمَـتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّـوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَـهَيْئَةِ الطَّيْـرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَإِذْ أَوْحَــيْتُ إِلَى الْحَــوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُــولِي قَــالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ * " (المائدة ١١٠ - ١١١).

وقطع القـرآن المجـيـد دابر الأقـاويـل التى نُسبَت كـذباً وزوراً وبهتاناً بغير حق إلى السيد المسيح ، فقال : " وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيـسَى ابْنَ مَـرْيَمَ أَأَنـتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِـذُونِي وَأُمِّيَ

إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ × مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (المائدة ١١٦ ـ ١١٨).

المسيح فيما أخبر عنه القرآن المجيد عيسى ابن مريم ، بشر رسول مبعوث من الله عز وجل ليبلغ رسالته إلى بنى إسرائيل ، وهو هو ما قاله السيد المسيح ودعا إليه فكان يقول فيما رواه القرآن : "وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ" (المائدة٧٢).

لا إشكالية إذن فى استكناه عقيدة نبوة السيد المسيح فى القرآن المجيد ، فهو كلمة الله وعبده ورسوله ، خلقه كما خلق آدم ، فشأنه عز وجل إذا أراد شيئاً أن يقول له

كن فيكون ، وبعثه سبحانه وتعالى برسالته إلى بنى إسرائيل مبلغاً وهادياً ومرشداً .

* * *

ما قيل وكتب فى الكتب المسيحية عن طبيعة السيد المسيح عليه السلام كثير بالغ الكثرة والتنوع ، وبكل لغات الأرض ، وصاحب هذه الكتابات رؤى مختلفة وتصورات عديدة يشق على بحر العاديين بل على العلماء الامساك بخيوطها واستخلاص زبدتها .. فى مقدمته لكتابه " :طبيعة المسيح " ، يقول البابا شنودة الثالث : ما نصه : " موضوع "طبيعة المسيح" موضوع هام جدا ، كان سبب انقسام خطير فى الكنيسة فى منتصف القرن الخامس (سنة٤٥١م) "

ومحال على الباحث إزاء تعدد الآراء المسيحية تعددا بغير حد ، ألاّ يبدأ استطلاعه بمدونات الأناجيل الأربعة المعتمدة : **متى ، ومرقس ، ولوقا ، ويوحنا** وما ألحق بها .

فـى العهد الجديد من الرسائل وأعمال الرسـل.. كتبـها **بولس، وبطرس ، ويعــقــوب ، ويوحنا ، ويهــوذا** .. والــقــراءة فـى الأناجيل الأربعة المعتمدة ، وأعمال الرسل ، هى أيسر ما يصادف الباحث عن عقيدة النبوة فى المسيحية ، وهل هى عقيدة نبوة خالصة ، أم أنها متماسة بالعقيدة الإلهية بالنظر إلى عقيدة التثليث التى كثرت فيها الكتابات وصار فهمها طلبة وغاية لكثير من أهل الأديان وللمسيحيين على السواء.

لقد صارت الأناجيل متاحة الآن بترجمات عديدة إلى كل لغات المعمورة ، ولم يكن ذلك متاحا فى الزمن الغابر .. فانجيل **متى** الذى كتبه **متى البشير** ، وهو أحد تلاميذ السيد المسيح الاثنى عشر ، وكان عشارياً أى من جباة ضريبة العشور ، قد كتب إنجيله أو بشارته **بالعبرية** (أو السريانية) ، ثم ترجم إلى اليونانية لمترجم غير معروف ، واختلفت الروايات فى زمن كتابته ، فقال الدكتور **بوست** فى قاموس الكتاب المقدس ، إن البعض يظن أنه كتب بين سنة ٦٠ وسنة ٦٥م ، بينما يقول "**هورن**" : "إنه كتب سنة

٣٧ أو سنة ٣٨ أو سنة ٤١ أو سنة ٤٣ أو سنة ٤٨ أو سنة ٦١ أو سنة ٦٢ أو سنة ٦٤ من الميلاد " ، **ويرجح** أنه كتب فى العقد السابع الميلادى ، فتورد **دائرة المعارف الكتابية** لمجموعة من كبار رجال وعلماء **المسيحية** ، أن "هذا الانجيل هو أول **الأناجيل** حسب الترتيب التقليدى ، **وأولها كتابة** ، وكتب قبل الأناجيل الثلاثة الأخرى ، وأن المؤكد أنه كتب قبل خراب أورشليم فى سنة ٧٠ م (أنظر متى ٢٤ : ١٥)، وأن التاريخ المرجح لكتابة هذا الإنجيل فى **اليونانية** هو العقد السابع من التاريخ الميلادى ، وأن البعض يرى - مثل **زاهن** - أنه قد كتب فى **الأرامية** فى سنة ٦٢ ميلادية " (دائرة المعارف الكتابية - ج ١ - ص ٤٥٧) .

أما إنجيل **مرقس** ، فكتبه فيما يورد الباحث القبطى المعروف الدكتور **زكى شنودة** : فى موسوعته " تاريخ الأقباط جـ١ - ص ٧٦ " - كتبه **يوحنا** وهذا اسمه ، أما **مرقس** فلقبه ، وأن أصله من اليهود القاطنين بالخمس مدن الغربية فى شمال أفريقيا ، وهاجر أبواه إلى فلسطين ،

وأن **مرقس** كان من أوائل الذين آمنوا بالمسيح ، فاختاره ضمن السبعين رسولا ، وكان يتردد على بيته ، ويقال إنه أكل الفصح عنده مع تلاميذه - وإن في بيته حل الروح القدس على التلاميذ ، وإنه قد بشر في أنطاكية وآسيا الصغرى ، والخمس مدن الغربية ، ثم قصد إلى **مصر** فأسس كنيستها وكان أول بطريرك لها ، ثم غادرها إلى روما حيث وقع في الأسر مع **بولس** ، وإنه قد كتب إنجيله باللغة **اليونانية** ، وكذلك تورد دائرة المعارف الكتابية ، فتقول إن " خلاصة المستجمع من أقوال الآباء إنه كتب أصلا **باليونانية** (جـ ١ - ص ٤٦١) وإنه قد وقع اختلاف كبير في زمن كتابته " ، وفي ذلك قال " **هورن**" إنه : " ألف سنة ٥٦ م وما بعدها إلى سنة ٦٥ م ، والأغلب أنه ألف سنة ٦٠ م أو سنة ٦٣ م "، بينما تورد دائرة المعارف الكتابية (جـ ١ - ص ٤٦٧) أن العقليين القدامى "حينما رجعوا بالتاريخ إلى سنة ٧٠م أو ما يقرب منها ، شعروا بأن تاريخيته قد استقرت إلى حد بعيد . ولكن ظهرت حديثا نظرية القيم البراجماتية

أو النفعية ، وبناء على هذا ، يعتبر " **بيكون** " أن المفتاح لكل إدراك علمي صحيح لرواية الكتاب المقدس ، ليس تاريخيا محضا ، ولكنه دائما إيتولوجي ، وكثيرا ما يكون دفاعيا " .. وتضيف دائرة المعارف الكتابية أن " **بيكون** " يحاول حل المسألة باتهام **مرقس** بأخطاء تاريخية صارخة ، وأنه قد يكون فيما قاله "**بيكون**" بعض عناصر الحق وأحدها أن مفردات اللغة فى عصر متأخر قد تستلزم نوعا من ترجمة الأصل ، ولكن الترجمة لم تكن أبداً اختراعا أو تأليفا " . (جـ ١ ـ ص ٤٦٧) ، وفى ص ٤٦٠ وما بعدها تتوقف دائرة المعارف الكتابية طويلا بصدد المشكلات المتعلقة بالنص نفسه ، وهو ما يختص بالجزء الأخير من الإصحاح السادس عشر (مرقس ١٦ : ٩ ـ ٢٠) ، فتشير إلى ما يعتقده **برجون وميللر وسالمون** أنه نص أصيل ، ويفترض **ميللر** أنه إلى هذه النقطة قد سجل **مرقس** بصورة عملية أقوال **بطرس** ، وأنه لسبب ما كتب الأعداد من ٩ـ ٢٠ من الإصحاح ١٦ بناء على معلوماته هو ، وتعقّب دائرة المعارف الكتابية بأن

معظم العلماء يعتبرونها غير **مرقسية** أصلاً ، ويعتقدون أن العدد الثامن (من الإصحاح ١٦ (ليس هو الخاتمة الملائمة ، وأنه لو أن مرقس كتب خاتمة ، فلا بد أن هذه الخاتمة قد فقدت ، وأن الأعداد من ٩ـ ٢٠ من الإصحاح ١٦ التى تضم تراثا من العصر الرسولى ، قد أضيفت بعد ذلك . وأضافت دائرة المعارف الكتابية (جـ١ ـ ص ٤٦٠) أن " **كونيبير** " قد وجد فى مخطوطة أرمينية إشارة إلى هذه الأعداد كتبها " **أريستون**" الشيخ الذى يقول إنه تلميذ يوحنا الذى يتحدث عنه **بابياس** ، وعلى هذا فإن الكثيرين يعتبرونها صحيحة ، والبعض يقبلونها على اعتبار أن الرسول **يوحنا** قد خلع عليها سلطانه " . (دائرة المعارف الكتابية جـ١ ـ ص ٤٦٠ وما بعدها) .

أما انجيل **لوقا** ، فقد كتبه **لوقا** البشير الذى ولد فى أنطاكية ، ولم يكن من اليهود ، ودرس الطب ومارسه ، وكان مرافقا **لبولس** الرسول فى أسفاره ، وكتب انجيله باللغة **اليونانية** ، كما كتب أعمال الرسل ، ومات شهيداً فى مدينة

"بتراس " (د. زكى شنودة . جـ ١ ـ ص ٧٦)، ويقول **القس إبراهيم سعيد** عن انجيل **لوقا** " :إنه كتب لليونان ، وإنجيل **متى** كتب لليهود ، وانجيل **مرقس** كتب للرومان ، وانجيل **يوحنا** كتب للكنيسة العامة " .

وتوجد إشارة لذلك فى بداية انجيل **لوقا** التى ورد بها على لسان كاتبه البشير **لوقا** ما نصه : " لما كان كثيرون قد أقدموا على تدوين قصة فى الأحداث التى تمت بيننا ، كما سلمها إلينا أولئك الذين كانوا منْ البداية شهود عيان ، ثم صاروا خُداما للكلمة ، رأيت أنا أيضا ، بعدما تفحصت كل شىء من أول الأمر تفحصاً دقيقاً ، أن أكتبها إليك مرتبة ـ ياصاحب السمو **ثاوفيلُس** ـ لتتأكد لك صحة الكلام الذى تلقيته " . (لوقا الاصحاح الأول : ١ ـ ٤) ..

وتورد دائرة المعارف الكتابية (جـ ١ ـ ص ٤٤٩/٤٥٠) أن المراجع الأولى التى تذكر اسم **لوقا** بالتحديد ككاتب للإنجيل الثالث ، تنتمى إلى **القرن الثانى للميلاد** ، وأنه لم يكن من عادة الكتاب فى بداية القرن الثانى ، أن يذكروا اسم كاتب

الانجيل الذى يقتبسون منه ، وأنه ليس من العدل إذاً أن نتخذ من صمتهم عن ذلك حجة أو دليلا على جهلهم باسم الكاتب ، أو على إنكارهم أن الكاتب هو **لوقا** ، أما تاريخ كتابة هذا الإنجيل ، فوقع فيه اختلاف كبير ، عنه أوردت دائرة المعارف الكتابية (جـ ١ ص ٤٥٣ /٤٥٤) ، أنه من المقطوع به بالإجماع تقريبا أن **لوقا** لم يستخدم تاريخ "**يوسيفوس**"، وأن إنجيل **لوقا** ـ بكل يقين ـ قد كتب قبل سفر أعمال الرسل (أع١:١) وفى حياة الرسول **بولس** ، وأن التعليل الصحيح للنهاية الفجائية لسفر الأعمال بعد سنتين فى روميه (أ ع ٣١:٢٨) هو أن **لوقا** قد أنهى كتابه فى ذلك الوقت (بداية العقد السابع من القرن الأول للميلاد)، بينما يقول البعض (ص ٤٥٣). مثل **بارتلت وبلومر وساندى ورايت** وغيرهم ـ إنه كتب سنة ٨٠ م اعتماداً منهم على قرائن يستخرجونها من نصوص الإنجيل أوردتها دائرة المعارف الكتابية (ج ١ ص٤٥٣ / ٤٥٤).

أما الإنجيل الرابع : إنجيل **يوحنا** ، فقد كتبه **يوحنا** البشير ، ويورد الدكتور **زكى شنوده** - ص ٧٦ / ٧٧ المجلد الأول من موسوعته تاريخ الأقباط - إن **يوحنا** قد ولد فى بيت صيدا من أعمال الجليل ، وإنه ابن **زيدى وسالومى** وأخو **يعقوب** ، وإن أمه كانت أخت **مريم العذراء** ، وإنه كان يعمل هو وأخوه مع أبيهما **زيدى** فى صيد السمك ، وإنه آمن بالسيد **المسيح** ، وإنه وحده الذى كان يسير دون خوف أثناء محاكمة **يسوع** ، وإنه قد رافقه عند الصلب فسلمه السيد المسيح إلى والدته وقال لها : " يا امرأة **هو ذا ابنك** ". ، وقال **ليوحنا** " : **هى ذا أمك** " ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته ، ثم بعد القيامة وحلول الروح القدس ، اشترك **يوحنا** مع **بطرس** فى إقامة المقعد عند باب الهيكل ، وفى الذهاب إلى السامرة لوضع الأيدى على المؤمنين بها فحل عليهم روح القدس ، ثم مضى **يوحنا** إلى بلاد آسيا الصغرى ، وبدأ عمله فى مدينة "**أفسس**" ، وأنه أخذ معه السيدة العذراء ، وهناك أقام طفلا

مـيـتــا فــآمن أهل المدينة على يديه ، وقـد رسم لـهم كـهنــة وأساقفة يتولون رعايتهم ، بينما كان يخرج من " **أفسس**" إلى نواحٍ أخرى فى آسيا لنشر الدعوة ، وأسس كنائس كثيرة فى تلك البقـاع ، ثم حكم عليه بالنفى فى عـهد الإمـبراطور "دومتيانــــوس" إلى جزيـــرة " **بطمـس** "وهنـــاك كتـــب سفر " **الرؤيا** "، ثم عـاد بعد مقتل " **دومتيانوس** "سنة ٩٦م إلى " أفسس "حيث كتب إنجيله ورسائله باللغة **اليونانية** . ويرجح الدكتور " **بوست** " أن **يوحنا** قد كتب إنجيله سنة ٩٥ أو سنة ٩٦ وقـبل ســـنة ٩٨ م ، ويقـــول " **هورن** " إن ذلك الإنجيل قد كتب فى بعض الأقوال سنة ٩٨ م، بينما تورد دائرة المعارف الكتابية (ج١ ص ٤٧٠/٤٧١) : " أما فـيما يختص بالزمن الذى ظهرت فيه كتابات **يوحنا** ـ بغض النظر **عن الكاتب** ـ فـهناك الآن اتفاق مـتزايد فى الرأى على أنـها ظهرت فى نـهاية القرن الأول أو فى بداية القرن **الثانى** . وهذا هـو الـرأى الذى يعتنقه أولئك الذين ينسبون كتابة الإنجيـل لا إلى **كاتب مفرد** بل **إلى مدرسة فى أفسس** استـعـانت بمادة

تعليمية كانت موجودة ، وجعلتها فى الصورة التى تظهر عليها الآن كتابات **يوحنا** ، وكذلك الذين يقسمون الإنجيل إلى جزءين رئيسى وثانوى ، من أمثال "**سبيتا**" .

وسواء كان إنجيل **يوحنا** قد قامت بجمعه مدرسة من **اللاهوتيين** ، أو كان من عمل كاتب استخدم مادة كانت موجودة ، أو كان المحصلة النهائية لتطور لاهوتى لمفاهيم بولسية معينة (نسبةً إلى بولس) ، فالإجماع ـ باستثناء عدد قليل فيما تقول دائرة المعارف الكتابية ـ هو أن كتابات **يوحنا** قد ظهرت فى بكور **القرن الثانى** . وأحد هذه الاستثناءات البارزة ، هو " **شميدل** "وكذلك الأستاذ "**فليدر**". وتضيف دائرة المعارف الكتابية أنه يمكن أن نقدر "فليدرر" فى مجال البحث الفلسفى ، أما فى مجال النقد ، فهو كم مهمل . كما أن كتابات **شميدل** بخصوص هذا الموضوع ، تسير بسرعة فى نفس هذا المنطلق ، من عدم الأهمية . وهكذا يمكن باطمئنان قبول حقيقة ظهور كتابات **يوحنا** فى أواخر القرن الأول ، كمحصلة تاريخية صحيحة.

والنقاد الذين كانوا قد عزوا ظهور هذه الكتابات إلى منتصف القرن الثانى أو إلى تاريخ لاحق ، قد راجعوا أنفسهم ، وأقروا **بظهور كتابات يوحنا** فى أواخر القرن الأول . وهذا بالطبع لا يضع حداً للتساؤلات المتعلقة **بالكاتب ومادة الإنجيل ومدى صحته** ، وهى أمور يجب أن تدرس - فيما تقول دائرة المعارف الكتابية - من وجهة نظر موضوعية ، وعلى أساس الأدلة الخارجية والداخلية ، ولكنه يمهد الطريق لمناقشة جادة لهذه الأدلة ، ويضع حداً لأى جدل حول أمور من هذا القبيل . (دائرة المعارف الكتابية ج١- ص٤٧٠/٤٧١).

هذا بينما تشير دائرة المعارف **البريطانية** : المجلد السادس ص ٥٨٧ / ٥٨٨ ، إلى الخلاف الذى دار حول **هوية أو شخصية كاتب هذا الإنجيل ، وغير المعتبر ضمن ألـ** The Synoptic Gospels- وهو تعبير يشير إلى الأناجيل الثلاثة متى ومرقس ولوقا لاتفاقها فى النظرية وطريقة العرض (بخلاف إنجيل **يوحنا**)، وأن بعض دراسات المحاكاة التاريخية والجغرافية تورى بأن لغته ونظرياته

المتقدمة تشير إلى أن المؤلف ربما عاش **لاحقا** للرسول أو الحوارى **جون (يوحنا)** وكتب ما كتبه طبقاً لتعاليم ومشاهدات يوحنا الرسول أو الحوارى، بينما يرى البعض أن هذا الإنجيل قد كتب فى " **أفسس** " فى آسيا الصغرى نحو سنة ١٠٠ للميلاد بغرض توصيل الحقائق حول السيد المسَيح إلى الهيللنيين أو الإغريق . (دائرة المعارف البريطانية ـ المجلد / ٦ ـ ص ٥٨٧ / ٥٨٨) .

والمتفق عليه من واقع هذا العرض الموجز ، أن **الأناجيل الأربعة** قد كتبت بعد بعض العقود من رفع السيد المسيح ، وكتبت **بالعبرية والآرامية واليونانية** ، وتراخى ظهور بعضها، ثم ترجمت لاحقاً إلى عدة لغات حتى باتت الآن مترجمة إلى معظم لغات المعمورة ، وتناولتها دراسات عديدة من نواحٍ أكثر تعددا كتبت فيها مجلدات ضخمة، مهما قيل فيها فإن نصوص هذه الأناجيل الأربعة ، وأعمال الرسل الملحقة بها ، تبقى هى **المصدر الأول والأساسى** لاستكناه

عقيدة المسيحية فى شأن طبيعة السيد المسيح عليه السلام .

* * *

ويجد القارئ فى إنجيل **متى** ، أول الأناجيل الأربعة ، عشرات المواضع التى يستخدم فيها لفظ " **الأب** " **بمعنى الرب** لجميع الناس ، من مثل : " **طوبى لصانعى السلام فإنهم سيدعون أبناء الله** " (متى ٥ : ٩) ، .. " ليروا أعمالكم ويمجدون **أباكم** الذى فى السموات " (متى ٥ : ١٦) ، .. "كما أن **أباكم** السماوى هو كامل" (متى ٥ : ٤٨)، "فليس لكم مكافأة عند **أبيكم** الذى فى السموات" (متى ٦: ١)، .. " لتكون صدقتك فى الخفاء . **وأبوك** السماوى الذى يرى الخفاء ، هو يكافئك " (متى ٦:٤) ، .. "وصل إلى **أبيك** الذى فى الخفاء . **وأبوك** الذى يرى فى الخفاء ، هو الذى يكافئك " . (متى ٦:٦) .. " لأن **أباكم** يعلم

ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه " (متى ٦ : ٨) .. " فصلوا أنتم مثل هذه الصلاة : أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك " (متى ٦ : ٩ (.. "فإن غفرتم للناس زلاتهم ، يغفر لكم **أبوكم** السماوى زلاتكم " (متى ٦ : ١٤) .. " وعندما تصومون ، لا تكون عابسى الوجوه ٠٠٠٠ أما أنت فعندما تصوم ، فاغسل وجهك ، وعطر رأسك ، لكى لا تظهر صائما للناس ، بل **لأبيك** الذى فى الخفاء ، **وأبوك** الذى يرى فى الخفاء ، هو يكافئك" . (متى ٦ : ١٨) "فسكتم أنتم المتكلمين ، بل روح **أبيكم** هوالذى يتكلم فيكم " . (متى ١٠ : ٢٠) ..

ويتضح معنى هذه **الأبوة العامة** ، بمعنى **الربوبية** ، فى ذات إنجيل متى على لسان السيد المسيح : "ولا تدعوا أحداً على الأرض **أباً لكم** : لأن **أباكم واحد** ، وهو الأب الذى فى السموات . ولاتقبلوا أن يدعوكم أحد رؤساء ، لأن **رئيسكم** واحد ، **وهو المسيح** ". (متى ٢٣ : ٩ ـ ١٠) .. والمقابلة بين "**الأب**" بمعنى **الربوبية** وبين "**الرئيس**"

بمعنى البشرية واضحة فى هذه الصياغة .. ومجمل هذه النصوص دال فى صراحة ووضوح على استخدام لفظ "الأب" بمعنى "الرب" لجميع الخلق.

* * *

وفى **وحدانية الله** تعالى ، أورد إنجيل **مرقس** آيات صريحة ، من مثل : "فأجابه **يسوع**: " أولى الوصايا جميعا هى : اسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا **رب واحد** - فأحب الرب **إلهك** بكل قلبك وبكل نفسك وبكل فكرك وبكل قوتك " (مرقس ١٢: ٢٩، ٣٠) .. فقال له الكاتب : "صحيح يا معلم ! حسب الحق تكلمت . فإن الله **واحد وليس آخر سواه** " (مرقس ١٢ : ٣٢) .. وفى إنجيل **مرقس** نسبة إلى السيد المسيح : " خذوا : هذا هو **جسدى** . ".. "هذا **هو دمى** " (مرقس ١٤ : ٢٢، ٢٣) .. وعن واقعة الصلب : " وفى الساعة الثالثة ، صرخ يسوع بصوت عظيم :

ألُوى ألُــوى ، لما شــبــقــتنى ؟ " أى **إلهى إلهــى** ، لمــاذا **تركتنى** ؟ " فقـال بعــض الواقفين هناك لما سـمعـوا ذلك : " هـا إنه ينادى **إيليا** (**الله**) " ! (**مرقس** ١٥ : ٣٤ ، ٣٥) ..

" وإذا واحـد قد ركض وغمس إسفنجة في الخل وثَبَّتها على قصبةٍ وقومها إليه ليشرب قائلاً : " دعــوه لنر هل يأتــى **إيليا** (الله) لينزله ! " فـصـرخ يسـوع بصـوت عظيم **وأسلم الروح** " (مرقس١٥: ٣٦،٣٧)

* * *

وفى إنجيل **لوقا** حـديث لمـــلاكٍ ظهر للرعـاة فى منطقـة **مولد المسيح** ، قال لهم وقد خـافـوا أشد الخـوف " لا تخافـوا ! فـها أنا أبشـركم بفـرح عظيم يعم الشـعب كله : فـقـد **ولد لكم اليــوم** فى مـدينة داود مـخلص هو **المســيح الرب** " (**لوقــا** ٢:١٠، ١١) .. وفى الإصــحــاح الثـالث ، أورد إنجـيل **لوقــا** نسب السيد المسيح الذى كـان فى الثلاثين من العمر تقريبا حين بدأ (**خدمته**) ، فقال بأنه مـعروف بين النــاس : " بأنه

ابن يوسف بن عالى ، بن متثاث .... **بن آنوش** ابن **شيث** بن آدم **ابن الله** " (**لوقا** ٣: ٢٣ – ٣٨) .

ووصف آدم عليه السلام بأنه **ابن الله** ، وهو ليس كذلك فى هذه الصياغات - ، يورى بأن الكلمة تستخدم بمعنى "**عبد**" **الله** أو "**مخلوق**" **الله** ، وليس **ابن الله** بمعنى التناسل البشرى المعروف بين البشر .. وفى الإصحاح الرابع ، يرد السيد المسيح على إبليس الذى طالبه بالسجود أمامه : " قد كُتب للرب **إلهك** تسجد ، وإياه **وحده تعبد**" ! (لوقا ١٤ : ٧ ، ٨) .. وفى رد آخر عليه : " قد قيل : لا تجرب **الرب إلهك**" ! (لوقا ٤ : ١٢) .. وفى البنوة لأبوة بمعنى الربوبية والعبودية لله ، ورد على لسان السيد المسيح بالإصحاح السادس من إنجيل **لوقا** " :ولكن أحبوا أعداءكم ، وأحسنوا المعاملة ، وأقرضوا دون أن تأملوا استيفاء القرض ، فتكون مكافأتكم عظيمة ، وتكونوا **أبناء العلى** ، لأنه ينعم على ناكرى الجميل والأشرار . فكونوا أنتم رحماء ، كما أن **أباكم رحيم** ." (لوقا ٦ : ٣٥، ٣٦) .. وهى صياغة تصف

المخاطبين جميعا بأنهم "**أبناء العلى**" وتصف الله تعالى بأنه "**أباكم الرحيم**".

ويورد إنجيل **لوقا** عن وصف الناس للسيد المسيح الذى أوقف نعشا وأقام من فيه ، فقالوا : " قد قام فينا **نبى عظيم** وتفقد الله شعبه " ! (**لوقا** ٧ : ١٦).. ويروى إنجيل **لوقا** : "وفيما كان يصلى على انفراد والتلاميذ معه ، سألهم : " من تقول الجموع إنى أنا ؟ " فأجابوه " يقول بعضهم إنك يوحنا المعمدان ، وآخرون إنك إيليا ، وآخرون إنك واحد من الأنبياء القدامى وقد قام ! " فسألهم : " وأنتم ، من تقولون إنى أنا ؟ " فأجابه **بطرس** : " **أنت مسيح الله**! " ولكنه حذرهم ، موصيا ألا يخبروا أحدا بذلك ، وقال : " لا بد أن يتألم **ابن الإنسان** كثيرا ويرفضه الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ، **ويُقتل** ، وفى اليوم الثالث يُقام . " (لوقا ٩ : ١٨ ـ ٢٢) .. وبينما كان الجميع يتعجبون من كل ما عمله يسوع ، قال لتلاميذه : " لتدخل هذه الكلمات آذانكم : إن **ابن الإنسان** على وشك أن يُسلم إلى أيدى الناس!" (لوقا ٩:٤٤)..

ويورد إنجيل **لوقا** منسوبا للسيد المسيح قوله : " كل شيء قد سلم إليّ من قبل **أبي** ، ولا أحد يعرف من هو **الابن إلاّ الآب** ، ولا من هو **الآب إلاّ الابن** ومن أراد الابن أن يعلنه له . " (لوقا ١٠ : ٢٢) .. وعن **العبودية والخضوع** لله تعالى ، يورد إنجيل **لوقا** من قول السيد المسيح : "ما من خادم يقدر أن يكون **عبداً لسيدين** : فإنه إما أن يبغض أحدهما ، فيحب الآخر ، وإما أن يلتحق بأحدهما فيهجر الآخر . ولا تستطيعون أن تكونوا **عبيدا الله والمال** معاً . " (**لوقا** ١٦ : ١٢، ١٣).

ويورد إنجيل **لوقا** لياذ السيد المسيح **بربه وابتهاله إليه لحظة الامتحان العسير** ، فيقول إنه على جبل الزيتون ركع يصلي قائلاً : " **يا أبي** إن شئت **أبعد عني هذه الكأس** . ولكن ، لتكن **لا مشيئتي بل مشيئتك** "، وظهر له ملاك من السماء يشدده . **وإذا كان في صراع ، أخذ يصلي بأشد إلحاح** ، حتى إن **عرقه** صار كقطرات دم نازلة على الأرض . " (**لوقا** ٢٢ : ٤٢ – ٤٤) .. " أما الرجال الذين

يحرسون يسوع ، فقد أخذوا **يسخرون منه ويضربونه** ، ويغطون وجهه ويسألونه : " **تنبأ** !من الذى **ضربك** ؟ " ووجهوا إليه **شتائم** أخرى كثيرة . " (**لوقا** ٢٢ : ٦٣، ٦٤) .. ويورد الإنجيل أنه ساعة **إسلام الروح** : " قال يسوع **صارخا** بصوت عظيم : **يا أبى** ، فى يديك أستودع **روحى** !! " .. وإذ قال هذا ، أسلم الروح . : (**لوقا** ٢٣ : ٤٦) .. ومن حديث الرجلين اللذين التقيا السيد **المسيح** بعد القيامة ، ولم يعرفاه ، قالا له : " أأنت وحدك الغريب النازل فى أورشليم ، ولا تعلم بما حدث فيها هذه الأيام ؟ " فقال لهما : " ماذا حدث ؟ " فقالا : "ما حدث ليسوع الناصرى وكان **نبيا مقتدرا** فى الفعل والقول أمام الله والشعب كله . " (لوقا ٢٤ : ١٨ ، ١٩) .

* * *

وغنى عن البيان أن وصف " **عباد الله** "بأنهم " **أبناء الله**"، كان وصفا شائعا فى أسفار العهد القديم السابق بكثير على كتابة الأناجيل، **ففى المزمور** الثانى والثمانين من العهد

القديم ، وصف لأفراد الشعب اليهودى بأنهم " **أبناء الله** ".. **يقول عنهم المزمور٨٢** " :لا يعلمون ولا يفهمون . فى الظلمة يتمشون . تتزعزع كل أسس الأرض . أنا قلت إنكم **آلهة وبنو العلىّ كلكم** " (المزامير ٨٢ : ٥ ، ٦) .

وباستقراء إنجيل **يوحنا** ، المعدود مصدر **لاهوت** السيد المسيح ، نجد آيات صريحة فى معنى " **البنوة** " **لله** ، وأنها **تعنى العبودية الخالصة لله** ، ويوصف بها المؤمنون مثلما وصفوا فى العهد القديم ، فجاء بالإصحاح الأول من إنجيل **يوحنا** : " إلى أهل بيته جاء ، ولكنهم لم يقبلوه . أما الذين قبلوه ، أى الذين آمنوا باسمه ، فقد منحهم الحق فى أن يصيروا **أولاد الله** ، وهم **الذين ولدوا** ليس من دم ، ولا من رغبة جسدية ، ولا من رغبة بشرية ، **بل من الله** " (يوحنا ١ : ١١ـ ١٣) . وفى الإصحاح الأول أيضا عن النبى **يحيى أو يوحنا المعمدان** فى الكتابات المسيحية : " وفى اليوم التالى رأى **يوحنا** (المعمدان) **يسوع** آتيا نحوه ، فهتف قائلا : " هذا هو **حمل الله** الذى يزيل خطيئة العالم هذا الذى

قلت عنه إن **الرجل** الآتى بعدى متقدم علىّ لأنه كان قبل أن أوجد . " (**يوحنا** ١ : ٢٩، ٣٠) .. وذات الإنجيل فسر كلمة " **رابى** " بأنها تعنى " **المعلم** "، فورد بذات الإصحاح (١ : ٣٥ – ٣٨) : " وفى اليوم التالى كان **يوحنا** (المعمدان) واقفا هناك أيضا الله اثنان من تلاميذه ، فنظر إلى **يسوع** وهو سائر فقال: " هذا هو **حَمَلُ الله** " فلما سمع التلميذان كلامه تبعا يسوع فرآهما يتبعانه، فسألهما : "ماذا تريدان ؟ " فقالا : "**رابىّ** ، أى **يا معلم** ، أين تقيم؟ " (يوحنا ١ : ٣٥ – ٣٨) .. وفى الآية / ٥١ من ذات الإصحاح يصف السيد المسيح الملائكة بأنهم **ملائكة الله** ، **ولم يقل ملائكتى** : " الحق الحق أقول لكم : إنكم سترون السماء مفتوحة ، **وملائكة الله** يصعدون وينزلون على **ابن الإنسان** ! " (يوحنا ١ : ٥١) .. وفى حديث السيد المسيح إلى **نيقوديموس** أن الملكوت **ملكوت الله** ، **ولم يقل ملكوتى** ، وأن المولود من **الجسد جسد** ، ومن **الروح روح** : " الحق الحق أقول لك : لا يمكن أن يدخل أحد

ملكوت **الله** إلاّ إذا ولد من الماء والروح . فالمولود من **الجسد** **هو جسد** ، والمولود من **الروح هو روح**) "يوحنا ٣ : ٥ ، ٦).. وفى قول صريح للسيد المسيح أنه **يَعْبد لا يُعْبد** .. "فأجابها **يسوع** : " صدقيني يا امرأة ، ستأتي الساعة التي **تعبدون الآب** لا في هذا الجبل ولا في أورشليم . أنتم تعبدون ما تجهلون ، **ونحن نَعْبُد ما نعلم** ، لأن الخلاص هو من عند اليهود . فستأتي ساعة ، لا بل هي الآن ، حين يعبد العابدون الصادقون الآبَ بالروح وبالحق . لأن **الآب** يبتغي مثل هؤلاء العابدين . **الله روح** ، فلذلك لابد **لعابديه** من أن **يعبدوه** بالروح وبالحق . " (يوحنا ٤ : ٢١ ـ ٢٤) ..

عن **رسالته** وتنفيذ **مشيئة** الله **لا مشيئته** يقول السيد المسيح فيما أورده إنجيل **يوحنا** : " طعامي هو أن أعمل **بمشيئة الذي أرسلني** وأن أنجز **عمله** . " (يوحنا ٤ : ٣٤).. وفي حديثه عليه السلام عن نفسه ، ذكر **النبوة** ولم يذكر **الألوهية** ، فيورد إنجيل **يوحنا** : " وبعد قضاء اليومين في **سوخار** ، غادرها **يسوع** وسافر إلى منطقة **الجليل** ، وهو

نفسه كان قد شهد قائلاً : " لا كرامة **لنبى** فى وطنه . " (يوحنا ٤: ٤٣ ، ٤٤) ..

عن تنفيذ هذه **المشيئة الإلهية** وليس الادعاء **بالألوهية** ، يقول السيد المسيح : " الحق الحق أقول لكم إن **الابن** لا يقدر أن يفعل شيئا من تلقاء نفسه ، بل **يفعل ما يرى الأب** أن يفعله . " (يوحنا ٥ : ١٩) ..

وفى ذات **الإصحاح يوضح المسيح عليه السلام أن** الإيمان إنما يكون **بالله الذى أرسله** ، فيقول : " الحق الحق اقول لكم إن من يسمع كلامى ويؤمن **بالذى أرسلنى** تكون له الحياة الأبدية . " (يوحنا ٥ : ٢٤).. هو لا يسعى لتحقيق إرادته ، وإنما ينفذ **مشيئة الله تعالى** الذى أرسله .. " وأنا لا يمكن أن أفعل شيئا من **تلقاء ذاتى** ، بل أحكم حسبما أسمع ، وحكمى عادل ، **لأنى لا أسعى لتحقيق** إرادتى بل إرادة الذى أرسلنى . " (يوحنا ٥ : ٣٠) ..

العبودية والشكر لله تعالى ، **والنبوة** ، واضحتان وضوح الشمس فيما ورد بالإصحاح السادس من إنجيل

يوحنا ، عن شكر **السيد المسيح لله تعالى** على بركاته
التى حلت بأرغفة الشعير الخمسة فأطعمت خمسة آلاف :
" وكان هناك عشب كثير. فجلس الرجال ، وكان عددهم نحو
خمسة آلاف ، فأخذ **يسوع** الأرغفة **وشكر** ، ثم وزع منها
على الجالسين ، بقدر ما أرادوا . وكذلك فعل بالسمكتين .
فلما شبعوا ، قال لتلاميذه : اجمعوا كسر الخبز التى فضلت
لكى لايضيع شىء " ! (**يوحنا** ٦ : ١٠ - ١٢) .. " فلما رأى
الناس الآية التى صنعها **يسوع** قالوا : حقا ، هذا هو **النبى**
الآتى إلى العالم " (يوحنا ٦ : ١٤) .. " ثم جاءت قوارب
أخرى من **طبرية** ورست بالقرب من المكان الذى أكلوا
فيه الخبز [**بعد ما شكر الرب عليه**] " (يوحنا ٦ : ٢٣) ..
"لا تسعوا وراء الطعام الفانى ، بل وراء الطعام الباقى إلى
الحياة الأبدية ، والذى يعطيه إياكم **ابن الإنسان** ، لأن هذا
الطعام قد **وضع الله الآب ختمه عليه** " (يوحنا ٦ : ٢٧)

يعرف **السيد المسيح** نفسه بأنه **رسول الله** ، فيقول
فيما يورده إنجيل **يوحنا**: " ليس تعليمى من عندى ، بل من

عند الذى أرسلنى . ومن أراد أن يعمل بمشيئة الله يعرف ما إذا كان تعليمى من **عند الله** ، أو أننى أتكلم من عندى . "
(**يوحنا** ٧ : ١٦ ، ١٧) ..

وفى عبارة صريحة يقول السيد المسيح : " **أنا إنسان** " ، فيورد إنجيل **يوحنا** أن السيد المسيح قال لمن اعترضوه قائلين إن أباهم هو إبراهيم : " لو كنتم أولاد إبراهيم . ولكنكم تسعون إلى قتلى وأنا إنسان كلمتكم بالحق الذى سمعته **من الله** . وهذا لم يفعله إبراهيم . أنتم تعملون أعمال **أبيكم** " !فقالوا له : " نحن لم نولد من زنى ! **لنا أب واحد هو الله** "فقال **يسوع** " لو كان **الله أباكم** لكنتم تحبوننى ، لأنى خرجت من الله وجئت . لم آت من **نفسى** ، **بل هو الذى أرسلنى** . لماذا لا تفهمون كلامى ؟ لأنكم لا تطيقون سماع كلمتى ! إنكم **أولاد أبيكم إبليس** .. : !!
(**يوحنا** ٨ : ٣٩ – ٤٤).

وتختلف المقولة أو العبارة المنسوبة ـ بإنجيل **يوحنا** ـ للسيد المسيح ساعة الصلب ، عما رواه إنجيل متى

(٢٧ : ٤٦) وإنجيل **مرقس** (١٥ : ٣٤).. فيروى إنجيل **متى** أن يسوع صرخ بصوت عظيم قائلا : " **إيلى ، إيلى ، لما شبقتنى** ؟ " أى " : **إلهى ، إلهى ، لماذا تركتنى** ؟ " (٢٧ : ٤٦) ، وكذلك يروى إنجيل **مرقس** ، فأورد أن يسوع عليه السلام صرخ بصوت عظيم قائلا : " **ألوى ألوى ، لما شبقتنى** ؟ " أى : **إلهى إلهى ، لماذا تركتنى** ؟ " (١٥ - ٣٤) - على حين نجد إنجيل **يوحنا** يخلو من هذه العبارة ، ويورد بدلا منها - بالإصحاح / ١٢ - أن السيد **المسيح** قال : " نفسى الآن **مضطربة** ، فماذا أقول ؟ أيها **الآب أنقذنى** من الساعة القادمة علىّ ؟ لا ! فمن أجل هذه الساعة أتيت . أيها الآب ، مجِّد اسمك ! " (يوحنا١٢ : ٢٧ ، ٢٨)

على أن الصياغات الثلاث بالأناجيل الثلاثة ؛ تتفق فى تصوير أن " **استغاثة** "و" **استجارة** " السيد المسيح عليه السلام كانت موجهة إلى " **الآب** "بمعنى الرب ، بل وبعبارة صريحة واضحة بندائه عليه السلام إلى ربه : **إيلى إيلى** ،

أى إلهى إلهى .. يصرخ عليه السلام إليه ألا يتركه ويضرع إليه ـ سبحانه وتعالى ـ أن ينقذه !

* * *

فالبنوة لله تعالى التى ترددت فى الأناجيل هى بنوة بالمعنى الرامز للأبوة الرامزة للربانية والإلهية ، وهى بذلك بنوة شاملة للناس كافة ، ترادف معنى العبودية ، وترمز إلى العبودية لله ، لا إلى البنوة بمعنى الانتساب بالمولد إلى الله .. عن ذلك يعبر إنجيل متى حين يورد قول المسيح : " أحمدك أيها الآب ، رب السماء والأرض " (**متى**١١ : ٢٥) ، وعلى ذلك تكون عبارة : " هذا هو **أبنى الحبيب** " تعنى " هذا هو **عبدى الحبيب** "

ويرى القارئ للأناجيل ، أن السيد المسيح كما أطلق عليه أحيانا " ابن الله "، وهو تعبير يشير إلى المعنى المستقى من المعنى العام للأبوة الرامزة للألوهية

الربانية ، فإن السيد المسيح قد ذكر أيضا بأنه "**ابن الانسان**" فـي مـواضـعْ عـديدة من الأناجـيل .. فـي انجـيل **متى** من مثل ذلك : " لكـي تعلمــوا أن **لابن الانســان** على الأرض سلطة غـفـران الخطايا " (مـتـى ٩ : ٦) .. " هـا نحـن صـاعـدون إلى أورشليم ، حـيث يسلم **ابن الانسـان** إلى رؤسـاء الكهنة والكتبة ، **فيحكمون عليه بالموت** (متى ٢٠ : ١٨) .. " **فهكذا ابن الانسان** : قد جاء لا ليُخْدم ، بل ليخـدم ويبذل نفسه فدية عن كـثـيـرين " (مـتى ٢٠ : ٢٨) .. واقـتـرن وصـف الـسـيـد المسـيح فـي نداءات الـبسطاء الذين عـاصـروه بوصف : **ابن داود**: " مـا إن سـمـعـا أن **يسوع** يمـر من هنـاك ، حـتى صـرخـا : ارحـمنـا **يـارب ، يا ابن داود** " وكـررهـا ثلاثا مقرونة **بابن داود** (متى ٢٠ : ٣٠ – ٣٣).. وفي الاصحاح ٢٦ من انجيل **متى** : " ولما أنهى **يسوع** هذه الأقوال كلها ، قال لتلاميذه : أنتم تعرفون أنه بعد يومين يأتي الفصح . فسوف يسلم ابن الانسان ليصلب . " (متى ٢٦: ١ ، ٢) .. " ثم رجع إلى تلاميذه وقال : ناموا الآن واستريحوا ! حانت الساعة ،

وسوف يسلم **ابن الإنسان** إلى أيدى الخاطئين . " (**متى** ٢٦ : ٤٥).. وفي وصف انجيل متى لواقعة الصلب ، يورد على لسان السيد المسيح : " ونحو الساعة الثالثة صرخ يسوع بصوت عظيم : **ايلى ، ايلى لما شبقتنى** ؟ أى " **إلهى ، الهى ، لماذا تركتنى** ؟ " .. وفي انجيل **مرقس** : " وان يعلمهم أن **ابن الإنسان** لا بد أن **يتألم كثيرا** ، ويرفضه الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ، ويقتل ، **وبعد ثلاثة أيام يقوم** " (**مرقس** ٨ : ٣١) .. " وفيما هم نازلون من الجبل ، أوصاهم ألا يخبروا أحداً بما رأوا، إلاَّ بعد أن يكون **ابن الانسان** قد قام من بين الأموات" . (**مرقس** ٩:٩) "كذلك جاء فى الكتاب أن **ابن الإنسان** لا بد أن **يتألم كثيرا ويهان**" (**مرقس** ٩ : ١٢) .. " لأنه كان يعلم تلاميذه فيقول لهم : " إن **ابن الانسان** سيسلم إلى أيدى الناس **فيقتلونه** ، وبعد قتله **يقوم** فى اليوم الثالث " (مرقس ٣١:٩). " وكانوا فى الطريق صاعدين إلى أورشليم ، **ويسوع** يتقدمهم ، وهم يتبعونه مذهولين خائفين ، فانفرد بالاثنى عشر ، مرة أخرى ، وأخذ يطلعهم على

ما سيحدث له ، فقال : " ها نحن صاعدون إلى أورشليم ، وسوف **يسلم ابن الإنسان** إلى رؤساء الكهنة وإلى الكتبة ، فيحكمون عليه بالموت ، ويسلمونه إلى أيدي الأمم ، **فيسخرون** منه ، **ويبصقون** عليه ، **ويجلدونه** ، **ويقتلونه** ، وفى اليوم الثالث **يقوم** ! " (مرقس ١٠ : ٣٢ - ٣٤) ..

كما يروى انجيل **مرقس** من قول **يسوع** إلى تلاميذه وحوارييه : " وأىّ من أراد أن يصير أولاً فيكم ، فليكن للجميع عبدا . فحتى **ابن الإنسان** قد جاء لا ليُخْدم بل لَيخْدِمَ ويبذل نفسه فديه عن كثيرين " (**مرقس** ١٠ : ٤٤ ، ٤٥) ..

ويقص إنجيل **مرقس** من اجابة السيد **المسيح** على الإثنى عشر قوله لهم : " ان **ابن الإنسان** لا بد أن يمضى كما قد كتب عنه ، ولكن الويل لذلك الرجل الذى على يده يسلم ابن الإنسان كان خيراً لذلك الرجل لو لم يولد !" (مرقس ١٤:٢١)

وفى إنجيل **لوقا** على لسان السيد **المسيح** : " ولكننى (قلت ذلك) لكي تعلموا أن **لابن الإنسان** على الأرض سلطة غفران الخطايا .. " (لوقا ٥:٢٤) .. ويرى الإنجيل

مـا قالـه السيد المســيح **ليهــوذا** حينما تقـدم إليه ليقبــله :
"يا يهوذا ، أبقبلةٍ تسلم **ابن الإنسان** " . ؟ (لوقا ٢٢:٤٨)

* * *

وعسـيـر على النفس الإنسانية المخبتة إلى الله تعالى ، المؤمنة بجـلالـه وعظمـتـه وملكوتـه ، أن تسـيغ وصـفـه بما يوصف به البـشـر ، أو أن يرد عليـه مـا يرد على المخلوقين .. الله فى جلاله لا يرد عليه ما يرد على الناس من خوف أو ألم أو استغاثة أو استجارة ، أو أن يتحكم فيه بشر أو يحكمون عليـه بالموت أو يسخرون منه ويبصـقـون عليـه ، ويجلدونه ، ويقـتلونـه !! ولذلك فـإن هذه العـبـارات التى تكـررت فى الأناجـيل ، لا توحـى للقـارئ بأن البنوة لله تعـالى هى بنوة نسب ، ولا أن السـيـد المسـيح إدعى للناس أنه إلـه ، بل ورد على لسـانه عـشـرات المرات إقـرار صـريح واضح بربـوبيـة الواحـد الخـالق جل شـأنه ، من مـثل : **"الرب إلهنا رب واحد"**

(مرقس ١٢ : ٢٩) .. " قد كتب **للرب إلهك** نسجد .. وإياه **وحده نعبد** " (**لوقا** ١٤ ، ٧ ، ٨) .. " **إلهى إلهى** لماذا شبقتنى (تركتنى)؟ " (متى ٢٧:٤٦ ، مرقس ١٥:٣٤ ، ٣٥) .. يتحدث عليه السلام عن الملائكة فيقول إنهم **ملائكة الله** ، ولا يقول إنهم "**ملائكتى**" ، .. يقول "**ملكوت الله**"، ولا يقول : "**ملكوتى**" .. يقول إن المولود من **الجسد جسد** ، ويعلن أنه يعمل **بمشيئة الله** لا بمشيئته ، وفى حديثه عن نفسه يذكر "**النبوة**" ولا يذكر "**الألوهية**" ، ويقول للناس فى منطقة الجليل : " لا كرامة **لنبى** فى وطنه " (يوحنا ٤ : ٤٣ ، ٤٤) .. وفى عبارة أخرى صريحة يقول : "أنا **إنسان**" (**يوحنا** ٨ : ٤٠) .. يقص إنجيل **يوحنا** على لسانهم ساعة الشروع فى الصلب : " نفسى الآن **مضطربة**، فماذا أقول ؟ **أيها الآب أنقذنى** من الساعة القادمة علىّ ؟ لا ! فمن أجل هذه الساعة أتيت . (يوحنا ١٢ : ٢٧ ، ١٨) .. صيحاته عليه السلام إلى " **الآب**" ترد بمعنى " **الرب**" و"**الإله** " .. وفيها يشكو إلى الله ، ويتضرع إليه أن ينقذه

فيما رواه إنجيل **متى** وإنجيل **مرقس** وإنجيل **يوحنا** مع اختلاف فى عبارة إنجيل **يوحنا** عن سابقيه.

بيد أن هذه المعانى لم تكن هى السائدة عند نزول القرآن المجيد فى القرن السابع الميلادى ، فدخلت عليها عبر هذه القرون تفسيرات وتأويلات بالغة الكثافة والتنوع ، بدأت برسائل القديس بولس التى وقف عندها طويلا علماء المسيحية والمقارنة بين الأديان.

ومن اللافت أن بولس - واسمه العبرانى شاول ، وكان يهوديا من سبط بنيامين (فى ٣ : ٥) - صاحب الدور الهائل فى المسيحية ، بدأ حركته **كارها مضطهداً** لأتباع السيد المسيح ، يصرح بكل جلاء بأنه **يهودى عبرانى** ، وافر الغيرة فى تقاليد الآباء ، من اليهود الفريسيين ، لا يبزه فى فريسيته أحد (أ ع ٢٢:٣ ، ٢ كو ١٠ : ٢٢ ، فى ٣ : ٥) ، وكان من عادته أن يستند إلى التعاليم القديمة الأصيلة للأسفار المقدسة ، وليس إلى تفسيرات معاصريه ، وتورد دائرة المعارف الكتابية (جـ ٢ ص ٢٣٨) ، أن أول ظهوره على

صفحات العهد الجديد ، كان فى **اضطهاده** للكنيسة ، فقد شارك في رجم **استفانوس** ، كما كان يجر المؤمنين فى أورشليم إلى السجن ، ويسترجع إليها الذين فروا منهم طلبا للنجاة (أع ٧: ٥٨ ، ٣:٨ ، ٩ : ١ ، ٢ ، ١ كو ٩:١٥ ، فى ٣ : ٦) - وتعلق دائرة المعارف الكتابية (جـ ٢ ص ٢٣٩/٢٣٨) على ذلك بأن البعض يرى أن هذا العمل لم يكن يليق بتلميذ نابه من تلاميذ معلم واسع الفكر متسامح مثل **غمالائيل الأول** ، وأن جهوده العنيفة ضد المسيحيين - رغم انتمائه أيضا للفريسيين المتسامحين - ربما يرجع إلى الاعتقاد الأولى بأن واقعة " الصلب " تورى ببطلان دعوى السيد المسيح ، وأن هذا الارتداد قد يؤخر دخول عصر ملك **المسيا** الذى يقترب ، ويؤخر من ثم بركات الله ، وأن ذلك كله ، مع ارتفاع موجة توقع مجيء عصر **المسيا** ، كان كافيا لتحريض بولس على أن يأخذ على عاتقه استئصال شأفة ما كان يعتقد أنه ارتداد، ظاناً أنه بذلك يتمم مشيئة الله

على عكس ما استبان له من بعد أنه كان **يقاوم الله** "**بجهل في عدم الإيمان**" (١ تى : ١٣) .

[تفصيل واسع عن القديس بولس:
دائرة المعارف الكتابية جـ ٢ ص
٢٣٥ ـ ٢٧٧]

ويروى الإصحاح التاسع من سفر أعمال الرسل (٩ : ١ ـ ٦) ، كيف تحول **شاول** (**بولس**) من تهديد وقتل معتنقى المسيحية ، إلى الإيمان بالسيد المسيح ، فيقول : " أما **شاول** فكان لا يزال يفور بالتهديد والقتل على تلاميذ الرب . فذهب إلى رئيس الكهنة ، وطلب منه رسائل إلى مجامع اليهود فى **دمشق** لتسهيل **القبض** على أتباع هذا الطريق من الرجال والنساء ، حيثما يجدهم ، ليسوقهم مقيدين إلى أورشليم . وفيما هو منطلق إلى **دمشق** ، وقد اقترب منها ، لمع حوله فجأة نور من السماء ، فوقع إلى الأرض وسمع صوتا يقول له : " **شاول** ! **شاول** !لماذا **تضطهدنى** ؟ " فسأل : "من أنت يا سيد ؟ " فجاءه الجواب : "أنا يسوع

الـذى أنت **تضطهـده** ! والآن قـم ، وادخل المدينة فيقـال لك ما يجب أن تفعله . " (أعمال الرسل ٩ : ١ ـ ٦).

وحـينما أقبل **بولس** على المسـيحـية ، أوجس الحـواريون وتلاميـذ السيد المسيح منه خـيفة ، غيـر مصـدقين إيمانــه ، ولكن شــهـد له "**برنابا**" بالإيمان ، فـيـروى ذات الإصـحـاح التـاسع من ســفـر أعـمــال الرسل : " ولما وصل **شـاول** إلى أورشليم ، حـاول أن ينضـم إلى التلاميذ هناك ، فـخافـوا منه ، إذ لم يصــدقـوا أنه صـار تلمـيذا للرب . فـتـولى برنـابا أمـره وأحضـره إلى الرسل ، وحدثهم كيف ظهر الرب له فى الطريق وكلمه ، وكيف بشر بجرأة باسم **يسوع** فى دمشق " (أعمال الرسل ٩ : ٢٦ ، ٢٧) ..

وتتـفق الآراء ، وكـذلك تدل رسـائله ، على أن **بولس** كـان ألمعيا حـاد الذكاء ، قوى الفكر ، مرهف الإحسـاس ، ملتـهب الروح ، شديد الحـيوية والتأثير ، قوى العزم ، واسع الصدر ، صـادق الود ، فصيح اللسان) دائرة المعارف الكتابية ج ٢ ص ٢٣٧) ، ويبـالغ البـعض فـيـرون أنه المؤسـس الحـقـيـقـى

للمسيحية ، ويرى آخرون أن المؤسسين الحقيقيين للمسيحية، هم الذين أقاموا كنيسة أنطاكية ، ويتوسط آخرون فيبدون أنه بدون بولس كان من المحتمل ألا تكون المسيحية على ماهى عليه اليوم.

والذى لا خلاف عليه أن القديس بولس صاحب دور هائل فى خدمة المسيحية وفى تشكيل الفكر المسيحى ، ومن العسير استخلاص شخصية ودور بولس من كثرة وغزارة ما كتب عنه ، بينما توجب أمانة البحث والاستقصاء عرض المعتقد المسيحى من منظوره لا من منظور غيره من الأديان . وإلى جوار دائرة المعارف الكتابية التى فصلت الحديث عنه ، فإن للأستاذ "**شارل جينيبير**" ، رئيس قسم تاريخ الأديان بجامعة باريس فى أوليات القرن العشرين ، كتاباً ضافياً عن " المسيحية : نشأتها وتطورها " ، ترجمه إلى العربية الدكتور عبد الحليم محمود ، عرض فيه عرضاً وافياً وعميقاً لتحليل القديس بولس : الشخصية ، والدور ، والأثر .. لا يتوقف كثيرا عند الجدل الدائر هل رأى بولس -

السيد المسيح ، أم لم يره ، مكتفياً بالقدر المتيقن أنه لم يعرفه (دار المعارف - ط ٣ - ص ١١١) ، وأن هذه الحقيقة لم تحصر تأملاته عن شخص المعلم وتعاليمه فى آفاق الذكريات كحال الحواريين الإثنى عشر (ص ٩٠) ، وأن الروح الحماسية الوثابة ، والمنطق البين المدرب على المناقشة ، والتفكير العلمى الحى والعزيمة التى لا تقهر ، كانت عدة **بولس** فى الدور الهائل الذى اضطلع به ، وأنه مع الإقرار بعبقريته التى لاجدال فيها فى التفكير الدينى ، فإن استقصاء صفحة أفكاره يورى بأنها تنطوى على آراء ومدركات ليست كلها من وحى عبقريته الخاصة ، بل تجمعت لديه من مصادر مختلفة (ص ٩٠ / ٩١) - .. نعم : إن أصالته ليست محل شك ، ولكن من الخطأ - فيما يقول **شارل جينيبير** - أن ننسب إلى بولس وحده ذلك المجهود الضخم الذى انتهى إلى غرس دعوة **الحواريين** فى ربوع العالم **الهيلينستى** ، فلاشك أنه تلقى تأشيرات معينة حددت معالم الطريق فى تحوله الدينى ، وجعلته ينقلب فجأة من

متعصب للشريعة اليهودية إلى نصير متحمس للسيد المسيح ، وأنه اتخذ من اتصاله بمن اتصل بهم وقدموه إليه الصورة المعنية أساسا لما أسماه بـ "إنجيله" (ص ١١٠) ، وأن الشيء الذى يبدو فى نظر **"شارل جينيبير"** غير قابل للجدل هو : أن تطور بولس نحو المسيحية لم يتم بالقدس ولم ينشأ من الاتصال بالحواريين الاثنى عشر ، ولذلك فإن الكاتب الألمانى " **هايتموليز** " لم يخرج عن جادة الحق حين كتب يقول : "إن **بولس** لم يتأثر **بيسوع** عن طريق المجتمع المسيحى الأول ، ولكن الأثر انتقل إليه بواسطة حلقة أخرى من حلقات سلسلة **المتوارثات** التى يمكن ربطها كما يلى : **يسوع ، المسيحى الأول** ، المسيحية **الهيلينستية** ، **بولس** " (ص١١١/١١٢) . ويتوقف **"جينيبير"** عند من أسمتهم مجموعة **"أعمال الرسل"** بـ **"الهيلينستيين** " الذين كانوا فى غالب الظن من اليهود الذين أقاموا زمنا طويلا بمختلف البلاد اليونانية ، ثم عادوا إلى وطنهم ، فلا غرابة إذن فى أن يكون عدد منهم قد استمع إلى أحاديث **أصحاب المسيح**

وآمن بدعوتهم ، ولكنهم لم يتخلوا ـ مع إيمانهم بيسوع المسيح ـ عن روحهم المرنة المجددة ، ولا عما أبدوه من التساهل الفكرى فى موقفهم من الشريعة اليهودية ومن تقديس "المعبد الأكبر"، ثم انتهى الأمر بغضب السلطات اليهودية على هؤلاء "**الهيلينستيين**" وطردهم من المدينة التى بقى بها الحواريون ، مما يدل على أن **فريق الحواريين** لم يكن يفكر كما فكر "**الهيلينستيون**" ولم يكن متضامنا معهم ، فلما طرد "**الهيلينستيون**" أو هربوا من القدس ، كان أول المبشرين بالمسيحية إلى المجتمعات اليهودية القائمة فى ممالك الشرك (ص ١١٣ / ١١٤)، بيد أن الحادث الأساسى المؤثر ـ فيما يرى "**جينيبير**"ـ هو : مولد **كنيسة أنطاكيا** ، فكانت ـ فيما كتب "**رينان**" فى كتابه : الرسل ص ٢٢٦ ـ نقطة البدء للكنيسة التى جذبت المشركين ، ومركز **التبشير** المسيحى الأول ، وهنا " **تطور بولس تطوره النهائى.** " (ص ١١٥).

وعن نشوء فكرة "**تأليه**" المسيح ، يورد الأستاذ "**جينيبير**"، أن يكاد يكون من القضايا المسلم بها لدينا أن بيئة **أنطاكيا** ، هي التي ساعدت على التطور السريع نحو "تأليه" المسيح ، أو هي حدوث فكرة "**تمجيده**"، إن بدت لنا كلمة " التأليه " هنا سابقة لأوانها ، ونزع المؤمنون ببيئة **أنطاكيا** في تصورهم لشخص المسيح ورسالته إلى التخلص من كل خصائص عيسى اليهودية كمسيح ، ليرقوا به إلى مفهوم أعم وأوسع وأرفع ، ذلك المفهوم الذي يقترن بلقب " سيد " (ص ١١٦).

وهنا يتوقف الأستاذ "**جينيبير**" ليبدي أنه مما لا شك فيه أن **الحواريين الاثني عشر** قد تملكتهم الحيرة في بدء دعوتهم ، عندما نظروا في النصوص المقدسة وفي كتب الأحبار الحديثة، **فلم يجدوا** كلمة واحدة تشير إلى إمكان قيام **مسيح يعذب تعذيبا شائنا**، بل قرأوا على العكس من ذلك سطوراً تبعث فيه **الرعب**، ففي سفر التثنية الإصحاح (٢١ : ٢٢ ، ٢٣) أنه : "إذا كان على إنسان خطية حقها الموت

فقتل وعلقته (شنقته) على خشبة (شجرة) فلا تبت جثته على الخشبة بل تدفنه فى ذلك اليوم . لأن المعلق ملعون من الله . " (التثنية ٢١ : ٢٢، ٢٣) .

وفى النص الإنجليزى :-

"If a man guilty of capital offence is put to death and his body is hung on a tree , you must not leave his body on the tree overnight. Be sure to bury him that same day , becouse any one who is hung on a tree is under God,s curse ."

(Deuteronomy 21 : 22, 23)

فكان على الحواريين إذن- فيما يورد الأستاذ **جينيبير** (ص ١١٦ / ١١٧) - أن يفسروا لأنفسهم كيف دبر الله موت يسوع ضمن تدبيره لانتصار شعبه وحلول مملكته ، ووجدوا ضالتهم فى أن بعث السيد المسيح لا يمكن أن يكون إلاّ لدور جلل ، وأن الموت هو الشرط اللازم للبعث والطريق ليرتفع الله بيسوع من مستوى البشرية إلى "**المجد المفروض له**"، وهكذا أصبح عيسى هو المراد بما أسماه النبى دانيال " **ابن**

الإنسان" ، إلاّ أن مفهوم "ابن الإنسان" غير موجود لدى **بولس** ، ففى عقيدة **الحواريين** أن موت يسوع ليس **بالتضحية التكفيرية** ، أما عند **بولس** فنعم ، وفى عقيدته أن المسيح مات من أجل خطايا البشر . ولم يكن **الحواريون** الإثنا عشر ليوافقوا على نعت يسوع بـ "**ابن الله**" مكتفين بتعبير "**خادم الله**" ، أما عند بولس ، فإنه كثير الاستعمال لتعبير "**ابن الله** " ، ويعقب الأستاذ **جينيبير** بأن **بولس** لابد وجد هذه المصادر في مجتمع من المجتمعات **الهيلينيستية** ، وأن هذا المجتمع كان فى أغلب الظن مجتمع أنطاكيا . (ص ١١٧) .

ويتوقف الأستاذ **جينيبير** وقفة أخرى بالغة الأهمية ، عند لقب " سيد "أو " **خيريوس** " المضفى على المسيح عليه السلام ، ليس فقط فى رسائل **بولس** ، بل فى نصوص العهد الجديد بعامة ، ويرى أن إطلاق هذا اللقب يرجع إلى الأصل **الهيلينستى** ، فلم يكن ذلك محض اختراع للقديس **بولس** ، وإنما كان يتعمق الأفكار المتداولة ، ويقول : " **لقد**

علمتكم .. مما علمت .. أن **المسيح** مات من أجل خطايانا ، حسب ما قدر له فى النصوص المقدسة " . (الرسالة الأولى إلى مؤمنى كورنثوس ١٥ : ٣)، (ترجمة جينيبير ص ١١٦ ـ ١٢٩).

وتخبرنا مجموعة "أعمال الرسل" بأن تحول بولس إلى المسيحية كان على طريق **دمشق** ، وأن دمشق كانت مركز **نشاطه الأول** ، والمهم فى هذا أنه لم يتدرب على التبشير بالمسيحية فى القدس أو على أيدى **الحواريين** الاثنى عشر ، وأنه لم يعد نفسه تابعاً لهم ، موقنا بأن المسيح المجد قد نصبه حواريا بإرادته الخاصة (ترجمة جينيبير ص١٣٠) ، بينما يلاحظ أن **الحواريين** الاثنى عشر الذين أشربوا بتعاليم السيد المسيح ، **ظلوا على يهوديتهم العميقة ، يستنكفون كثيرا من النتائج** التى توصل إليها فكر **بولس** ، ويبدون أمامها ترددا **قويا** ، إلاّ أنه كان يحث على فرضها فرضا ، بينما مجتمع القدس كان يظن أن روحاً إلهية تسير القديس **بولس** الذى صار الحوارى الثالث عشر ، وبينما كان هذا المجتمع فقيرا ، كانت **كنائس بولس** تضم

أحيانا بين أتباعها أثرياء القوم وكرامهم ، وكان **بولس** على علم بأن عملية **الختان** لا يرضى عنها أهل اليونان ، وبأن أغلب أحكام الشريعة اليهودية للحياة العملية لا تتفق مع عاداتهم وأساليب تفكيرهم ، فلم يلبث أن آمن بأن تعاليم هذه الشريعة قد **نسختها تعاليم المسيح** ، بل بأن السيد المسيح أتى خصيصاً **ليبدل عهدا قديما بعهد جديد** . وأذعن **الاثنا عشر لبولس** مرة أخرى فتقبلوا فكرة إعفاء الأتباع الجدد فى الديار الوثنية من أحكام شريعة اليهود . (ترجمة جينيبير ص ١٣٢) ، وصارت هذه النتيجة أمراً محتماً ، بفضل **نظريات بولس المسيحية** المتأثرة بالفكر " **الهيلينستى** " ، والتى غيرت تغييرا عميقا من تصوير **الحواريين** الاثنى عشر ليسوع ولحياته وموته ، وسادت فكرة "**الخلاص**" " Salvation " واليقين بحياة أخرى سعيدة تجد فيها الروح تحقيقا لما تطمح إليه من المصير الأمثل ، ثم رأى بولس أن الأتباع الجدد لم يكونوا ليتقبلوا كل القبول "**فضيحة الصليب**" ، وأنه من ثم يجب تفسير ميتة المسيح الشنيعة ـ تفسيرا مرضيا يجعل

منها واقعة ذات مغزى دينى عميق ، فكان أن تجاهل بولس فكرة "يسوع الناصرى" ، وركز **بولس** على فكرة يسوع "**المصلوب** "، فتصوره شخصية **إلهية** تسبق العالم نفسه فى الوجود ، وتمثل نوعا من التشخيص لروح إله ، تصوره "رجلاً .. رجلاً سماوياً" ، احتفظ به الله إلى جانبه أمداً طويلا ، حتى نزل إلى الأرض لينشىء فيها حقاً بشرية جديدة يكون هو "**آدمها**" . (ترجمة جينيبير ص ١٣٣ / ١٣٤) .

هذه العقيدة أسلست إلى تصوير السيد المسيح "**ابنا لله**" ، بيد أن هذه الفكرة تصطدم بميراث **بولس** من العقيدة اليهودية عن " **فكرة الله** "، فكيف إذن يتأتى تصور أن يكون لله تعالى ابن ؟! ، أو كيف تفهم علاقة البنوة التى يراها **بولس** بين " **السيد** " (المسيح) والله ؟! (ترجمة جينيبير ص ١٣٥) .

كان اليهود يطلقون عبارة "**خادم يهوه**" على كل إنسان يظنون لديه إلهاما من الله ، كثيرا ما تترجم التوراة **السبعينية** التى تلقى عنها **بولس** أيام يهوديته ، هذه العبارة بمترادفات

من مـثل "**خـادم**" الله ، أو "**طفل**" الله ، فـتطورت الكلمـة من **اللاتينية إلى اليـونانيـة** من "**طفل**" إلى "**ابن**" ، وحـدث هذا التطور اللفظى فى النصـوص اليهودية ـ المسيحية ، ولكن هذا التـعـبـيـر لم يرد فى أعـمـال الرسل إلاّ مـرة واحـدة فى الإصحاح التاسع : " وفى الحال بدأ يبشر فى المجاميـع بأن يسوع هو ابن الله . وأثار كلامه دهشة السامعين ! " (أعمال الرسل ٩: ٢٠، ٢١) وتسلل بعضـها إلى رسـائل **بولس**، بيد أن بولس ـ فيمـا يورد الأسـتـاذ **جينيبير** (ص ١٣٦) ـ لم يكن ليدرك فى ذلك الوقت كل مـا ترتـب على مـفـهـوم "**ابن الله**" بعد ذلك من مشاكل فى فلسفة الدين لا تحصى ! مما يوجب ألا يستخدم هذا التعبير إلاّ بمعنى **تقريبى** ، يحاول أن يفصح قدر المستطاع ـ بمقارنة ضمنية لا تبعد عن الذهـن البشـرى ـ عن عـلاقـة "**فـوق بشـرية**" لاتجـد للتـعـبـيـر عنـهـا الاصطلاح الجامع المانع الذى يتفق مع حقيقة مقصودها (ص ١٣٥ / ١٣٦) .

على أن ما ينبه إليه الأستاذ جينيبير - أنه لم يحدث خلط فى تصور بولس بين لقب "السيد" ويرمز به للمسيح ، وبين "الله" ، **وأنه لم تخطر على باله فكرة "الثالوث"** ، بل إن "السيد" - **عنده - يهيمن عليه الله ، ففى الرسالة** الأولى إلى مؤمنى كورنثوس :"وأنتم للمسيح ، والمسيح لله" (الإصحاح ٣ : ٢٣).. والمسيح هو طوع أمر الله "حتى الموت " : **"وإذا ظهر بهيئة إنسان** ، أمعن فى الاتضاع ، وكان طائعاً حتى الموت ، موت الصليب ." (الرسالة إلى مؤمنى فيلبى ٢ : ٨) ، وهو **خاضع لله تعالى تمام الخضوع:** "وعندما يتم إخضاع كل شىء للابن ، فإن الابن نفسه **سيخضع للذى أخضع له كل شىء ، لكى يكون الله هو كل شىء فى كل شىء** "! (الرسالة الأولى إلى مؤمنى كورنثوس ١٥ : ٢٨) ..

وفى الترجمة العربية للآية السادسة من الإصحاح الثامن من الرسالة الأولى إلى مؤمنى كورنثوس ، يوجد خطأ **فى وضع كلمة "رب" - وصحتها "سيد" - قبل اسم**

يسوع .. وقد لفت نظرنا إلى هذا الخطأ أن العبارة ص ١٣٦ / ١٣٧ من ترجمة الأستاذ **جينيبير** ، قد ورد بها : "ليس هناك سوى إله واحد ، هو الآب الذى **منه كل شىء ، ونحن له** ، وليس هناك سوى **سيد واحد** ، هو **يسوع المصلوب ، به كل شىء ونحن به** . " - فلما رجعنا إلى النسخة العربية للعهد الجديد ، لاحظنا أن اسم "**يسوع**" مسبوق بعبارة "**رب واحد**" هو يسوع ، ولاختلاف التعبير بين النسخة العربية وبين النسخة **الفرنسية** المترجم عنها ، رجعنا إلى النسخة الإنجليزية للعهد الجديد ـ فوجدنا صياغته تتفق مع الصياغة الفرنسية التى كتب بها الأستاذ **جينيبير** . ففى الرسالة الأولى إلى مؤمنى كورنثوس أو كورنثيافس (٨ : ٦) ما نصه :

"Yet for us ther is but one God , the father , from whom all things come and for whom we live , and there is but one lord , jusus christ , through whom all things come and through whom we live . "
(1 Corinthians 8 : 6)

فالنص قد استخدم لفظ "**الإله**" "God" مع لفظ "الآب" "Father" بينما لم يسبق اسم يسوع إلاّ بلقب "lord".. وكلمة " لورد "في الإنجليزية ليست مرادفاً مطابقا لكلمة "God" الإله ، ولها استخدامات متعددة فتعني : **السيد ، والنبيل ، والقائد ، والحاكم ، والوالي ، والعاهل ، والسلطان ، والملك** .. وهي من الألقاب الشرفية في انجلترا ، وبذلك يكون النص الصحيح في الرسالة الأولى لمؤمني كورنثوس هو :

"ليس هناك سوى **إله واحد** ، هو الآب الذي **منه كل شيء** ، **ونحن له** ، وليس هناك سوى سيد واحد ، **هو يسوع المسيح** ، به كل شيء ونحن له . "

وهذا الفارق في الصياغة ، يوري بوضوح بأن المعنى الحاضر في كتابات من كتبوا ، لا يساوي بين **الله الواحد** ، وبين **السيد** المسيح ، كما يوري بوضوح أيضاً بأن عبارة **"ابن الله"** التي تدرج أحيانا **لا تعني الإيمان بنظرية البنوة بمعناها الحرفي** (ترجمة جينيير ص ١٢٤ ـ ١٢٧) .

أو على حد قول الأستاذ **جينيبير** ، أننا لو أردنا التحديد ، وجب القول بأن **بولس** يرى أن "السيد" يمثل بمفرده **"صنفا من أصناف الخليقة"** ، يعتبر أقرب صنف إلى الله ، ويمكن وصفه بـ "إلهى" (كما يقال عن العبد بأنه عبد ربانى) ، وأن نمو الاعتقاد **بألوهية المسيح** - فيما يقول **جينيبير** - بدا مشوباً بكثير من التردد والنقص ، بحيث لم يقدر له مقاومة الزمن ، فكان أن اتجهت تقوى المؤمنين فى قوة - دون ما إدراك للعقبات ! - إلى تنشيط الإيمان بالوحدة بين **"السيد"** و **"الله"** !، وتحول المسيح بذلك إلى رسول لله بعث إلى العالم ، **سابق للكون والزمن** ، **تتمثل فيه الروح القدس** التى تعتبر جوهره الربانى ، ويعمل - بفكرة **الخلاص** - على تنفيذ خطة الله الكبرى المتعلقة ببعث الإنسانية **وخلاصها ، وهكذا أصبح موت يسوع واضح المفهوم !** (ترجمة جينيبير ص ١٣٧) .

(بتفصيل أكثر : كتاب المسيحية : نشأتها وتطورها - للأستاذ شارل جينيبير -

ترجمة د . عبد الحليم محمود - دار المعارف ط ٣ - ص ٨٧ - ١٤١ ، ودائرة المعارف الكتابية جـ٢ - ص ٢٣٥ - ٢٧٧)

*　　　　*　　　　*

عبر رحلة الزمن ، والناس ، وآراء وقرارات المجامع ، والكتابات المسيحية - تعددت وكثرت التأويلات فى **طبيعة السيد المسيح** عليه السلام ، ولعل أصدق تعبير عما اكتنف رؤية الناس من تفريعات ، ما قدم به البابا شنودة الثالث لكتابه : ""**طبيعة المسيح**" (ط ٩ مارس ٢٠٠٤) ، يقول فى مقدمته : "موضوع طبيعة المسيح موضوع هام جدا ، كان سبب **انقسام خطير فى الكنيسة** فى منتصف القرن الخامس (سنة ٤٥١ م) " ، وأنه بعد الشقاق الذى حدث سنة ٤٥١ م ، رفضت الكنيسة الأرثوذكسية مجمع خلقيدونية

وتحديداته اللاهوتية ، وعرفت فيمن عرفوا بأصحاب "الطبيعة الواحدة " MONOPHYSITES ، ويشترك فى هذا الإيمان الكنائس السريانية ، والأرمنية ، والأثيوبية ، والهندية ، وهى المسماه بالكنائس الأرثوذكسية غير الخلقيدونية ، بينما تضم الكنائس الخلقيدونية : الكنائس الكاثوليكية واليونانية (الروم الأرثوذكس) وتشمل كنائس القسطنطينية واليونان وأورشليم وقبرص وروسيا ورومانيا والمجر والصرب وكنائس الروم الأرثوذكس فى مصر وسوريا ولبنان وفى أمريكا .. الخ ، وتؤمن بطبيعتين للسيد المسيح ، وتشترك معها فى هذا الاعتقاد الكنائس البروتستانتية فيما يعرف إجمالا باسم أصحاب الطبيعتين .

ويعرض البابا شنودة الثالث فى كتابه : "طبيعة المسيح" لأشهر الهرطقات حول طبيعة المسيح ، فيشير إلى هرطقة **آريوس** الذى ينكر لاهوت المسيح ويرى أنه أقل من الآب فى الجوهر ، وأنه **مخلوق** ، ويشير إلى أن جذور الأريوسية لاتزال قائمة للآن حتى بعد أن شجبها **مجمع نيقية**

المسكونى سنة ٣٢٥م ، لدرجة أن ظل أريوس والأريوسيـون من بعده سبب تعب وشقاق وشك للكنيسة المقدسة (طبيعة المسيح ص ٨/٩) .

وبينما أنكر آريـوس لاهوت السـيد المسيح ، نادى [أبو لينا ريوس] بلاهوت المسـيح ، لكنه لا يؤمـن بكمـال ناسوته ، مما يعنى أن ناسوت المسيح كان ناقصا، لذلك حكم مجمع القسطنطينية المسكونى المقدس سنة ٣٨١م بحرمان [أبو لينا ريوس] وهرطقتـه ، أمـا نسطور وكان بطريركاً للقسطنطينية من سنة ٤٢٨م حتى حرمه مجمع أفسس المسكونى المقدس سنة (٤٣ م) ، فإنه رفض تسمية القديسة العذراء مريم بوالدة الإله ، ورأى أنها ولدت إنسانا ثم حل فيه اللاهوت ، وقال إن العذراء لا يمكن أن تلد الإله ، فالمخلوق لا يلد الخالق !وما يولد من الجسد ليس سوى جسد ، وقال صراحة إنه يفصل بين الطبيعتين ،.فاعتبر بهذا قد أنكر لاهوت المسيح . (طبيعة المسيح ص ١٠) .

ويورد البابا شنودة الثالث عن هرطقة **أوطاخى** رئيس دير بالقسطنطينية ، أنه كان ضد هرطقة **نسطور** ، وأنه من شدة اهتمامه بوحدة الطبيعتين (الناسوت واللاهوت) فى المسيح ، وقع - فيما يقول البابا شنودة الثالث - فى بدعة أخرى فقال إن الطبيعة البشرية ابتلعت وتلاشت فى الطبيعة الإلهية ، فأنكر بذلك ناسوت المسيح . (طبيعة المسيح ص ١١)

وعلى الرغم من أن مجمع **أفسس المسكونى** المقدس (سنة ٤١٨م) قد حرم **نسطور** إلاّ أن جذور **النسطورية** امتدت إلى مجمع **خلقيدونية** الذى ظهر فيه انفصال الطبيعتين، حيث قيل فيه إن المسيح اثنان: **إله وإنسان** . قال البعض - **كنسطور** - إن الطبيعتين منفصلتان ، وقال البعض (مجمع قرطاجنة) أنهما متحدتان ، ومن هنا نشأت مشكلة الطبيعتين والمشيئتين ، وبدأ صراع لاهوتى ، وانشقاق ضخم فى الكنيسة ، وكثر الحديث وتعدد وتنوع تبعا لاختلاف الرؤى والتفاسير فى شأن "اللاهوت" و"الناسوت" وكنه كل منهما ، و"إتحاد" أو "انفصال" الطبيعتين ، فيما أدى إلى

"الإنشقاق" الذى أومأ إليه كتاب البابا شنودة الثالث وإلى الاتفاق الذى حررت بشأنه عام ١٩٨٨وثيقة مشتركة بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنائس الكاثوليكية .

* * *

ولا يختلف أحد على أن الرسالة المحمدية ، هى آخر الرسالات الكبرى فى تاريخ الإنسانية ، وأنها عمت الدنيا وصار أتباعها المؤمنون بها بمئات الملايين ، وأنه لم تتلوها رسالة أو ديانة يمكن لزاعم مهما اشتط أن يحسبها من رسالات السماء ..

وخاتمية الرسالة المحمدية ، قد اقتضت أشياء هى من مقومات هذه الخاتمية من ناحية ، ودالة عليها وعلى مصدر هذه الرسالة من ناحية أخرى .. فالخطاب الذى كان فى الأديان السالفة محدوداً بحدود الأقوام والزمان والمكان ، واقترنت فيه النبوة اقترانا محدودا بقوم النبى الذين أرسل إليهم ، خرجت النبوة المحمدية من هذا الحد المحدود إلى الميدان الواسع الفسيح لتشمل العالمين ، ويغير حد فى

الزمان أو المكان ، وبغير اقتصار فى الخطاب على قوم دون أقوام أو على عرق دون أعراق ! واقتضت هذه الخاتمية ـ فيما اقتضت ـ كمال وتمام الشريعة ، وتطهير وإصلاح كل ما لابس تدين الغابرين من بعد عن الدين ، أو التلبيس فى أمر الأنبياء والخلط بشأنهم بين النبوة الحقيقية وبين العرافة والرؤيا والأحلام والاستطلاع والتنجيم والكهانة والجذب وقراءة الغيب والسحر بل وأضراب من الجنون فيما أسموه بالجنون المقدس !. واقتضت هذه الخاتمية فيما اقتضت التعريف بالأنبياء الحقيقيين وتجلية صورهم وتطهيرها مما علق بها من إساءات التطاول أو التحريف ، والارتفاع بهذه النبوّات الحقيقية إلى مقامها الرفيع السامق كاصطفاء إلهى من السماء للهداية والإصلاح!

وأول ما اقتضته خاتمية وعموم وشمول رسالة الإسلام ، أن تكون من رب العالمين إلى العالمين .. الله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد ، الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا احد .. هو سبحانه الحى الذى

لا يموت ، الموجود من الأزل ، والباقى إلى الأبد .. كل من عليها فان إلاّ وجهه سبحانه ذو الجلال والإكرام .. الله تعالى رب العالمين ، فليس الرب كما يقول العهد القديم "رب اسرائيل" ، أو رب قوم آخرين من مخلوقات الله ، وإنما هو ـ عز شأنه ـ " رب العالمين " .. وهذا التعبير متعدد التكرار في القرآن المبين ، وتردد فى آياته أكثر من سبعين مرة .. واقتضت النبوة الخاتمية ، العامة الشاملة ، أن تكون رسالة النبى الخاتم للعالمين وللناس كافة ، لا يختص به قوم ولا عرق ولا زمان ولا مكان .. هذه الرسالة العامة الشاملة التى بعث بها الله تعالى محمداً عليه السلام : " فى أم القرى " : مكة المكرمة ـ لم تكن رسالة للمكيين ولا لأهل مكة فقط ، ولا للقرشيين أهل محمد عليه السلام بخاصة ، ولا لأهل الجزيرة العربية خاصة دون سواهم ـ وإنما هى نبوة هداية عامة شاملة تتجه بخطابها إلى الناس كافة ، وإلى العالمين إلى يوم الدين!

* "تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً" (الفرقان /١) .

* "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ" (سبأ/٢٨) .

* "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ " (الأعراف /١٥٨) .

* "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ" (التوبة /٢٢) .

هذا الخطاب العام الشامل ، اقتضت عموميته وخاتميته أن يصحح عقيدة النبوة من الأوضار التى شابتها فى أفهام الغابرين ، وأن يضع الرسل والأنبياء السابقين موضعهم اللائق بما حملوه من رسالات إلهية اقتضتها الحكمة الإلهية فى أوانها لإمداد أقوام هنا وهناك ـ فى زمن معين ـ بهداية تستنقذهم من وهدة الكفر والضلال الذى ران عليهم ، وتشد

أبصارهم إلى الواجد الماجد عز وجل .. لم يكن الجنوح فى فهم عقيدة النبوات السابقة ، أو خلطها بصناعة التنجيم والعرافة والاستطلاع والرؤيا والجذب والكهانة والجنون المقدس ، وما إلى ذلك - .. لم يكن هذا الجنوح أو الخلط نابعا من ذات عقيدة النبوة فى الأديان السابقة ، وإنما شجر الجنوح والخلط من التباس وجنوح أفهام الناس ، ومن سيادة الجهالة والأساطير ، ومن لجاجات لم تتوقف فى أغلاطها ولا فى شططها عند حد !!

آية إلهية الرسالة المحمدية أنها لم تركب على أغلاط الناس فى عقائد النبوات السالفة مثلما تفعل الدعوات السياسية والإنسانية بعامة للركوب على ماسبقها بإبراز عيوب السالف والتنويه بمحاسن ما أتت هى به حاملة إياه إلى الناس .. لم تفعل الرسالة المحمدية ذلك ، بل أبرأت النبوات السالفة من أغلاط والتباسات وأوضار الناس ، وفرزت النبوات الصحيحة من أساطير التنجيم وجذب الجنون والكهانة ، وكرمت الأنبياء ودرأت عنهم ما ألصقته بهم بغير

حق كتابات أدرجت فى أسفار قديمة داخلها التحريف فى التدوين الذى استمر مئات السنين ، ثم التحريف فى الجمع الذى جاوز بدوره نحو ألف سنة !

لم **تقفز** الرسالة المحمدية فوق **الرسالات السابقة** ، ولم تدر لها ظهرها ، ولم تعادها - بل **وحضت على الإيمان** بكافة الرسل والأنبياء المبعوثين من الله جل شأنه ، ونبهت إلى وحدة هذه الرسالات **جميعا وإلى اكتمالها بالدعوة الإسلامية الخاتمة** .. "وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ × بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " (النحل ٤٣ ، ٤٤) .. "إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً" (النساء ١٦٣) .. "شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ

أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ" (الشورى /١٣) ..

بذلك نبه القرآن المجيد إلى أن أصول الرسالات والنبوات واحد من خلال منظومة واحدة متتابعة متكاملة ختمت بالإسلام .. " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً " (المائدة /٣) ..

لذلك لم يكن غريبا ، بل هو لب الرسالة الخاتمة ، أن تتخذ من الإيمان بالرسالات والنبوات السابقة ، قاعدة ينطلق منها الإيمان والتسليم بالإسلام .. "قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ " (البقرة/١٣٦ ، آل عمران/٨٤) .

والأنبياء فى كتاب العقيدة الإسلامية ، أعز وأجل من الأوضار التى ألصقتها بهم الكتابات السابقة .. فهم جميعا

اصطفاء الله تعالى ، ومحل تكريمه سبحانه وعنايته .. عنهم تحدث القرآن المجيد بكل الاحترام والتوقير والإجلال .. "إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ" (آل عمران/٣٣) .. " سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ " (الصافات/٧٩) .. وعن أبى الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام يقول الله عز وجل : " وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ " (البقرة / ١٣٠) .. "وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً" (النساء / ١٢٥) .. "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ " (هود/٧٥).. " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا" (مريم /٤١) .. "سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ" (الصافات/١٠٩) ..

الصحف الأولى فى القرآن المجيد ، هى صحف إبراهيم وموسى .. " إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى " (الاعلى ١٨ ، ١٩) .. " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولا نَّبِيًّا " (مريم/٥١) .. " وكلم الله موسى تكليما" (النساء ١٦٤) .. "سَلامٌ عَلَى مُوسَى

وَهَارُونَ " (الصافات/ ١٢٠). "وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاً هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ " (الأنعام ٨٤ ، ٨٥) .. " وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ " (ص/٤٥) .. "وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ " (الصافات / ١٢٣) .. "سَلامٌ عَلَى آلْ يَاسِينَ" (الصافات / ١٣٠) .. " اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ " (ص/١٧) ..

وأبلغ ما قيل من حديث عن زكريا ويحيى ، ومريم ، والسيد المسيح عليه السلام .. أورده القرآن المجيد : فروى فى آيات بليغة عامرة ، كيف رزق زكريا وامرأته على الكبر بيحيى عليه السلام ، وروى كيف نذرت امرأة عمران ما فى بطنها لخدمة الله رب العالمين ، فلما وضعت حملها أنثى جعلت تقول لربها كأنها تعتذر إليه فيما رواه القرآن الكريم : " فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء * فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ × قَالَ رَبِّ أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء " (آل عمران ٣٦ ـ ٤٠) ..

ويخبر القرآن الحكيم كيف طهر الله مريم واصطفاها على نساء العالمين : " وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ " (آل عمران /٤٢) .. وكيف بشرها سبحانه وتعالى بالمسيح عليه السلام ـ كلمة منه ووجيها فى الدنيا والآخرة .. "إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا

مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ " (آل عمران ٤٥ ، ٤٦) .. وكيف آتاه الله البينات وأيده بروح القدس .. "وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ" (البقرة ٢٥٣ ، ٨٧)

كما روى القرآن الكريم كيف امتدت رعايته للمسيح عليه السلام ورفعه وطهره من كفر بنى إسرائيل الذين مكروا ومكر الله والله خير الماكرين .. هنالك ناداه ربه سبحانه .. "إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ *فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ *" (آل عمران ٥٥ ، ٥٦) .. هؤلاء الذين كفروا فقالوا على مريم البتول بهتانا عظيما .. "وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ

وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" .. (النساء ١٥٦ ـ ١٥٨) .

وكما اقتضت عمومية الرسالة المحمدية الخاتمة ، احترام وتوقير كافة النبوات والرسالات السابقة ، وتوقير وتبجيل هؤلاء الأنبياء الذين نقلوا رسالات ربهم ـ ، فإنها قد اقتضت أيضا فى عموم خطابها ألاّ تفرق بين الناس لعرق أو جنس أو عصبية أو لون أو مال أو جاه أو سلطان ، وجعلت التقوى والعمل الصالح مناط خيرية الإنسان ، لا حسبه أو نسبه أو أصله أو جاهه أو ماله ، فيقول الله تعالى : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " (الحجرات ١٣) ..

هذا فرع على أصل الإنسانية الواحد الذى كرر القرآن المجيد لفت الأنظار إليه .. "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً

كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً" (النساء ١) .. "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا" (الأعراف ١٨٩) .

هذه القاعدة هى التى استوى عليها خطاب النبوة المحمدية الخاتمة ، تتجه من رب العالمين ، إلى العالمين جميعاً والناس كافة .. لا تتحدد بمكان ولا بزمان ، ولا تقتصر على أقوام أو أعراق ، وإنما هو خطاب السماء إلى الدنيا بأسرها .. قيمة الإنسان بعمله وتقواه ، وأبواب السماء مفتوحة على مصاريعها للعالمين تستقبل دعاء وابتهالات المؤمنين ، وتتسع لضراعات التائهين والتائبين!!

قد اقتضى قيام النبوة المحمدية بهذه المهام الكبرى ، أن تكون نبوة هداية للقلب والوجدان والعقل والضمير .. أن يكون عمادها الأول على خطاب العقل وهدايته ، لا على إفحامه وتكبيله وقمعه .. فقد رأينا فى تاريخ الإنسانية كيف ولّت وانطمرت مع الزمن حجج الصدق المادية الحسية التى بررها فى زمانها خصوصية كل دعوة إلى قوم وإلى مكان

محدد فى زمن محدد ! وكيف أن الناس وقد جبلوا على الصد والمعاندة والإنكار ، لم يعدموا من يجادل فيما رآه وشاهده بعينه وسمع بأذنه ، وأنه مع تباعد الزمن وتراكمات السنين وتوالى الأجيال وانقراض شهود الرؤية أخذ أثر هذه الخوارق الحسية يبهت فى ذاكرة وعقائد الناس .. وهذا الانطمار أوالخفوت أو التناقص فى أثر المعجزة أو الخارقة لا تحتمله دعوة جعلت مرادها العالمين جميعا إلى يوم الدين .. وليس يفى بأغراضها الموصولة الممتدة فى المكان والزمان بغير حدود ، أن تقتصر حجتها على جماعة محدودة شاهدت أو سمعت فى مكان وزمان ، وإنما هى تتغيا ويجب أن تتغيا حجة موصولة ممتدة يراها الحاضرون واللاحقون كما رآها الغابرون ، فلا ينقضى أو ينطمر أثرها ، ولا تتباعد صورتها فى أذهان وعقول وصفحات وجدان الناس بتباعد المكان أو بمضى الزمان .. لذلك كان " القرآن المجيد " هو حجة الإسلام الباقية التى لا تنطمر ولا يتباعد أثرها ببعد شقة أو بانصرام زمن ، بل إن القرآن يزداد للناس جلاءً مع

مضى الزمن بما يستطيعه اللاحقون من تعمق أكثر فى معانيه وفى فهم مراميه ، ومن استشهاد بمفرزات العلم ومكتشفاته ، وقدرة أعرض وأوسع على إدراك مالم يكن عند التنزيل متاحاً الإلمام به لقصور الأفهام من ناحية ، أو لأن بعضاً أو كثيرا من الحقائق العلمية أو التاريخية لم يكن قد تجلى للناس بعد !

قمة وغاية الصدق والسداد فى بيان امتداد حجة القرآن المجيد ـ ما ورد عنه بحديث رسول القرآن عليه السلام من أنه "لا تنقضى عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد".. فآياته وبيناته ، وانتظام ودقة وعمق أحكامه ، باقية بين دفتيه ، لا يدركها زمن ، ولا يأكلها مرور وقت !! .. وجرسه ومعماره الموسيقى لصيق بحروفه وكلماته يتغشى من يتلوه اليوم مثلما ـ أو ربما بأكثر ـ مما تغشى من تلوه أواستمعوا إليه بأمس .. إن علم القراءات وفنونها التى جاد بها الزمن ، قد جعلت الإحساس بأعماق الجرس الموسيقى لآيات القرآن أكثر نفاذاً وتأثيرا وعراضة مما كان متاحاً للناس من مئات

السنين .. وما يكشفه العلم كل يوم يزيد رؤية وإدراك الناس لحكمة وصدق وإعجاز ما ورد بالقرآن الذى تنزل على رسول الإسلام عليه السلام من أربعة عشر قرنا .. ثم إن عطاء القرآن قد مكن الفاهمين المجددين أن يجدوا فى أحكامه وفى الاستنباطات الصحيحة منها - ما يصلح لمواكبة وملاحقة وعلاج كل ما تلقى به العصور اللاحقة من مستجدات أو مستحدثات أو مشاكل وأقضيات!

النبوة المحمدية هى إذن نبوة هداية للعقل والضمير ، وليست نبوة استطلاع وتنجيم ، ولا هى نبوة عرافة أوعيافة أو كهانة ، ولا هى نبوة شعر ولا جنون مقدس ، لا هى نبوة قراءة للغيب وإنباء بآتيات الزمن القابل ، ولا هى شطحات كذب وتضليل .. قد بلغ سوء الظن فى النبوات غابرا - فيما يقول العقاد - حد إطلاق وصف "أنبياء كذبة" على بعض الأنبياء فى العهدين القديم والجديد .. فنجد فى سفر أشعياء حديثا عن "النبى الكذاب" - فيقول : "الشيخ المعتبر هو الرأس والنبى بالكذب هو الذَّنَب" ! (أشعياء ٩ :

١٥) .. وفى إنجيل متى : "ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ، ويضلون كثيرين" ! (متى ٢٤ : ١١) ، وفى إنجيل لوقا : "لأنه هكذا كان يفعل آباؤهم بالأنبياء الكذبة" . (لوقا٦: ٢٦) ، ويصف يوحنا فى رؤيته خروج الأرواح النجسة من فم "النبى الكذاب" . !

لقد أتت شبهة المعجزة سهلة ميسورة إلى رسول القرآن ، مهيأة للاقتناص والاستغلال لمن يريد الكذب بها على الناس ، يوم أن كسفت الشمس أثناء دفن إبراهيم ابن النبى عليه السلام ، فتصايح الناس أنها آية من آيات الله للنبى المصطفى عليه السلام ونجله ، بيد أن رسول القرآن رفض هذه الفرصة التى يتحينها الكذابون أو طلاب الدنيا والخداع والمنافع ، ولم يشأ عليه السلام أن يترك الناس فى ظنهم الذى يضيف إليه فى نظرهم فضلاً وآية ، فطفق ينبههم ويحذرهم من هذا الفهم الخاطئ الذى سارعوا إليه ، ويقول لهم : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد أو لحياته!

قـد روت الأخـبـار المأثـورة كثـيـرا من المعـجـزات والخوارق التى صاحبت مولد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطفـولتـه ، ولكن مـحـمـداً عليـه السـلام لم يذكـر هذه المعـجزات ، ولا أثر عنه أنه كـان مـعنيـا بأى إشـارة إلى أى معجزة من المعجزات المتصلة بشخصه أو برسالته ، بل كان حفيا بالقرآن يوصي الناس جميعا به ، بل ويخشى عليهم من كتابـة السنة مـخافة أن تـختلط بكتاب الله المبين ، فيقـول لهم : "لا تكتبـوا عنى غيـر القرآن ، وحدثـوا عنـى ولا حرج ، ومن كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" !

نبـوة القـرآن نبـوة فـهم وهداية للعقل والضـمير ، بالنظر والتـأمل والتـفكيـر .. لم تتـوسل النبـوة القـرآنيـة فى هدايتـها للعقل والضمير بالاعتماد على خوارق المعجزات الحسية ، بل عنيت بصرف الناس عن التـعلق بها والتنبيه إلى احتـمالات تعطيلها لملكة العقل في استقبـال هداية الله .. عـن نفسـه يسـارع نبى القـرآن فـيقـول للمـؤمـنين إنه ليس إلاّ بشـرا رسـولا : "قُـلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَـراً رَّسُـولاً" ؟!

(الإسراء ٩٣) .. ويقول لهم من قول ربه تبارك وتعالى :
"وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا" (الإسراء ٥٩) .. يعلمهم عليه السلام أن المعجزة لاتنفع من لاينفعه عقله ، ولا تقنع المكابر المبطل إذا أصر على العناد واللجاجة فى باطله ، .. فيتلو عليهم مما تنزل عليه :
"وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ" (الحجر ١٤) .. "وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ" (يونس ٢٠)

لقد حدد القرآن المجيد معنى كلمة "النبوة" ، فأوضح أن النبى هو مبعوث الله ومصطفاه لينقل للناس - بلا زيادة ولا نقصان - ما أوحى إليه ربه وأمره بتبليغه ..

النبى ليس بساحر ، وما كان للسحر أن يفلح أو تنهض عليه دعوة تنقل عن السماء .. "وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى" (طه ٦٩) .

وليس قـول النبى أو مـا ينقله عن ربه بقـول شـاعـر .. "وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ" (الحاقة ٤١) .. "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ" (يس ٦٩) .

وليست النبوة ضربا من ضروب الكهانة ، ولا النبى كاهن يتعاطى الكهانة ويلقيها إلى الناس : "وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ" (الحاقة ٤٢) .. "فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ" (الطور ٢٩) .

وليست النبوة ضربا من الجذب أو الجنون المقدس .. "إِنَّهُ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" (القلم ١ - ٤)

عن هذه النبوة يورد القرآن المجيد فى سورة الحاقة : "إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ

بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ" (الحاقة ٤٠ ـ ٥٢) .

عقيدة النبوة في القرآن المجيد هي بهذا الصفاء والوضوح ، لا تختلط بشعر ولا بسحر ولا باستطلاع ولا بتنجيم ولا بكهانة ولا بعرافة .. هي تبليغ عن الله تعالى الخالق الواجد الماجد ، لا يدعي رسول القرآن العلم بالغيب أو الإخبار بآتيات الأيام .. يقول للناس من قول ربه : "وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ" (الأنعام ٥٩) .. ويتلو عليهم قوله عز وجل: "وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ" (يونس ٢٠) .. ويقول لهم : "قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ " (الأنعام ٥٠) .

حامل الرسالة بشر رسول ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وأهله بأدبه هذا العظيم لحمل رسالة الإسلام إلى الناس كافة.. هاديا ، وبشيرا ، ونذيرا ..

* "وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ " (النحل ٤٤)

* "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيراً" (الأحزاب ٤٥ ، ٤٦)

* "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ " (الفتح ٢٨)

* "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الايمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ " (الشورى ٥٢)

* "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ" (المائدة ٦٧)

هذه هي النبوة المحمدية ، نبوة تبليغ وهداية ، التأمت مع العقيدة الإلهية في منظومة كاملة متكاملة تهدي الإنسان حيث كان إلى ما شاء الله .

فهر الكتاب

رقم الايداع
٢٠٠٦/١٧٣٦٣
I.S.B.N
977-07-1215-9


عالمية الإسلام
أوراق
من هدى النبوة
هدى القرآن
مواقف ومشاهد إسلامية
ماذا أقول لكم ؟
الإنسان والكون والحياة
رجائي عطية
الوطن والحياة
السيرة النبوية في .. رحاب التنزيل
السيرة النبوية في .. رحاب التنزيل
السيرة النبوية في .. رحاب التنزيل
السيرة النبوية في .. رحاب التنزيل

هذا الكتاب



رجائى عطية

يشترك أهل الديانات، وأصحاب الدعوات، فى الانشغال بتساؤلات قد تصل حد الحسرات، على ما كان عليه الدين - أى دين - فى منبعه الصافى حين تلقاه أسلافنا الأوائل من النبى أو الرسول الذى حمل دعوة الله تعالى إلى الناس، وبين ما صار إليه فهم أو التزام أو سلوك الأجيال فى الزمن أو الأزمان التالية للبعث الذى اتصلت فيه الأرض اتصالاً حياً بالسماء ؟!

بهذه الكلمات يمهد المؤلف لتساؤله : ما أسباب هذا الفارق - اتسع أو ضاق - بين الدين كما نزل، وبين فهم أو عدم فهم الحاليين له ؟! .. ما الذى حدث عبر الزمان حتى أخذ الناس بعيداً عن فهم روح وقيم ومبادئ وأحكام الدين كما تلقاه الأسلاف الأوائل فى زمن البعث ؟! .. ما الذى حدث طوال الرحلة الطويلة التى قطعتها الأديان أو قطعها المتلامسون مع الأديان عبر الزمان ؟! ما الذى أضافه الناس تعميقاً صحيحاً لفهم الدين، وما الذى ألصقوه مما ليس من الدين فى شىء ؟! .. ما الذى [illegible] الزمن، وما الذى أخذه، وكيف نستطيع أن نشق طريقنا وسط [illegible] كمة إلى جوهر الدين ونستخلصه رائقاً مصفى كما نزل [illegible] ..

يقول المؤلف : " هذه محض محاولة سرت فيها [illegible] عبر الزمان، حاولت مستطاعى أن نرى معاً ما يعيننا على [illegible] كما نزلت وعلى أن نتقدم واعين فاهمين مدركين إلى دوحة الإيمان [illegible]

حول هذا كله يدور هذا الكتاب للمفكر الأديب المحامى القدير رجائى عطية الذى أثرى المكتبة العربية ، كما أثرى المحاماة وصار واحداً من أنبغ أعلامها - بعديد من المؤلفات فى الفكر والأدب وعلوم الكتاب والإسلاميات.